فَلَمْ أَزَلْ أَتَلَمَّحُ جُمْلَةَ التَّكَالِيفِ؛ فَإِذَا عَجَزَتْ قُوىٰ العَقْلِ عَنْ الاطِّلاعِ علىٰ حِكْمَةِ ذٰلِكَ، وَقَدْ ثَبَتَ لَهَا حِكْمَةُ الفَاعِلِ؛ عَلِمَتْ قُصُورَهَا عَنْ دَرْكِ جَمِيعِ المَطْلُوبِ، فَأَذْعَنَتْ مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ، وَبِذٰلِكَ تُؤَدِّي مَفْرُوضَ تَكْلِيفِهَا.

١٢٢ ـ **ولَوْ قِيلَ لِلْعقْلِ**: قَدْ ثَبَتَ عِنْدَكَ حِكْمَةُ الخَالِقِ بِمَا بَنَىٰ؛ أَفَيَجُوزُ أَنْ يَنْقَدِحَ[1] فِي حِكْمَتِهِ أَنَّهُ نَقَضَ؟ لَقَالَ: لا، لِأَنِّي عَرَفْتُ بِالبُرْهَانِ أَنَّهُ حَكِيمٌ، وَأَنَا أَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِ عِلَلِ حِكْمَتِهِ، فَأُسَلِّمُ عَلَىٰ رَغْمِي، مُقِرًّا بِعَجْزِي[2].

٢٨ - فصل: فوائد النكاح

١٢٣ ـ **تَأَمَّلْتُ** فِي فَوَائِدِ النِّكَاحِ وَمَعَانِيْهِ وَمَوْضُوعِهِ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الأَصْلَ الأَكْبَرَ فِي وَضْعِهِ وُجُوْدُ النَّسْلِ؛ لأَنَّ هٰذَا الحَيَوَانَ لا يَزَالُ يَتَحَلَّلُ، ثُمَّ يَخْلُفُ المُتَحَلِّلَ الغِذَاءُ، ثُمَّ يَتَحَلَّلُ مِنَ الأَجْزَاءِ الأَصْلِيَّةِ مَا لا يَخْلُفُه شَيْءٌ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بدٌّ مِنْ فنائِهِ، وَكَانَ المُرَادُ امْتِدَادَ أَزْمَانِ الدُّنيا؛ جُعِلَ النسلُ خَلَفًا عَنِ الأَصْلِ.

١٢٤ ـ وَلَمَّا كَانَتْ صُورَةُ النِّكَاحِ تَأْبَاهَا النُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ؛ مِنْ كَشْفِ العَوْرَةِ، وَمُلَاقَاةِ مَا لا يُسْتَحْسَنُ لِنَفْسِهِ؛ جُعِلَتِ الشَّهْوَةُ تَحُثُّ عَلَيْهِ؛ لِيَحْصُلَ المَقْصُودُ.

١٢٥ ـ ثُمَّ رَأَيْتُ هٰذا المَقْصُودَ الأَصْلِيَّ يَتْبَعُهُ شَيْءٌ آخَرُ، وَهُوَ اسْتِفْرَاغُ هٰذَا الماءِ، الذي يُؤْذِي دَوَامُ احْتِقَانِهِ؛ فإنَّ الْمَنِيَّ يَنْفَصِلُ مِنَ الهَضْمِ الرَّابِعِ؛ فَهُوَ مِنْ أَصْفَىٰ جَوْهِرِ الغِذَاءِ وَأَجْوَدِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ؛ فَهُوَ أَحَدُ الذَّخَائِرِ لِلنَّفْسِ، فَإِنَّهَا تَدَّخِرُ ـ لِبَقَائِهَا وقوَّتِها ـ الدَّمَ، ثُمَّ المَنِيَّ، ثُمَّ تَدَّخِرُ التُّفْلَ[3]، الذي هُوَ مِنْ أَعْمِدَةِ البَدَنِ؛ كَأَنَّهُ لِخَوْفِ عَدَمِ غَيْرِهِ؛ فَإِذَا زَادَ اجْتِمَاعُ المَنِيِّ؛ أَقْلَقَ عَلَىٰ نَحْوِ إِقْلاقِ البَوْلِ لِلْحَاقِنِ؛ إِلَّا أَنَّ إِقْلَاقَهُ مِنْ حَيْثُ المَعْنَىٰ أَكْثَرُ مِنْ إقلاقِ البَوْلِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ، فَتُوجِبُ كَثْرَةُ اجْتِمَاعِهِ، وَطُوْلُ احْتِبَاسِهِ أمراضًا صَعْبَةً؛ لأَنَّه يَتَرَقَّىٰ مِنْ بُخَارِهِ إِلىٰ الدِّمَاغِ فَيُؤْذِي،

---

(١) الخطاب للعقل فينبغي أن تكون الكلمة: تقدح.

(٢) انظر: رسالة (الاحتجاج بالقدر) لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) **التفل**: اللعاب.

وَرُبَّمَا أَحْدَثَ سُمِّيَّةً[1]، وَمَتَىٰ كَانَ المِزَاجُ سَلِيمًا؛ فَالطَّبْعُ يَطلُبُ بُرُوزَ المَنِيِّ إِذَا اجْتَمَعَ، كَمَا يَطْلُبُ بُرُوْزَ الْبَوْلِ[2].

١٢٦ ـ وَقَدْ يَنْحَرِفُ بَعْضُ الأَمْزِجَةِ، فَيَقِلُّ اجْتِمَاعُهُ عِنْدَهُ، فَيَنْدُرُ طَلَبُهُ لإِخْرَاجِهِ، وإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ المِزَاجِ الصَّحِيحِ، **فَأَقُولُ**: قَدْ بَيَّنْتُ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ بِهِ احْتِبَاسُهُ؛ أَوْجَبَ أَمْرَاضًا، وَجَدَّدَ أفكارًا رَدِيئَةً، وَجَلَبَ العِشْقَ والوَسْوَسَةَ... إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الآفَاتِ.

١٢٧ ـ وَقَدْ نَجِدُ صَحِيحَ المِزَاجِ يُخْرِجُ ذٰلِكَ إِذَا اجْتَمَعَ، وَهُوَ بَعْدُ مُتَقَلْقِلٌ، فَكَأَنَّهُ الآكِلُ الَّذِي لا يَشْبَعُ! فَبَحَثْتُ عَنْ ذٰلِكَ، فَرَأَيْتُهُ **وُقُوعَ الخَلَلِ فِي المَنْكُوحِ**: إِمَّا لِدَمَامَتِهِ، وَقُبْحِ مَنْظَرِهِ، أَوْ لآفةٍ فِيهِ، أَوْ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَطْلُوب لِلنَّفْسِ؛ فَحِينَئِذ يَخْرُجُ مِنْهُ، وَيَبْقَىٰ بَعْضُهُ.

فَإِذَا أَرَدْتَ مَعْرِفَةَ مَا يَدُلُّكَ عَلَىٰ ذٰلِكَ؛ فَقِسْ مِقْدَارَ خُرُوجِ المَنِيِّ فِي المَحَلِّ المُشْتَهَىٰ، وَفِي المَحَلِّ الَّذِي هُوَ دُونَهُ؛ كالوَطْءِ بَيْنَ الفَخِذَيْنِ، بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ الوَطْءِ فِي مَحَلِّ النِّكَاحِ، وَكَوَطْءِ البِكْرِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ وطْءِ الثَّيِّبِ، فَعُلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ تَخَيُّرَ المَنْكُوحِ يَسْتَقْصِي فُضُولَ المَنِيِّ، فَيَحْصُلُ لِلنَّفْسِ كَمَالُ اللَّذَّةِ؛ لِمَوْضِعِ كَمَالِ بُرُوزِ الفُضُولِ.

١٢٨ ـ ثُمَّ قَدْ يُؤَثِّرُ هٰذَا فِي الوَلَدِ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ [ـ أَيْ: الوَلَدُ ـ] مِنْ شابَّيْنِ قَدْ حَبَسَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ النِّكَاحِ [مُدَّةً] مَدِيدَةً؛ كَانَ الوَلَدُ أَقْوَىٰ مِنْهُ مِنْ غَيْرِهِمَا أَوْ مِنْ المُدْمِنِ عَلَىٰ النِّكَاحِ فِي الْأَغْلَبِ.

١٢٩ ـ وَلِهٰذَا كُرِهَ نِكَاحُ الأَقَارِبِ؛ لأَنَّهُ مِمّا يَقْبُضُ النَّفْسَ عَنِ انْبِسَاطِهَا، فَيَتَخَيَّلُ الإِنْسَانُ أَنَّهُ يَنْكِحُ بَعْضَهُ، وَمُدِحَ نِكَاحُ الغَرَائِبِ لِهٰذَا المَعْنَىٰ[3].

١٣٠ ـ وَمِنْ هٰذَا الفَنِّ يَحْصُلُ كَثِيرٌ مِنَ المَقْصُودِ مِنْ دَفْعِ هٰذِهِ الفُضُولِ المُؤْذِيَةِ

---

(١) يرجع الآن إلى علماء الاختصاص في هذا الموضوع.

(٢) يخرج المني بالاحتلام فلا يطول احتباسه.

(٣) لنكاح الأقارب تأثير كبير في ظهور الأمراض الوراثية.

بِمَنْكُوحٍ مُسْتَجَدٍّ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَقْبَحَ الصُّوْرَةِ، مَا لَا يَحْصُلُ بِهِ فِي الْعَادَةِ.

وَمِثَالُ هٰذَا: أَنَّ الطَّاعِمَ إِذَا امْتَلَأَ خُبْزًا وَلَحْمًا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ فَضْلٌ لِتَنَاوُلِ لُقْمَةٍ، [إِذَا] قُدِّمَتْ إِلَيْهِ الحَلْوَىٰ؛ فَيَتَنَاوَلُ، فَلَوْ قُدِّمَ أَعْجَبُ مِنْهَا؛ لَتَنَاوَلَ، لِأَنَّ الجِدَّةَ لَهَا مَعْنًى عَجِيبٌ. وَذٰلِكَ **أَنَّ النَّفْسَ لَا تَمِيلُ إِلَىٰ مَا أَلِفَتْ، وَتَطْلُبُ غَيْرَ مَا عَرَفَتْ،** وَيَتَخَايَلُ لَهَا فِي الجَدِيدِ نَوعُ مُرَادٍ؛ فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مُرَادَهَا؛ صَدَفَتْ[1] إِلَىٰ جَدِيدٍ آخَرَ، فَكَأَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ وُجُودَ غَرَضٍ تامٍّ بِلَا كَدَرٍ، وَهِيَ تَتَخَايَلُهُ فِيمَا تَرَاهُ[2].

١٣١ ـ وَفِي هٰذَا المَعْنَىٰ دَلِيلٌ مَدْفُونٌ عَلَىٰ البَعْثِ؛ لِأَنَّ [فِي] خَلْقِ [مَنْ] هِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِلَا مُتَعَلَّقٍ نَوْعُ عَبَثٍ؛ فافْهَمْ هٰذَا! فَإِذَا رَأَتِ النَّفْسُ عُيُوبَ مَا خَالَطَتْ فِي الدُّنْيَا؛ عَادَتْ تَطْلُبُ جَدِيدًا، وَلِذٰلِكَ قَالَ الحُكَمَاءُ: **العِشْقُ العَمَىٰ عَنْ عُيُوبِ المَحْبُوبِ**؛ فَمَنْ تَأَمَّلَ عُيُوبَهُ سَلَا.

١٣٢ ـ وَلِذٰلِكَ يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ لَا تَبْعُدَ عَنْ زَوْجِهَا بُعْدًا يُنْسِيهِ إِيَّاهَا، ولا تَقْرُبَ مِنْهُ قُرْبًا يَمَلُّهَا مَعَهُ، وَكَذٰلِكَ يُسْتَحَبُّ [ذٰلِكَ] لَهُ؛ لِئَلَّا يَمَلَّهَا، أو تَظْهَرَ لَدَيْهِ مَكْنُونَاتُ عُيُوبِهَا.

١٣٣ ـ وَيَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَطَّلِعَ مِنْهَا عَلَىٰ عَوْرَةٍ، وَيَجْتَهِدَ فِي أَلَّا يَشُمَّ مِنْهَا إِلَّا أَطْيَبَ[3] رِيحٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْخِصَالِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا النِّسَاءُ الحَكِيمَاتُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَعْلَمْنَ ذٰلِكَ بِفِطَرِهِنَّ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَىٰ تَعْلِيمٍ، فَأَمَّا الجَاهِلَاتُ؛ فَإِنَّهُنَّ لَا يَنْظُرْنَ فِي هٰذَا، فَيَتَعَجَّلُ التِفَاتُ الأَزْوَاجِ عَنْهُنَّ.

١٣٤ ـ فَمَنْ أَرَادَ نَجَابَةَ الوَلَدِ، وَقَضَاءَ الوَطَرِ؛ فَلْيَتَخَيَّرِ المَنْكُوحَ: إِنْ كَانَ زَوْجَةً؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهَا؛ فَإِذَا وَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ فَلْيَتَزَوَّجْهَا، وَلْيَنْظُرْ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا فِي نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ عَلَامَةَ تَعَلُّقِ حُبِّهَا بِالْقَلْبِ أَنَّهُ لَا يَصْرِفُ الطَّرْفَ عَنها؛ فَإِذَا انْصَرَفَ

---

(١) **صدفت**: مالت.

(٢) قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: إن لي نفسًا تواقة، لم تتق إلى منزلة إلا تاقت إلى ما هو أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة (أي: الخلافة)، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة.

(٣) في الأصل: طيب.

الطَّرْفُ؛ قَلِقَ القَلْبُ بِتَقَاضِي[1] النَّظْرَةِ؛ فَهٰذَا الغَايَةُ، وَدُونَهُ مَرَاتِبُ عَلَىٰ مَقَادِيرِهَا يَكُونُ بُلُوغُ الأَغْرَاضِ، وَإِنْ كَان جَارِيَةً تُشْتَرىٰ؛ فَلْيَنْظُر إِلَيْهَا أَبْلَغَ مِنْ ذٰلِكَ النَّظَرِ.

١٣٥ ـ وَمَنْ قَدَرَ عَلىٰ مُنَاطَقَةِ المَرْأَةِ أَوْ مُكَالَمَتِهَا بِمَا يُوْجِبُ التَّنْبِيهِ، ثُمَّ لِيَرَىٰ ذٰلِكَ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الحُسْنَ فِي الفَمِ والعَيْنَيْنِ، وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ عَلىٰ جَوَازِ أَنْ يُبْصِرَ الرَّجُلُ مِنَ المَرْأَةِ الّتي يُرِيدُ نِكَاحَهَا ما هُوَ عَوْرَةٌ؛ يُشِيرُ إِلىٰ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ الوَجْهِ[2].

١٣٦ ـ وَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يُؤَخِّرَ العَقْدَ أَوْ شِرَاءَ الجَارِيَةِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَوَقَانُ قَلْبِهِ؛ فَإِنّه لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ الْعَاقِلِ تَوَقَانُ النَّفْسِ لِأَجْلِ المُسْتَجِدِّ، وَتَوَقَانُهَا لِأَجْلِ الحُبِّ؛ فَإِذَا رَأَىٰ قَلَقَ الحُبِّ؛ أَقْدَمَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي[3]؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا حَمْدُ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيْمٍ[4]؛ قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الجَبَّارِ بْنُ أَبِي عَامِرٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي؛ قَالَ: حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ سَلَامٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا **عَطَاءٌ الخُرَاسَانِيُّ**[5]؛ قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: كُلُّ تَزْوِيجٍ عَلىٰ غَيْرِ هَوًى حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

١٣٧ ـ ثُمَّ يَنْبَغِي لِلْمُتَخَيِّرِ أَنْ يَتَفَرَّسَ الأَخْلَاقَ؛ فَإِنَّهَا مِنَ الخَفِيِّ، وَإِنَّ الصُّوْرَةَ إِذَا خَلَتْ مِنَ المَعْنَىٰ؛ كَانَتْ كَخَضْرَاءِ الدِّمَنِ[6]، وَنَجَابَةُ الوَلَدِ مَقْصُودَةٌ.

---

(١) **تقاضي**: انقضاء، ويكثر هذا التعبير في الكتاب، وتختلف دلالته حسب السياق، فالمؤلف يستعمله بمعان دارجة.

(٢) النظر إلى وجه المخطوبة ورقبتها ويدها مباح عند الحنابلة، بشرط أن يغلب على ظنه أنه مقبول عندها بحيث لا ترد خطبته، وأن لا يكون في خلوة، ولا يشترط أن يستأذنها، أو يستأذن وليها في النظر، بل له أن ينظر إليها وهي غافلة، وأن يكرر النظر مرة بعد أخرى.اهـ. الفقه على المذاهب الأربعة (٤/ ١٠) وانظر: مختصر الإفادات لابن بلبان ص(٤٠٤).

(٣) أبو بكر البغدادي النَّصري الحنبلي (٤٤٢ ـ ٥٣٥) مسند العصر، العالم المتفنن المعروف بقاضي المرستان، وهو المرستان العضدي (الذي أنشأهُ عضد الدولة فناخسرو بن بويه بالجانب الغربي من بغداد) وكان حسن الصورة حلو المنطق.

(٤) أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٣٣٦ ـ ٤٣٠هـ): حافظ مؤرخ من الثقات في الحفظ والرواية، أشهر كتبه (حلية الأولياء) وهو من مصادر المؤلف في كتبه، وقد اختصره في كتابه (صفوة الصفوة).

(٥) عطاء بن أبي مسلم الخراساني (٥٠ ـ ١٣٥هـ): المحدث الواعظ، نزيل دمشق والقدس.

(٦) **الدمن**: جمع دمنة، وهي ما تدمنه الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها: أي تلبده في مرابضها، =

١٣٨ ـ وَفَرَاغُ النَّفْسِ مِنَ الاهْتِمَامِ بودٍّ محبوسٍ أَصْلٌ عَظِيمٌ، يُوجِبُ إِقْبَالَ القَلْبِ عَلَىٰ المُهِمَّاتِ، وَمَنْ فَرَغَ مِنَ المُهِمَّاتِ العَارِضَةِ؛ أَقْبَلَ عَلَىٰ المُهِمَّاتِ الأَصْلِيّة، وَلِهٰذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**لَا يَقْضِيْ الْقَاضِيْ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»(١)، و: «**إِذَا وُضِعَ العَشَاءُ، وَحَضَرَتِ العِشَاءُ؛ فَابْدَؤوا بِالعَشَاءِ**»(٢).

١٣٩ ـ فَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ امْرَأَةٍ صَالِحَةٍ فِي الصُّورَةِ وَالمَعْنَىٰ؛ فَلْيُغْمِضْ عَنْ عَوْرَاتِهَا(٣)، وَلْتَجْتَهِدْ هِيَ مَرَاضِيهِ(٤)؛ مِنْ غَيْرِ قُرْبٍ يُمِلُّ، وَلا بُعْدٍ يُنْسِي، وَلْتُقْدِمْ عَلَىٰ التَّصَنُّعِ(٥) لَهُ؛ يَحْصُلِ الغَرَضَانِ مِنْهَا: **الوَلَدُ، وَقَضَاءُ الوَطَرِ**، مَعَ الاحْتِرَازِ الَّذِي أَوْصَيْتُ بِهِ؛ تَدُومُ الصُّحْبَةُ، وَيَحْصُلُ الغَنَاءُ(٦) بِهَا عَنْ غَيْرِهَا.

١٤٠ ـ فَإِن قَدَرَ عَلَىٰ الاسْتِكْثَارِ، فَأَضافَ إِلَيْهَا سِوَاهَا، عَالِمًا أَنَّهُ [بِذٰلِكَ] يَبْلُغُ الغَرَضَ، الَّذِي يُفْرِغُ قَلْبَهُ زيادةَ تَفْرِيغٍ؛ كانَ أَفْضَلَ لِحَالِهِ.

١٤١ ـ فَإِنْ خَافَ مِنْ وُجُودِ الغَيْرَةِ مَا يَشْغَلُ القَلْبَ الَّذِي قَدْ اهْتَمَمْنَا بِجَمْعِ هِمَّتِهِ، أَوْ خَافَ وُجُودَ مُسْتَحْسَنَةٍ، تَشْغَلُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ، أَوْ تَطْلُبُ مِنْهُ مَا يُوجِبُ خُرُوجَهُ عَنِ الوَرَعِ؛ [فَحَسْبُهُ وَاحِدَةٌ].

١٤٢ ـ وَيَدْخُلُ فِيمَا أَوْصَيْتُ بِهِ أَنَّهُ يَبْعُدُ فِي المُسْتَحْسَنَاتِ العَفَافُ؛ فَلْيُبَالِغِ الوَاجِدُ لَهُنَّ فِي حِفْظِهِنَّ وَسَتْرِهِنَّ؛ فَإِنْ وَجَدَ مَا لَا يُرْضِيهِ؛ عَجَّلَ الاسْتِبْدَالَ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ السُّلُوِّ، وَإِنْ قَدَرَ علَىٰ الاقْتِصَارِ؛ فَإِنَّ الاقْتِصَارَ عَلَىٰ الوَاحِدَةِ أَوْلَىٰ؛ فَإِنْ كَانَتْ عَلَىٰ الغَرَضِ قَنَعَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ اسْتَبْدَلَ.

١٤٣ ـ وَنِكَاحُ المَرْأَةِ المَحْبُوبَةِ يَسْتَفْرِغُ المَاءَ المُجْتَمِعَ، فَيُوجِبُ نَجَابَةَ الوَلَدِ وَتَمَامَهُ، وَقَضَاءَ الوَطَرِ بِكَمَالِهِ.

= فربما نبت فيها النبات الحسن النضير.

(١) رواه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٧٣)، ومسلم (٥٥٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) **عوراتها**: عيوبها.

(٤) ما لم يكن إثمًا، إذ لا طاعه لمخلوق في معصية الخالق، على أن تَصْرِفَه عن مطلبه غير المشروع بلطف ومداراة، وتذكير ونصح ما أمكن.

(٥) **التصنع**: التزين والتطيب. (٦) **الغَناء**: الاستغناء.

١٤٤ ـ وَمَنْ خَافَ وُجُودَ الغَيْرَةِ؛ فَعَلَيْهِ بِالسَّرَارِي؛ فَإِنَّهُنَّ أَقَلُّ غَيْرَةً، وَالاسْتِظْرَافُ لَهُنَّ أَمْكَنُ مِنَ اسْتِظْرَافِ الزَّوْجَاتِ.

١٤٥ ـ وَقَدْ كَانَتْ جَمَاعَةٌ يُمْكِنُهُمُ الجَمْعُ، وَكَانَ النِّسَاءُ يَصْبِرْنَ: فَكَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِئَةُ امْرَأَةٍ، وَلِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَلْفُ امْرَأَةٍ، وَقَدْ عُلِمَ حَالُ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَصْحَابِهِ.

وَكَانَ لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَرْبَعُ حَرَائِرَ، وَسَبْعَ عَشْرَةَ سُرِّيَّةً، وَتَزَوَّجَ ابْنُهُ الحَسَنُ رضي الله عنه بِنَحْوٍ مِنْ أَرْبَعِ مِئَةٍ، وَإِلَىٰ غَيْرِ هٰذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ، فَافْهَمْ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ تَفُزْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

٢٩ - فصل: العقاب العاجل

١٤٦ ـ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ أُنْمُوذَجُ[1] [ما يكونُ] فِيْ الآخِرَةِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي فِيهَا أُنْمُوذَجُ مَا يَجْرِي فِي الآخِرَةِ، فَأَمَّا المَخْلُوقُ مِنْهَا؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَيْسَ فِي الجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الأَسْمَاءَ. وَهٰذَا لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ شَوَّقَ بِنَعِيمٍ إِلَىٰ نَعِيمٍ، وَخَوَّفَ بِعَذَابٍ مِنْ عَذَابٍ.

١٤٧ ـ فَأَمَّا ما يَجْرِي فِي الدُّنْيَا؛ فَكُلُّ ظَالِمٍ مُعَاقَبٌ فِي العَاجِلِ عَلَىٰ ظُلْمِهِ قَبْلَ الآجِلِ، وَ[كَذٰلِكَ] كُلُّ مُذْنِبٍ ذَنْبًا، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣].

١٤٨ ـ وَرُبَّمَا رَأَىٰ العَاصِي سَلَامَةَ بَدَنِهِ وَمَالِهِ، فَظَنَّ أَنْ لَا عُقُوبَةَ، وَغَفْلَتُهُ عَمَّا عُوقِبَ بِهِ عُقُوبَةٌ، وَقَدْ قَالَ الحُكَمَاءُ: **المَعْصِيَةُ بَعْدَ المَعْصِيَةِ عِقَابُ المَعْصِيَةِ، وَالْحَسَنَةُ بَعْدَ الحَسَنَةِ ثَوَابُ الحَسَنَةِ.**

١٤٩ ـ وَرُبَّمَا كَانَ العِقَابُ العَاجِلُ مَعْنَوِيًّا؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: يَا رَبِّ! كَمْ أَعْصِيكَ وَلَا تُعَاقِبُنِي! **فَقِيلَ لَهُ**: كَمْ أُعَاقِبُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي! أَلَيْسَ قَدْ حَرَمْتُكَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي؟

---

(١) **الأنموذج والنموذج**: المثال والشبيه.

١٥٠ - فَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذَا الجِنْسَ مِنَ المُعَاقَبَةِ؛ وَجَدَهُ بِالْمِرْصَادِ، حَتَّىٰ قَالَ وُهَيْبُ بْنُ الوَرْدِ[١]؛ وَقَدْ سُئِلَ: أَيَجِدُ لَذَّةَ الطَّاعَةِ مَنْ يَعْصِي؟ فَقَالَ: وَلَا مَنْ هَمَّ.

١٥١ - فَرُبَّ شَخْصٍ أَطْلَقَ بَصَرَهُ، فَحُرِمَ اعْتِبَارَ بَصِيرَتِهِ، أَوْ لِسَانَهُ، فَحُرِمَ صَفَاءَ قَلْبِهِ، أَوْ آثَرَ شُبهةً فِي مَطْعَمِهِ، فَأَظْلَمَ سِرُّه، وَحُرِمَ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَحَلَاوَةَ المُنَاجَاةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ، وَهٰذَا أمرٌ يَعْرِفُهُ أَهْلُ مُحَاسَبَةِ النُّفوسِ.

١٥٢ - وَعَلَىٰ ضِدِّهِ يَجِدُ مَنْ يَتَّقِي اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ حُسْنِ الجَزَاءِ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ عَاجِلًا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: النَّظْرَةُ إِلَى المَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ الشَّيْطَانِ، مَنْ تَرَكَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي؛ آتَيْتُهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ**»[٢]. فَهٰذِهِ نَبْذَةٌ مِنْ هٰذَا الجِنْسِ تُنَبِّهُ عَلَىٰ مُغْفَلِهَا.

١٥٣ - فَأَمَّا المُقَابَلَةُ الصَّرِيحَةُ فِي الظَّاهِرِ؛ فَقَلَّ أَنْ تَحْتَبِسَ، وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**الصُّبْحَةُ تَمْنَعُ الرِّزْقَ**»[٣]، و«**إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»[٤].

وَقَدْ رَوَىٰ المُفَسِّرُونَ: أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ مِنَ الأَسْبَاطِ جَاءَ بِاثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا، وَجَاءَ يُوسُفُ بِأَحَدَ عَشَرَ بالهَمَّة، وَمِثْلُ هٰذَا إِذَا تَأَمَّلَهُ ذُو بَصِيرَةٍ؛ رَأَىٰ الجَزَاءَ وَفَهِمَ، كَمَا قَالَ الفُضَيْلُ: إِنِّي لَأَعْصِي اللهَ ﷻ فَأَعْرِفُ ذٰلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي وَجَارِيَتِي.

وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ[٥]: أَنَّه انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِهِ[٦] فِي مُضِيِّهِ إِلَى الجُمُعَةِ، فَتَعَوَّقَ لِإِصْلَاحِهِ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: إِنَّما انْقَطَعَ لِأَنِّي مَا اغْتَسَلْتُ غُسْلَ الجُمُعَةِ.

١٥٤ - وَمِنْ عَجَائِبِ الجَزَاءِ فِي الدُّنْيا أَنَّهُ لَمَّا امْتَدَّتْ أَيْدِي الظُّلْمِ مِنْ إِخْوَةِ

---

(١) وهيب بن الورد، أبو أمية، المكي، مولى بني مخزوم عابد زاهد توفي سنة (١٥٣هـ)، وقد وقع في الأصل (وهب)، والتصويب من (سير أعلام النبلاء) (٧/ ١٩٨). قوله: (هَمَّ) أي هم بالمعصية.

(٢) رواه الحاكم (٣/ ٣١٤) والطبراني عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (١/ ٧٣)، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٦٢). «فيه إسحاق بن أبي فروة، وهو ضعيف» و(الصُّبْحة): نوم أول النهار.

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٧ و٢٨٠ و٢٨٢) والحاكم (١/ ٤٩٣)، وابن حبان (٨٧٢) عن ثوبان رضي الله عنه.

(٥) وهو سعيد بن إسماعيل الواعظ كان مجاب الدعوة، توفي سنة (٢٩٨هـ). في حاشية الأصل: في الأحمدية أبي عثمان. قلت: وهو الصواب، وفي المصرية: عثمان. وسيرد على الصواب في مواضع تالية.

(٦) **شسع النعل**: سير من جلد، يدخل بين الأصبعين من جهة ويتصل بصدر النعل من جهة أخرى.

يُوسُفَ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ امْتَدَّتْ أَكُفُّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالطَّلَبِ يقولون: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]، وَلَمَّا صَبَرَ هُوَ يَوْمَ الْهَمَّةِ[١]؛ مَلَكَ المَرْأَةَ[٢] حَلالًا، وَلَمَّا بَغَتْ عَلَيْهِ بَدَعْوَاهَا ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥]؛ أَنْطَقَهَا الحَقُّ بِقَوْلِهَا: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ [يوسف: ٥١].

١٥٥ ـ ولو أنَّ شخصًا تَرَكَ مَعْصِيَةً لِأَجْلِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لَرَأَىٰ ثَمَرَةَ ذٰلِكَ، وَكَذٰلِكَ إِذَا فَعَلَ طَاعَةً، وَفِي الحَدِيثِ: «**إِذَا أَمْلَقْتُمْ؛ فَتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ**»[٣]؛ أي: عَامِلُوهُ لِزِيَادَةِ الأَرْبَاحِ العَاجِلَةِ.

١٥٦ ـ وَلَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ بِمَا يَمْنَعُ مِنْهُ الشَّرْعُ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ العَاجِلَةِ، فَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُهُ إِلَىٰ التَّنَغُّصِ العَاجِلِ، وَعُكِسَتْ عَلَيْهِ المَقَاصِدُ.

١٥٧ ـ حَكَىٰ بَعْضُ المَشَايِخِ أَنَّهُ اشْتَرَىٰ فِي زَمَنِ شَبَابِهِ جَارِيَةً. **قَالَ**: فَلَمَّا مَلَكْتُهَا؛ تَاقَتْ نَفْسِي[٤] إِلَيْهَا، فَمَا زِلْتُ أَسْأَلُ الفُقَهَاءَ لَعَلَّ مَخْلُوقًا يُرَخِّصُ لِيْ، فَكُلُّهُمْ قَالَ: لا يَجُوزُ النَّظَرُ إِلَيْهَا بِشَهْوَةٍ، وَلَا لَمْسُهَا، وَلَا جِمَاعُهَا إِلَّا بَعْدَ حَيْضِهَا. **قَالَ**: فَسَأَلْتُهَا؟ فَأَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا اشْتُرِيَتْ وَهِيَ حَائِضٌ. **فَقُلْتُ**: قَرُبَ الأَمْرُ. فَسَأَلْتُ الفُقَهَاءَ؟ **فَقَالُوا**: لا يُعْتَدُّ بِهٰذِهِ الحَيْضَةِ حَتَّىٰ تَحِيضَ فِي مِلْكِهِ. **قَالَ**: فَقُلْتُ لِنَفْسِي وَهِيَ شَدِيدَةُ التَّوَقَانِ لِقُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَتَمَكُّنِ القُدْرَةِ، وَقُرْبِ المُصَاقَبَةِ[٥]: مَا تَقُولِينَ؟ **فَقَالَتْ**: الإِيْمَانُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الجَمْرِ شِئْتَ أَوْ أَبَيْتَ. فَصَبَرْتُ إِلَىٰ أَنْ حَانَ ذٰلِكَ، فَأَثَابَنِي اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذٰلِكَ الصَّبْرِ بِنَيْلِ مَا هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهَا وَأَرْفَعُ.

٣٠ - فصل: قد يخفي الإنسان عمله فيظهره الله عليه

١٥٨ ـ **نَظَرْتُ** فِي الأَدِلَّةِ عَلَىٰ الحَقِّ ﷻ، فَوَجَدْتُهَا أَكْثَرَ مِنَ الرَّمْلِ، وَرَأَيْتُ مِنْ

---

(١) المذكورة في الآية (٢٤) من سورة يوسف. (٢) هي زليخة امرأة العزيز.

(٣) **أملقتم**: افتقرتم، ولم أجد الحديث بهذا لكن ورد بلفظ «استعينوا على الرزق بالصدقة» رواه الديلمي في الفردوس. وورد أيضًا بلفظ: «استنزلوا الرزق بالصدقة» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي وابن عدي عن جبير بن مطعم، وأبو الشيخ عن أبي هريرة (ضعيفان).

(٤) **تاقت نفسي إليها**: توقانًا وتوقًا وتؤوقًا: اشتاقت ونزعت إليها، وهي توّاقة.

(٥) **المصاقبة**: المجاورة.

أَعْجَبِهَا أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يُخْفِي مَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ ﷻ، فَيُظْهِرُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ، وَيُنْطِقُ الأَلْسِنَةَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يُشَاهِدْهُ النَّاسُ.

وَرُبَّمَا أَوْقَعَ صَاحِبَهُ فِي آفَةٍ يَفْضَحُهُ بِهَا بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَكُونُ جَوَابًا لِكُلِّ مَا أَخْفَىٰ مِنَ الذُّنُوبِ، وَذٰلِكَ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ هُنَالِكَ مَنْ يُجَازِي عَلَىٰ الزَّلَلِ، وَلَا يَنْفَعُ مِنْ قَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ حِجَابٌ ولا اسْتِتَارٌ، وَلا يُضَاعُ لَدَيْهِ عَمَلٌ.

١٥٩ ـ وَكَذٰلِكَ يُخْفِي الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ، فَتَظْهَرُ عَلَيْهِ، وَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَا وَبِأَكْثَرَ مِنْهَا، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَ لَهُ ذنبًا، ولَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا بِالْمَحَاسِنِ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ هُنَالِكَ رَبًّا لَا يُضِيْعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

١٦٠ ـ وَإِنَّ قُلُوبَ النَّاسِ لَتَعْرِفُ حَالَ الشَّخْصِ وَتُحِبُّه أَوْ تَأْبَاهُ، وَتَذُمُّهُ أَوْ تَمْدَحُهُ ـ [وَفْقَ مَا] (١) يَتَحَقَّقُ بَيْنَهُ (٢) وَبَيْنَ اللهِ تَعَالىٰ ـ فَإِنَّهُ يَكْفِيهِ كُلَّ هَمٍّ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ شَرٍّ، وَمَا أَصْلَحَ عَبْدٌ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَلْقِ، دُونَ الحَقِّ؛ إِلَّا انْعَكَسَ مَقْصُودُهُ، وَعَادَ حَامِدُهُ ذَامًّا.

٣١ - فصل: غلبة الجهل والهوى على أكثر الناس

١٦١ ـ **تَأَمَّلْتُ** الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا بِعَيْنِ فِكْرِي، فَرَأَيْتُ خَرَابَهَا أَكْثَرَ مِنْ عِمْرَانِهَا. ثُمَّ **نَظَرْتُ** فِي المَعْمُورِ مِنْهَا، فَوَجَدْتُ الكُفَّارَ مُسْتَوْلِينَ عَلَىٰ أَكْثَرِهِ، وَوَجَدْتُ أَهْلَ الإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ قَلِيلًا بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ الكُفَّارِ.

١٦٢ ـ ثُمَّ **تَأَمَّلْتُ** المُسْلِمِينَ، فَرَأَيْتُ الأَكْسَابَ قَدْ شَغَلَتْ جُمْهُورَهُمْ عَنِ الرَّازِقِ، وَأَعْرَضَتْ بِهِمْ عَنِ العِلْمِ الدَّالِّ عَلَيْهِ.

١٦٣ ـ **فَالسُّلْطَانُ** مَشْغُولٌ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَاللَّذَّاتِ العَارِضَةِ (٣) لَهُ، وَمِيَاهُ أَغْرَاضِهِ جَارِيَةٌ لا سِكْرَ (٤) لَهَا، وَلَا يَتَلَقَّاهُ أَحَدٌ بِمَوْعِظَةٍ، بَلْ بِالْمِدْحَةِ الَّتِي تُقَوِّي هَوَىٰ النَّفْسِ!!

---

(١) في الأصل: (وربما لم).
(٢) في الأصل: (ما بينه).
(٣) في الأصل: المعارضة.
(٤) **السكر**: آلة تتحكم بجريان الماء، فيُسد بها ويفتح، وهو حرف مازال مستعملًا في الشام.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَاوَمَ الْأَمْرَاضُ بِأَضْدَادِهَا؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْمُهَاجِرِ: قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ حِدْتُ عَنِ الْحَقِّ؛ فَخُذْ بِثِيَابِي، وَهُزَّنِي، وَقُلْ: مَالَكَ يَا عُمَرُ؟! وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إِلَيْنَا عُيُوبَنَا. فَأَحْوَجُ الخَلْقِ إِلَىٰ النَّصَائِحِ وَالمَوَاعِظِ السُّلْطَانُ.

١٦٤ ـ وَأَمَّا **جُنُودُهُ**؛ فَجُمْهُورُهُمْ فِي سُكْرِ الهَوَىٰ، وَزِينَةِ الدُّنْيَا، وَقَدِ انْضَافَ إِلَىٰ ذٰلِكَ الجَهْلُ، وَعَدَمُ العِلْمِ؛ فَلَا يُؤْلِمُهُمْ ذَنْبٌ، ولَا يَنْزَعِجُونَ مِنْ لُبْسِ حَرِيرٍ، أَوْ شُرْبِ خَمْرٍ، حَتَّىٰ رُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِيشِ يَعْمَلُ الجُنْدِيُّ؟! أَيَلْبَسُ القُطْنَ؟ ثُمَّ أَخْذُهم للأَشْيَاءِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا؛ فالظُّلْمُ مَعَهُمْ كالطَّبْعِ!

١٦٥ ـ **وَأَرْبَابُ البَوَادِي** قَدْ غَمَرَهُمُ الجَهْلُ. وَ[كَذٰلِكَ] **أَهْلُ القُرَىٰ**؛ [مَا أَكْثَرَ][1] تَقَلُّبَهُمْ فِي الْأَنْجَاسِ، وَتَهْوِينَهُمْ لِأَمْرِ الصَّلَوَاتِ!! وَرُبَّمَا صَلَّتِ المَرْأَةُ مِنْهُنَّ قَاعِدَةً!

١٦٦ ـ ثُمَّ **نَظَرْتُ فِي التُّجَّارِ**؛ فَرَأَيْتُهُمْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الحِرْصُ، حَتَّىٰ لا يَرَوْنَ سِوَىٰ وُجُوهِ الكَسْبِ، كَيْفَ كَانت، وَصَارَ الرِّبَا فِي مُعَامَلَاتِهِمْ فَاشِيًا، فَلَا يُبَالِي أَحَدُهُمْ مِنْ أَيْنَ تَحْصُلُ لَهُ الدُّنْيَا! وَهُمْ فِي بَابِ الزَّكَاةِ مُفَرِّطُونَ، ولا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ تَرْكِهَا؛ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ.

١٦٧ ـ ثُمَّ **نَظَرْتُ فِي أَرْبَابِ المَعَاشِ**، فَوَجَدْتُ الغِشَّ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَامًّا [وَكَذَلِكَ] وَالتَّطْفِيفُ والبَخْسُ، وَهُمْ مَعَ هٰذَا مَغْمُورُونَ بِالْجَهْلِ!

١٦٨ ـ وَرَأَيْتُ عَامَّةَ مَنْ لَهُ وَلَدٌ يَشْغَلُهُ بِبَعْضِ هٰذِهِ الأَشْغَالِ طَلَبًا لِلْكَسْبِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَمَا يَتَأَدَّبُ بِهِ.

١٦٩ ـ ثُمَّ **نَظَرْتُ فِي [أَحْوَالِ] النِّسَاءِ**، فَرَأَيْتُهُنَّ قَلِيلَاتِ الدِّينِ، عَظِيمَاتِ الجَهْلِ، مَا عِنْدَهُنَّ مِنَ الآخِرَةِ خَبَرٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ، **فَقُلْتُ**: وَاعَجَبًا! فَمَنْ بَقِيَ لِخِدْمَةِ اللهِ ﷻ وَمَعْرِفَتِهِ؟!

١٧٠ ـ **فَنَظَرْتُ**؛ فَإِذَا **العُلَمَاءُ، والمُتَعَلِّمُونَ، وَالْعُبَّادُ، والمُتَزَهِّدُونَ؛ فَتَأَمَّلْتُ العُبَّادَ والمُتَزَهِّدِين**، فَرَأَيْتُ جُمْهُورَهُمْ يَتَعَبَّدُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَأْنَسُ إِلَىٰ تَعْظِيمِهِ، وَتَقْبِيلِ يَدِهِ،

---

(١) في الأصل: وكذلك.

وَكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ، حَتّىٰ إِنّ أَحَدَهُمْ لَوِ اضْطُرَّ أَنْ يَشْتَرِيَ حَاجَةً مِنَ السُّوقِ لَمْ يَفْعَلْ؛ لِئَلَّا يَنْكَسِرَ جَاهُهُ! ثُمَّ تَتَرَقَّىٰ بِهِمْ رُتْبَةُ النَّامُوسِ إِلَىٰ أَلّا يَعُودُوا مَرِيضًا، وَلَا يَشْهَدُوا جَنَازَةً؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَظِيمَ القَدْرِ عِنْدَهُمْ.

وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلْ رُبَّمَا ضَنَّ[1] بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ [بِلِقَاءٍ]؛ فَقَدْ صَارَتِ النَّوَامِيسُ[2] كَالْأَوْثَانِ، يَعْبُدُونَهَا وَلَا يَعْلَمُونَ! وَفِيهِمْ مَنْ يُقْدِمُ عَلَىٰ الفَتْوىٰ بجهلٍ؛ لِئَلَّا يُخِلَّ بِنَامُوسِ التَّصَدُّرِ! ثُمَّ يَعِيبُونَ[3] العُلَمَاءَ لِحِرْصِهِمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ المَذْمُومَ مِنَ الدُّنْيَا مَا هُمْ فِيهِ لا تَنَاوُلُ المُبَاحَاتِ!

١٧١ - ثُمَّ **تَأَمَّلْتُ العُلَمَاءَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ**؛ فَرَأَيْتُ القَلِيلَ مِنَ **المُتَعَلِّمِينَ** عَلَيْهِ أَمَارَةُ النَّجَابَةِ؛ لِأَنَّ أَمَارَةَ النَّجَابَةِ طَلَبُ العِلْمِ لِلْعَمَلِ بِهِ، وَجُمْهُورُهُمْ يَطْلُبُ مِنْهُ مَا يُصَيِّرُه شَبَكَةً لِلْكَسْبِ: إِمَّا لِيَأْخُذَ قَضَاءَ مَكَانٍ، أَوْ لِيَصِيرَ قَاضِيَ بَلَدٍ، أَوْ قَدْرَ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ أَبناءِ جِنْسِهِ، ثُمَّ يَكْتَفِي.

١٧٢ - ثُمَّ **تَأَمَّلْتُ العُلَمَاءَ**؛ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَهُمْ يَتَلَاعَبُ بِهِ الهَوَىٰ، وَيَسْتَخْدِمُهُ؛ فَهُوَ يُؤْثِرُ مَا يَصُدُّهُ العِلْمُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَىٰ مَا يَنْهَاهُ، وَلَا يَكَادُ يَجِدُ ذَوْقَ مُعَامَلَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا هِمَّتُهُ أَنْ يَقُولَ [وَحَسْبُ].

١٧٣ - إِلَّا أَنَّ اللهَ لا يُخْلِي الأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لَهُ بِالحُجَّةِ، جَامِعٍ بَيْنَ العِلْمِ وَالْعَمَلِ، عَارِفٍ بِحُقُوقِ اللهِ تَعَالَىٰ، خَائِفٍ مِنْهُ؛ فَذٰلِكَ قُطْبُ الدُّنْيَا، وَمَتَىٰ مَاتَ؛ أَخْلَفَ اللهُ عِوَضَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَنْ يَصْلُحُ لِلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ، وَمِثْلُ هٰذَا لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْهُ؛ فَهُوَ بِمَقَامِ النَّبِيِّ فِي الأُمَّةِ.

وَهٰذَا الَّذِي أَصِفُهُ يَكُونُ قَائِمًا بِالأُصُولِ، حَافِظًا لِلْحُدُودِ، وَرُبَّمَا قَلَّ عِلْمُهُ، أَوْ قَلَّتْ مُعَامَلَتُهُ؛ فَأَمَّا الكَامِلُونَ فِي جَمِيعِ الأَدَوَاتِ؛ فَيَنْدُرُ وُجُودُهُمْ، فَيَكُونُ فِي الزَّمَانِ البَعِيدِ مِنْهُمْ وَاحِدٌ.

١٧٤ - وَلَقَدْ سَبَرْتُ[4] السَّلَفَ كُلَّهُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَخْرِجَ مِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ

---

(١) في الأصل: ظنَّ.

(٢) **النواميس**: العادات والأعراف.

(٣) في الأصل: يعيبوا.

(٤) **سبرت الشيء**: تأملته وفحصته لأعرف حقيقته.

العِلْم حَتَّىٰ صَارَ مِنَ المُجْتَهِدِينَ، وَبَيْنَ العَمَلِ حَتَّىٰ صَارَ قُدْوَةً لِلْعَابِدِينَ، فَلَمْ أَرَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ[1]: أَوَّلُهُم: الحَسَنُ البَصْرِيُّ، وثانِيهِم: سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَثَالِثُهُمْ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَقَدْ أَفْرَدْتُ لِأَخْبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كِتابًا، وَمَا أُنْكِرُ عَلَىٰ مَنْ رَبَّعَهُمْ بِسَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ[2].

١٧٥ ـ وَإِنْ كَانَ فِي السَّلَفِ سَادَاتٌ؛ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِ فَنٌّ، فَنَقَصَ مِنَ الآخَرِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ **العِلْمُ**، وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ **العَمَلُ**، وَكُلُّ هٰؤلاءِ كَانَ لَهُ الحَظُّ الوَافِرُ مِنَ العِلْمِ، وَالنَّصِيبُ الأَوْفَىٰ مِنَ المُعَامَلَةِ وَالْمَعْرِفَةِ.

١٧٦ ـ وَلَا يُيْأَسُ مِنْ وُجُودِ مَنْ يَحْذُو حَذْوَهُمْ، وَإِنْ كَانَ الفَضْلُ بِالسَّبْقِ لَهُمْ؛ فَقَدْ أَطْلَعَ اللهُ ﷻ الخَضِرَ عَلَىٰ مَا خَفِيَ عَلَىٰ **مُوسَىٰ** عليه السلام[3]؛ فَخَزَائِنُ اللهِ مَمْلُوءَةٌ، وَعَطَاؤُهُ لا يَقِفُ عَلَىٰ شَخْصٍ.

١٧٧ ـ وَلَقَدْ حُكِيَ لِي عَنِ ابْنِ عَقِيلٍ[4]: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: أَنَا عَمِلْتُ فِي قَارِبٍ ثُمَّ كُسِرَ وَهٰذَا غَلَطٌ؛ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ؟! فَكَمْ مِنْ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ كُشِفَ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ مَا عَادَ يَحْقِرُ نَفْسَهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ!! وَكَمْ مِنْ مُتَأَخِّرٍ سَبَقَ مُتَقَدِّمًا!! وَقَدْ قِيلَ:

إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالأَيَّامَ حَامِلَةٌ ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ مَا تَلِدُ

٣٢ - فصل: آفات الشهوات وفوائد الصبر عنها

١٧٨ ـ رَأَيْتُ مَيْلَ النَّفْسِ إِلَىٰ الشَّهَوَاتِ زَائِدًا فِي المِقْدَارِ، حَتَّىٰ إِنَّهَا إِذَا مَالَتْ؛

---

(١) هؤلاء الأربعة نماذج اجتمع فيها ما تفرّق في غيرها. فهي قدوة لكل الناس.

(٢) أبو محمد القرشي المخزومي (١٣ ـ ٩٤هـ)، عالم أهل المدينة، وأحد فقهائها السبعة، وسيد التابعين في عصره، وأحفظ الناس لأقضية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزوج ابنة أبي هريرة، والسنة التي توفي فيها تسمى سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها من الفقهاء.

(٣) قصة موسى والخضر عليهما السلام مذكورة في سورة الكهف الآيات [٦٠ ـ ٨٢] وأخرجها البخاري (٣٤٠١) (٧٤)، ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد وقع في الأصل: (خفي من موسى).

(٤) أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الظَّفَري (٤٣١ ـ ٥١٣هـ): الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، كان يتوقد ذكاءً، وكان بحر معارف، وكنز فضائل، له كتاب (الفنون) قال المؤلف: وهذا الكتاب مئتا مجلد، وقع لي منه نحو مئة وخمسين مجلدًا، وقال سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان (٨/ ١٥١): واختصر جدي عشر مجلدات فرقها في تصانيفه.

مَالَتْ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالذِّهْنِ؛ فَلا يَكَادُ [المَرْءُ] يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنَ النُّصْحِ[1]! فَصِحْتُ بِهَا يَوْمًا، وَقَدْ مَالَتْ بِكُلِّيَّتِهَا إِلَىٰ شَهْوَةٍ: وَيْحَكِ! قِفِي لَحْظَةً؛ أُكَلِّمْكِ كَلِمَاتٍ، ثُمّ افْعَلِي مَا بَدَا لَكِ! قَالَتْ: قُلْ؛ أَسْمَعْ. قُلْتُ: قَدْ تَقَرَّرَ قِلَّةُ مَيْلِكِ إِلَىٰ المُبَاحَاتِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَأَمَّا جُلُّ مَيْلِكِ؛ فَإِلَىٰ[2] المُحَرَّمَاتِ؛ وَأَنَا أَكْشِفُ لَكِ عَنِ الأَمْرَيْنِ؛ فَرُبَّمَا رَأَيْتُ الحُلْوَيْنِ مُرَّيْنِ:

أَمَّا **الْمُبَاحَاتُ** مِنَ الشَّهَوَاتِ؛ فَمُطْلَقَةٌ لَكِ، وَلٰكِنَّ طَرِيقَها صَعْبٌ: لِأَنَّ المَالَ قَدْ يَعْجِزُ عَنْهَا، والكَسْبَ قَدْ لَا يُحَصِّلُ مُعْظَمَهَا، وَالوَقْتَ الشَّرِيفَ يَذْهَبُ بِذٰلِكَ. ثُمَّ شُغْلُ القَلْبِ بِهَا وَقْتَ التَّحْصِيلِ، وَفِي حَالَةِ الحُصُولِ، وَيُحْذَرُ[3] الْفَوَاتُ، ثُمَّ يُنَغِّصُهَا مِنَ النَّقْصِ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مُمَيِّزٍ: إِنْ كَانَ **مَطْعَمًا**؛ فالشِّبَعُ يُحْدِثُ آفاتٍ، وَإِنْ كَانَ **شَخْصًا**؛ فَالمَلَلُ أَوِ الْفِرَاقُ أَوْ سُوءُ الخُلُقِ، ثُمَّ **أَلَذُّ النِّكَاحِ** أَكْثَرُهُ إِيْهَانًا[4] لِلْبَدَنِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُهُ.

وَأَمَّا **المُحَرَّمَاتُ**؛ فَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ، وَتَزِيدُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا آفَةُ العِرْضِ، وَمَظِنَّةُ[5] عِقَابِ الدُّنيا وَفَضِيحَتِها، وَ[هُنَاكَ] وَعِيْدُ الآخِرَةِ، ثُمَّ الجَزَعُ كُلَّما ذَكَرَها التَّائِبُ.

١٧٩ ـ وَفِي قُوَّةِ قَهْرِ الهَوَىٰ لَذَّةٌ تَزِيْدُ عَلَىٰ كُلِّ لَذَّةٍ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ كُلِّ مَغْلُوبٍ بِالْهَوَىٰ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِيلًا، لِأَنَّهُ قُهِرَ؛ بِخِلَافِ غَالِبِ الهَوَىٰ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَوِيَّ القَلْبِ عَزِيزًا، لِأَنَّهُ قَهَرَ؟!

١٨٠ ـ فَالْحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ رُؤْيَةِ المُشْتَهَىٰ بِعَيْنِ الحُسْنِ، كَمَا يَرَىٰ اللِّصُّ لَذَّةَ أَخْذِ المَالِ مِنَ الحِرْزِ[6]، وَلَا يَرَىٰ بِعَيْنِ فِكْرِهِ القَطْعَ[7]! وَلْيَفْتَحْ عَيْنَ البَصِيرَةِ؛ لِتَأَمُّلِ العَوَاقِبِ، وَاسْتِحَالَةِ اللَّذَّةِ نَغْصَةً، وَانْقِلَابِهَا عَنْ كَوْنِهَا لَذَّةً؛ إِمَّا لِمَلَلٍ، أَوْ لِغَيْرِهِ مِنَ الآفَاتِ، أَوْ لِانْقِطَاعِهَا بِامْتِنَاعِ الحَبِيبِ، فَتَكُونُ المَعْصِيَةُ الأُوْلَىٰ كَلُقْمَةٍ تَنَاوَلَهَا جَائِعٌ،

---

(١) في الأصل: البدن.
(٢) في الأصل: إلى.
(٣) في الأصل: وبحذر.
(٤) **إيهانًا**: ضعفًا.
(٥) في الأصل: خوف.
(٦) **الحرز**: الموضع الحصين.
(٧) **القطع**: قطع اليد.

فَمَا رَدَّتْ كَلَبَ الجُوعِ[1]، بَلْ شَهَّتِ الطَّعَامَ[2].

١٨١ ـ وَلْيَتَذَكَّرِ الإِنْسَانُ لَذَّةَ قَهْرِ الهَوَىٰ مَعَ تَأَمُّلِ فَوَائِدِ الصَّبْرِ عَنْهُ؛ فَمَنْ وُفِّقَ لِذٰلِكَ؛ كَانَتْ سَلَامَتُهُ قَرِيبَةً مِنْهُ.

٣٣ - فصل: القلب عارف والقواطع كثيرة

١٨٢ ـ **خَطَرَ لِي خَاطِرٌ**؛ والمَجْلِسُ قَدْ طَابَ، والقُلُوبُ قَدْ حَضَرَتْ، وَالْعُيُونُ جَارِيَةٌ، والرُّؤُوسُ مُطْرِقَةٌ، والنُّفُوسُ قَدْ نَدِمَتْ عَلَىٰ تَفْرِيطِهَا، والعَزَائِمُ قَدْ نَهَضَتْ لإِصْلَاحِ شُؤُونِهَا، وَأَلْسِنَةُ اللَّوْمِ تَعْمَلُ فِي الْبَاطِنِ عَلَىٰ تَضْيِيعِ الحَزْمِ، وَتَرْكِ الحَذَرِ، **فَقُلْتُ لِنَفْسِي**: مَا بَالُ هٰذِهِ اليَقْظَةِ لا تَدُومُ؟! فَإِنِّي أَرَىٰ النَّفْسَ وَالْيَقَظَةَ فِي الْمَجْلِسِ مُتَصَادِقَيْنِ مُتَصَافِيَيْنِ؛ فَإِذَا قُمْنَا عَنْ هٰذِهِ التُّرْبَةِ[3]؛ وَقَعَتِ الغُرْبَةُ.

فَتَأَمَّلْتُ ذٰلِكَ، فَرَأَيْتُ أَنَّ النَّفْسَ مَا تَزَالُ مُتَيَقِّظَةً، وَالْقَلْبُ مَا يَزَالُ عَارِفًا؛ غَيْرَ أَنَّ الْقَوَاطِعَ كَثِيرَةٌ، وَالْفِكْرُ الَّذِي يَنْبَغِي اسْتِعْمَالُهُ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ قَدْ كَلَّ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِي اجْتِلَابِ الدُّنْيَا، وَتَحْصِيلِ حَوَائِجِ النفوسِ، وَالْقَلْبُ مُنْغَمِسٌ فِي ذٰلِكَ، وَالْبَدَنُ أَسِيرٌ مُسْتَخْدَمٌ.

وَبَيْنَا الفِكْرُ يَجُولُ فِي اجْتِلَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ والكِسْوَةِ، وَيَنْظُرُ فِي صَدَدِ ذٰلِكَ، وَمَا يَدَّخِرُهُ لِغَدِهِ وَسَنَتِهِ؛ اهْتَمَّ بِخُرُوجِ الحَدَثِ، وَتَشَاغَلَ بالطَّهَارَةِ، ثُمَّ اهْتَمَّ بِخُرُوجِ الفَضَلاتِ المُؤْذِيَةِ[4]، وَمِنْهَا المَنِيُّ، فَاحْتَاجَ إِلَىٰ النِّكَاحِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَصِحُّ إِلَّا بِاكْتِسَابِ كَسْبِ الدُّنْيَا، فَتَفَكَّرَ فِي ذٰلِكَ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ.

ثُمَّ جَاءَ الوَلَدُ، فاهْتَمَّ بِهِ وَلَهُ، وَإِذَا الفِكْرُ عَامِلٌ فِي أُصُولِ الدُّنيا وَفُرُوعِهَا، فَإِذَا حَضَرَ الإِنْسَانُ المَجْلِسَ؛ فَإِنَّهُ لا يَحْضُرُ جَائِعًا وَلَا حَاقِنًا، بَلْ يَحْضُرُهُ جَامِعًا لِهِمَّتِهِ، نَاسِيًا مَا كَانَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ، فَيَحْلُو الوَعْظُ بِالْقَلْبِ، فَيُذَكِّرُهُ بِمَا أَلِفَ، وَيَجْذِبُهُ بِمَا عَرَفَ، فَيَنْهَضُ عُمّالُ القَلْبِ فِي زَوَارِقِ عِرْفَانِهِ، فَيُحْضِرُونَ النَّفْسَ إِلَىٰ بَابِ

---

(١) **كلب الجوع**: شدته.
(٢) **شهت الطعام**: زادت شهوتها إليه.
(٣) **التربة**: البقعة التي كان ينعقد فيها مجلس الوعظ.
(٤) إن احتبست في البدن.

المُطَالَبَةِ بِالتَّفْرِيطِ، وَيُؤَاخِذُونَ الحِسَّ بِمَا مَضَىٰ مِنَ الْعُيُوبِ، فَتَجْرِي عُيُونُ النَّدَمِ، وَتَنْعَقِدُ عَزَائِمُ الاسْتِدْرَاكِ.

وَلَوْ أَنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ خَلَتْ عَنِ المَعْهُودَاتِ الَّتِي وَصَفْتُهَا؛ لَتَشَاغَلَتْ بِخِدْمَةِ بَارِئِهَا، وَلَوْ وَقَعَتْ فِي سَوْرَةِ حُبِّهِ[1]؛ لاسْتَوْحَشَتْ عَنِ الكُلِّ شُغْلًا بِقُرْبِهِ، وَلِهٰذَا اعتمد الزُّهَّادُ الخَلَوَاتِ، وَتَشَاغَلُوا بِقَطْعِ المُعَوِّقَاتِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مُجَاهَدَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ نَالُوا مِنْ الخِدْمَةِ مُرَادَهُمْ؛ كَمَا أَنَّ الحَصَادَ علىٰ مِقْدَارِ البَذْرِ.

١٨٣ ـ غَيْرَ أَنِّي **تَلَمَّحْتُ** فِي هٰذِهِ الحَالَةِ دَقِيقَةً، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ لَوْ دَامَتْ لَهَا اليَقَظَةُ؛ لَوَقَعَتْ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ فَوْتِ مَا فَاتَهَا، وَهُوَ العُجْبُ بِحَالِهَا، وَالاحْتِقَارُ لِجِنْسِهَا[2]! وَرُبَّمَا تَرَقَّتْ بِقُوَّةِ عِلْمِهَا وَعِرْفَانِهَا إِلىٰ دَعْوَىٰ قَوْلِهَا: (لي، وعندي، وأستحق...) فَتَرَكَهَا فِي حَوْمَةِ[3] ذُنُوبِهَا تَتَخَبَّطُ؛ فَإِذَا وَقَفَتْ عَلَىٰ الشَّاطِئِ؛ قَامَتْ بِحَقِّ ذِلَّةِ الْعُبودِيَّةِ، [وَذٰلِكَ] أَوْلَىٰ لَهَا.

هٰذا حُكْمُ الغَالِبِ مِنَ الخَلْقِ، وَلِذٰلِكَ شُغِلُوا عَنْ هٰذا المَقَامِ، فَمَنْ بَذَرَ، فَصَلَحَ لَهُ؛ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ هَفْوَةٍ تُرَاقِبُهَا عَيْنُ الخَوْفِ مِنْ عِقَابِهَا رِفْقًا بِهَا، تَصِحُّ لَهُ عُبُودِيَّتُهُ، وَتَسْلَمُ لَهُ عِبَادَتُهُ، وَإِلَىٰ هٰذَا المَعْنَىٰ أَشَارَ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا؛ لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[4].

٣٤ - فصل: ما يفعله جهلة المتزهدين

١٨٤ ـ **تَفَكَّرْتُ**، فَرَأَيْتُ أَنَّ حِفْظَ المَالِ مِنَ المُتَعَيِّنِ، وَمَا يُسَمِّيهِ جَهَلَةُ المُتَزَهِّدِينَ تَوَكُّلًا ـ مِنْ إِخْرَاجِ مَا فِي اليَدِ ـ لَيْسَ بِالْمَشْرُوعِ! فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ**»[5]، أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ. وَقَالَ لِسَعْدٍ: «لَأَنْ

---

(١) **سَوْرَة الحب**: شدته.

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه: العجب» رواه البزار (الكشف ٣٦٣٣) بإسناد جيد كما قال المنذري في الترغيب (٤٣٠٧).

(٣) **حومة**: الساحة.

(٤) رواه مسلم (٢٧٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٤٦٧٦)، ومسلم (٢٧٦٩) عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ [لَكَ] مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ».

فَإِنِ اعْتَرَضَ جَاهِلٌ فَقَالَ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِكُلِّ مَالِهِ[1]. **فَالْجَوَابُ**: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبُ مَعَاشٍ وَتِجَارَةٍ؛ فَإِذَا أَخْرَجَ الكُلَّ؛ أَمْكَنَهُ أَنْ يَسْتَدِينَ عَلَيْهِ فَيَتَمعْيَشَ؛ فَمَنْ كَانَ عَلَىٰ هٰذِهِ الصِّفَةِ؛ لا أَذُمُّ إِخْرَاجَهُ لِمَالِهِ.

وَإِنَّمَا الذَّمُّ مُتَطَرِّقٌ إِلَىٰ مَنْ يُخْرِجُ مَالَهُ، وَلَيْسَ مِنْ أَرْبَابِ المَعَايِشِ، أَوْ يَكُونُ مِنْ أُولٰئِكَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَنْقَطِعُ عَنِ المَعَاشِ، فَيَبْقَىٰ كَلًّا[2] عَلَىٰ النَّاسِ؛ يَسْتَعْطِيهِمْ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَىٰ الفُتُوحِ[3]، وَقَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْخَلْقِ، وَطَمَعُهُ نَاشِبٌ فِيهِمْ، وَمَتَىٰ حُرِّكَ بَابُهُ؛ نَهِضَ قَلْبُهُ، وَقَالَ: رِزْقٌ قَدْ جَاءَ!!

وَهٰذَا أَمْرٌ قَبِيحٌ بِمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ المَعَاشِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ؛ كَانَ إِخْرَاجُ مَا يَمْلِكُ أَقْبَحَ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَرُبَّمَا ذَلَّ لِبَعْضِهِمْ، أَوْ تَزَيَّنَ لَهُ بِالزُّهْدِ، وَأَقَلُّ أَحْوَالِهِ أَنْ يُزَاحِمَ الفُقَرَاءَ وَالمَكَافِيفَ[4] والزَّمْنَىٰ[5] في الزَّكَاةِ.

١٨٥ ـ فَعَلَيْكَ بِالسِّرْبِ الأَوَّلِ[6]؛ فَانْظُرْ: هَلْ فِيهِمْ مَنْ فَعَلَ مَا يَفْعَلُهُ جَهَلَةُ المُتَزَهِّدِينَ؟! وَقَدْ أَشَرْتُ فِي أَوَّلِ هٰذَا إِلَىٰ أَنَّهُم كَسَبوا، وَخَلَّفوا الأَمْوَالَ، فَرِدْ إِلَىٰ الشِّرْبِ الأَوَّلِ[7] الَّذِي لَمْ يُطْرَقْ؛ فَإِنَّهُ الصَّافِي، وَاحْذَرْ مِنَ المَشَارِعِ[8] المَطْرُوقَةِ بِالآرَاءِ الفَاسِدَةِ، الخَارِجَةِ فِي الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ، مُدَّعِيَةً[9] بِلِسَانِ حَالِهَا أَنَّ الشَّرْعَ نَاقِصٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يَتِمُّ بِهِ!

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والحاكم (١/ ٤١٤) عن عمر ﷺ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وتمامه: فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

(٢) **الكل**: العالة.

(٣) **الفتوح**: الهبات الإلٰهية.

(٤) **المكافيف**: العميان.

(٥) **الزمنى**: المرضى الذين أقعدهم المرض ولا يُرجى برؤهم.

(٦) **السرب**: السلف الصالح. وقد جاء في الأصل هاهنا (الشرب) بالشين المعجمة، وقد تقدّم أكثر من مرة بالسين المهملة.

(٧) **الشرب الأول**: المنهل الأول وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

(٨) **المشارع**: الأقنية، وهي هنا بنيات الطريق والسبل المتفرقة عن الصراط المستقيم.

(٩) في الأصل: مذعنة

١٨٦ ـ وَاعْلَمْ ـ وَفَّقَكَ اللهُ تَعَالَىٰ ـ أَنَّ البَدَنَ كَالمَطِيَّةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَلْفِ المَطِيَّةِ، والاهْتِمَامِ بِهِ؛ فَإِذَا أَهْمَلْتَ ذٰلِكَ؛ كَانَ سَبَبًا لِوُقُوفِكَ عَنِ السَّيْرِ.

وَقَدْ رُئِيَ سَلْمَانُ ﷺ يَحْمِلُ طَعَامًا عَلَىٰ عَاتِقِهِ، **فَقِيلَ لَهُ**: أَتَفْعَلُ هٰذَا وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ الله ﷺ؟! **فَقَالَ**: إِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوتَهَا؛ اطْمَأَنَّتْ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِذَا حَصَّلْتَ قُوتَ شَهْرٍ؛ فَتَعَبَّدْ.

١٨٧ ـ وَقَدْ جَاءَ أَقْوَامٌ لَيْسَ عِنْدَهُمْ سِوَىٰ الدَّعَاوَىٰ، فَقَالُوا: هٰذَا شَكٌّ فِي الرَّازِقِ، وَالثِّقَةُ بِهِ أَوْلَىٰ!! فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمْ.

١٨٨ ـ وَرُبَّمَا وَرَدَ مِثْلُ هٰذَا عَنْ بَعْضِ صُدُورِ الزُّهَّادِ مِنَ السَّلَفِ[1]؛ فَلا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَهُولَنَّكَ خِلَافُهُمْ، فَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ المِرُّوذِيُّ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ يُرَغِّبُ فِي النِّكَاحِ، فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ ابنُ أَدْهَم.. فَمَا تَرَكَنِي أُتِمُّ حَتَّىٰ صَاحَ عليَّ وَقَالَ: **أذكُرُ لَكَ حَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ وَتَأْتِينِي بِبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ؟!**.

١٨٩ ـ وَاعْلَمْ ـ وَفَّقَكَ اللهُ ـ أَنَّهُ لَوْ رَفَضَ الأَسْبَابَ شَخْصٌ يَدَّعِي التَّزَهُّدَ، وَقَالَ: لا آكُلُ، وَلا أَشْرَبُ، وَلا أَقُومُ مِنَ الشَّمْسِ فِي الحَرِّ، وَلا أَسْتَدْفِئُ مِنَ البَرْدِ! كَانَ عَاصِيًا بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذٰلِكَ لَوْ قَالَ ـ وَلَهُ عَائِلَةٌ ـ: لا أَكْتَسِبُ، وَرِزْقُهُمْ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ! فَأَصَابَهُمْ أَذًى؛ كَانَ آثِمًا؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**».

١٩٠ ـ وَاعْلَمْ أَنَّ الاهْتِمَامَ بِالْكَسْبِ؛ يَجْمَعُ الهَمَّ، وَيُفْرِغُ القَلْبَ، وَيَقْطَعُ الطَّمَعَ فِي الْخَلْقِ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ لَهُ حَقٌّ يَتَقَاضَاهُ، وَقَدْ بَيَّنَ الشرعُ ذٰلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**».

١٩١ ـ وَمِثَالُ الطَّبْعِ مَعَ المُرِيدِ السَّالِكِ كَمَثَلِ كَلْبٍ لا يَعْرِفُ الطَّارِقَ؛ فَكُلُّ مَنْ رَآهُ يَمْشِي؛ نَبَحَ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَلْقَىٰ إِلَيْهِ كِسْرَةً؛ سَكَتَ عَنْهُ، فَالْمُرَادُ مِنَ الاهْتِمَامِ بِذٰلِكَ جَمْعُ الهَمِّ لا غَيْرَ، فَافْهَمْ هٰذِهِ الأُصُولَ؛ فَإِنَّ فَهْمَهَا مُهِمٌّ.

---

(١) الأكابر من العباد والزهاد كمالك بن دينار، وفرقد السبخي.

٣٥ - فصل: أفضل الأمور أوساطها

١٩٢ - **تَأَمَّلْتُ** فِي شَهَوَاتِ الدُّنيا، فَرَأَيْتُهَا مَصَايِدَ هَلَاكٍ، وَفُخُوخَ تَلَفٍ؛ فَمَنْ قَوِيَ عَقْلُهُ عَلَىٰ طَبْعِهِ وَحَكَمَ عَلَيْهِ؛ يَسْلَمْ، وَمَنْ غَلَبَ طَبْعُهُ؛ فَيَا سُرْعَةَ هَلَكَتِهِ!

١٩٣ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَبْنَاءِ الدُّنيا كَانَ يَتُوقُ إِلَىٰ التَّسَرِّي، ثُمَّ يَسْتَعْمِلُ الحَرَارَاتِ المُهَيِّجَةَ لِلْبَاهِ[1]؛ فَمَا لَبِثَ أَنِ انْحَلَّتْ حَرَارَتُهُ الغَرِيزِيَّةُ وَتَلِفَ.

١٩٤ - وَلَمْ أَرَ فِي شَهَوَاتِ النَّفْسِ أَسْرَعَ هَلَاكًا مِنْ هٰذِهِ الشَّهْوَةِ؛ فَإِنَّهُ كُلَّمَا مَالَ الإِنْسَانُ إِلَىٰ شَخْصٍ مُسْتَحْسَنٍ؛ أَوْجَبَ ذٰلِكَ حَرَكَةَ البَاهِ زَائِدًا عَنِ الْعَادَةِ، وَإِذَا رَأَىٰ أَحْسَنَ مِنْهُ؛ زَادَتِ الحَرَكَةُ، وَكَثُرَ خُرُوجُ المَنِيِّ زَائِدًا عَنِ الْأَوَّلِ، فَيَفْنَىٰ جَوْهَرُ الحَيَاةِ أَسْرَعَ شَيْءٍ.

وَبِالضِّدِّ مِنْ هٰذَا أَنْ تَكُونَ المَرْأَةُ مُسْتَقْبَحَةً، فَلَا يُوجِبُ نِكَاحُهَا خُرُوجَ الفَضْلَةِ المُؤْذِيَةِ كَمَا يَنْبَغِي، فَيَقَعُ التَّأَذِّي بِالاحْتِبَاسِ، وَقُوَّةِ التَّوْقِ إِلَىٰ مَنْكُوحٍ.

١٩٥ - وَكَذٰلِكَ المُفْرِطُ فِي الأَكْلِ؛ فَإِنَّهُ يَجْنِي عَلَىٰ نَفْسِهِ كَثِيرًا مِنَ الجِنَايَاتِ، وَالْمُقَصِّرُ فِي مِقْدَارِ القُوْتِ كَذٰلِكَ. **فَعَلِمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا**.

١٩٦ - وَالدُّنيا مَفازةٌ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ السَّائِقُ[2] فِيهَا العَقْلُ؛ فَمَنْ سَلَّمَ زِمَامَ رَاحِلَتِهِ إِلَىٰ طَبْعِهِ وَهَوَاهُ، فَيَا عَجَلَةَ تَلَفِهِ!

هٰذَا فيما يَتعلق بالبدن والدنيا؛ فقسْ عليه أمرَ الآخرة؛ فافهمْ.

٣٦ - فصل: لا تحرموا طيبات ما أحل لكم

١٩٧ - بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ زُهَّادِ زَمَانِنَا أَنَّهُ قُدِّمَ إِلَيْهِ طَعَامٌ، **فَقَالَ**: لَا آكُلُ! **فَقِيلَ** لَهُ: لِمَ؟! **قَالَ**: لِأَنَّ نَفْسِي تَشْتَهِيهِ، وَأَنَا مُنْذُ سِنِينَ مَا بَلَّغْتُ نَفْسِي مَا تَشْتَهِي!

١٩٨ - **فَقُلْتُ**: لَقَدْ خَفِيَتْ طَرِيقُ الصَّوَابِ عَنْ هٰذَا مِنْ وَجْهَيْنِ، وَسَبَبُ خَفَائِهَا عَدَمُ العِلْمِ:

---

(١) الأدوية المقوية للجماع.

(٢) في الأصل: السابق. وهو تصحيف.

أَمَّا **الوَجْهُ الأَوَّلُ**: فَإِنَّ **النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ هٰذَا وَلَا أَصْحَابُهُ. وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ**[1]، **وَيُحِبُّ الحَلْوَىٰ وَالْعَسَلَ**.

وَدَخَلَ فَرْقَدٌ السَّبْخِيُّ عَلَىٰ الحَسَنِ وَهُوَ يَأْكُلُ الفَالُوذَجَ، **فَقَالَ**: يَا فَرْقَدُ! مَا تَقُولُ فِي هٰذَا؟ **فَقَالَ**: لَا آكُلُهُ، وَلَا أُحِبُّ مَنْ أَكَلَهُ، **فَقَالَ الحَسَنُ**: لُعَابُ النَّحْلِ، بِلُبَابِ البُرِّ، مَعَ سَمْنِ البَقَرِ؛ هَلْ يَعِيبُهُ مُسْلِمٌ؟!

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ الحَسَنِ، **فَقَالَ**: إِنَّ لِي جَارًا لَا يَأْكُلُ الفَالُوذَجَ، **فَقَالَ**: وَلِمَ؟! **قَالَ**: يَقُولُ: لَا أُؤَدِّي شُكْرَهُ. **فَقَالَ**: إِنَّ جَارَكَ جَاهِلٌ، وَهَلْ يُؤَدِّي شُكْرَ المَاءِ البَارِدِ؟!

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَحْمِلُ فِي سَفَرِهِ الفَالُوذَجَ وَالْحَمَلَ المَشْوِيَّ، **وَيَقُولُ**: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا؛ عَمِلَتْ.

وَمَا حَدَثَ فِي الزُّهَّادِ بَعْدَهُمْ مِنْ هٰذَا الفَنِّ؛ **فَأُمُورٌ مَسْرُوقَةٌ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ**، وَأَنَا خَائِفٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟**﴾ [المائدة: ٨٧] وَلَا يُحْفَظُ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ الأَوَّلِ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْ هٰذَا الفَنِّ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ لِعَارِضٍ.

وَأَمَّا سَبَبُ مَا يُرْوَىٰ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ اشْتَهَىٰ شَيْئًا فَآثَرَ بِهِ فَقِيرًا، وَأَعْتَقَ جَارِيَتَهُ رُمَيْثَةَ، **وَقَالَ**: إِنَّهَا أَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ؛ فَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ حَسَنٌ؛ **لِأَنَّهُ إِيثَارٌ بِمَا هُوَ أَجْوَدُ عِنْدَ النَّفْسِ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَكْثَرُ لَهَا مِنْ سِوَاهُ؛ فَإِذَا وَقَعَ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ؛ كُسِرَتْ بِذٰلِكَ الفِعْلِ سَوْرَةُ هَوَاهَا أَنْ تَطْغَىٰ بِنَيْلِ كُلِّ مَا تُرِيدُ**.

فَأَمَّا مَنْ دَامَ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ؛ فَإِنَّهُ يُعْمِي قَلْبَهَا، وَيُبَلِّدُ خَوَاطِرَهَا، وَيُشَتِّتُ عَزَائِمَهَا؛ فَيُؤْذِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَنْفَعُهَا، وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: إِنَّ القَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ؛ عَمِيَ. وَتَحْتَ مَقَالَتِهِ سِرٌّ لَطِيفٌ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَضَعَ طَبِيعَةَ الآدَمِيِّ عَلَىٰ مَعْنًى عَجِيبٍ، وَهُوَ أَنَّهَا تَخْتَارُ الشَّيْءَ مِنَ الشَّهَوَاتِ مِمَّا يُصْلِحُهَا، فَتَعْلَمُ بِاخْتِيَارِهَا لَهُ صَلَاحَهُ، وَصَلَاحَهَا بِهِ. وَقَدْ قَالَ حُكَمَاءُ الطِبِّ: يَنْبَغِي أَنْ يُفْسَحَ لِلنَّفْسِ فِيمَا تَشْتَهِي

---

(١) تقدم تخريجه.

مِنَ الْمَطَاعِمِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ نَوْعُ ضَرَرٍ؛ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَخْتَارُ مَا يُلَائِمُهَا، فَإِذَا قَمَعَهَا الزَّاهِدُ فِيْ مِثْلِ هٰذَا؛ عَادَ عَلَىٰ بَدَنِهِ بِالضَّرَرِ، وَلَوْلَا جَوَاذِبُ البَاطِنِ مِنَ الطَّبِيعَةِ؛ مَا بَقِيَ البَدَنُ؛ فَإِنَّ الشَّهْوَةَ لِلطَّعَامِ تَثُورُ[1]، فَإِذَا وَقَعَتِ الغُنْيَةُ بِمَا يَتَنَاوَلُ؛ كَفَّتِ الشَّهْوَةُ.

فَالشَّهْوَةُ مُرِيْدٌ وَرَائِدٌ، وَنِعْمَ الباعِثُ هِيَ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ البَدَنِ؛ غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا أَفْرَطَتْ؛ وَقَعَ الأَذَىٰ، وَمَتَىٰ مُنِعَتْ مَا تُرِيدُ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ مَعَ الأَمْنِ مِنْ فَسَادِ العَاقِبَةِ؛ عَادَ ذٰلِكَ بِفَسَادِ أَحْوَالِ النَّفْسِ، وَوَهَنِ الجِسْمِ، وَاخْتِلَافِ السَّقَمِ، الَّذِي تَتَدَاعَىٰ بِهِ الجُمْلَةُ؛ مِثْلَ أَنْ يَمْنَعَهَا المَاءَ عِنْدَ اشْتِدَادِ العَطَشِ، وَالغِذَاءَ عِنْدَ الجُوعِ، وَالجِمَاعَ عِنْدَ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَالنَّوْمَ عِنْدَ غَلَبَتِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ المُغْتَمَّ إِذَا لَمْ يَتَرَوَّحْ بِالشَّكْوَىٰ؛ قَتَلَهُ الكَمَدُ.

فَهٰذَا أَصْلٌ؛ إِذَا فَهِمَهُ هٰذَا الزَّاهِدُ؛ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ خَالَفَ طَرِيْقَ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مِنْ حَيْثُ النَّقْلُ، وَخَالَفَ المَوْضُوعَ مِنْ حَيْثُ الحكمةُ.

وَلَا يَلْزَمُ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ القَائِلِ: فَمِنْ أَيْنَ يَصْفُو المَطْعَمُ؟ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَصْفُ؛ كَانَ التَّرْكُ وَرَعًا، وَإِنَّمَا الكَلَامُ فِي المَطْعَمِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَا يُؤْذِي فِي بَابِ الوَرَعِ، وَكَانَ مَا شَرَحْتُهُ جَوَابًا لِلْقَائِلِ: مَا أُبَلِّغُ نَفْسِي شَهْوَةً عَلَىٰ الإِطْلَاقِ.

وَالوَجْهُ الثَّانِي: أَنِّي أَخَافُ عَلَىٰ الزَّاهِدِ أَنْ تَكُونَ شَهْوَتُهُ انْقَلَبَتْ إِلَىٰ التَّرْكِ، فَصَارَ يَشْتَهِي أَلَّا يَتَنَاوَلَ، وَلِلنَّفْسِ فِي هٰذَا مَكْرٌ خَفِيٌّ، وَرِيَاءٌ دَقِيقٌ، فَإِنْ سَلِمَتْ مِنَ الرِّيَاءِ لِلْخَلْقِ؛ كَانَتِ الآفَةُ مِنْ جِهَةِ تَعَلُّقِهَا بِمِثْلِ هٰذَا الفِعْلِ، وَإِدْلَالِهَا فِي البَاطِنِ بِهِ؛ فَهٰذِهِ مُخَاطَرَةٌ وَغَلَطٌ.

وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُ الجُهَّالِ: هٰذَا صَدٌّ عَنِ الخَيْرِ وَعَنِ الزُّهْدِ! وَلَيْسَ كَذٰلِكَ؛ فَإِنَّ الحَدِيثَ قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ ردٌّ**»[2].

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِعِبَادَةِ **جُرَيْجٍ**[3]، وَلَا بِتَقْوَىٰ **ذِي الخُوَيْصِرَةِ**[4].

---

(١) في الأصل: تبور. وهو تصحيف.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) قصة جريج رواها البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قصة ذي الخويصرة رواها البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

١٩٩ ـ وَلَقَدْ دَخَلَ المُتَزَهِّدُون فِي طُرُقٍ لَمْ يَسْلُكْهَا الرَّسُولُ ﷺ وَلَا أَصْحَابُهُ؛ مِنْ إِظْهَارِ التَخَشُّعِ الزَّائِدِ فِي الحَدِّ، والتَّنَوّقِ[1] فِي تَخْشِينِ المَلْبَسِ، وَأَشْيَاءَ صَارَ العَوامُّ يَسْتَحْسِنُونَهَا، وَصَارَتْ لِأَقْوَامٍ كَالمَعَاشِ؛ يَجْتَنُونَ مِنْ أَرْبَاحِهَا تَقْبِيلَ اليَدِ، وَتَوْفِيرَ التَّوْقِيرِ، وَحِرَاسَةَ النَّامُوسِ، وَأَكْثَرُهُمْ فِي خَلْوَتِهِ عَلَىٰ غَيْرِ حَالَتِهِ فِي جَلْوَتِهِ.

٢٠٠ ـ وَقَدْ كَانَ **ابْنُ سِيرِينَ** يَضْحَكُ بَيْنَ النَّاسِ قَهْقَهَةً، وَإِذَا خَلَا بِاللَّيْلِ؛ فَكَأَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ القَرْيَةِ. فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ عِلْمًا نَافِعًا؛ فَهُوَ الْأَصْلُ؛ فَمَتَىٰ حَصَلَ؛ أَوْجَبَ مَعْرِفَةَ المَعْبُودِ ﷻ، وَحَرَّكَ إِلَىٰ خِدْمَتِهِ بِمُقْتَضَىٰ مَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ، وَسَلَكَ بِصَاحِبِهِ طَرِيقَ الإِخْلَاصِ.

٢٠١ ـ وَأَصْلُ الأُصُولِ العِلْمُ، وَأَنْفَعُ العُلُومِ النَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٣٧ - فصل: جهاد النفس أعظم الجهاد

٢٠٢ ـ **تَأَمَّلْتُ** جِهَادَ النَّفْسِ، فَرَأَيْتُهُ أَعْظَمَ الجِهَادِ، وَرَأَيْتُ خَلْقًا مِنَ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ لَا يَفْهَمُوْنَ مَعْنَاهُ؛ لأَنَّ فِيْهِمْ مَنْ مَنَعَها حُظُوْظَهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَذٰلِكَ غَلَطٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُما: **أَنَّهُ رُبَّ مَانِعٍ لَهَا شَهْوَةً أَعْطَاهَا بِالمَنْعِ أَوْفَىٰ مِنْهَا**، مِثْلُ أَنْ يَمْنَعَهَا مُبَاحًا، فَيَشْتَهِرَ بِمَنْعِهِ إِيَّاهَا ذٰلِكَ، فَتَرْضَىٰ النَّفْسُ بِالمَنْعِ، لأَنَّهَا قَدِ اسْتَبْدَلَتْ بِهِ المَدْحَ.

وَأَخْفَىٰ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَرَىٰ ـ بِمَنْعِهِ إِيّاهَا مَا مَنَعَ ـ أَنَّهُ قَدْ فَضَلَ سِوَاهُ مِمَّنْ لم يَمْنَعْها ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ دَقَائِق[2] تَحْتَاجُ إِلَىٰ مِنْقَاشٍ[3] فَهْمٍ يُخَلِّصُهَا.

والوَجْهُ الثّاني: **أنّنا قَدْ كُلِّفْنا حِفْظَها**، وَمِنْ أَسْبَابِ حِفْظِهَا مَيْلُهَا إِلَىٰ الأَشْيَاءِ

---

(١) **التنوق**: التأنق والمبالغة في الصنعة.

(٢) في الأصل: دفائن. وهو تصحيف.

(٣) **المنقاش**: الملقاط الذي تستخرج به الأشياء الدقيقة كالشوكة والشعرة ونحو ذلك. ومن المجاز: استخرجت هذا بالمنقاش: أي تعبت في استخراجه ومعرفته.

الّتِي تُقِيْمُهَا؛ فَلَا بُدَّ مِنْ إعْطَائِهَا مَا يُقِيْمُهَا، وَأَكْثَرُ ذٰلِكَ أَوْ كُلُّهُ مِمَا تَشْتَهِيْهِ، وَنَحْنُ كَالْوُكَلَاءِ فِيْ حِفْظِهَا؛ لأَنَّهَا لَيْسَتْ لَنَا، بَلْ هِيَ وَدِيْعَةٌ عِنْدَنَا؛ فَمَنْعُهَا حُقُوْقَهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ خَطَرٌ.

ثُمّ رُبَّ شَدٍّ أَوْجَبَ اسْتِرْخَاءً، ورُبَّ مُضَيِّقٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَرَّتْ مِنْهُ، فصَعُبَ عَلَيْهِ تَلافِيْهَا، وَإِنَّمَا الجِهَادُ لَهَا كَجِهَادِ المَرِيْضِ العَاقِلِ؛ يَحْمِلُهَا عَلَىٰ مَكْرُوْهِهَا فِي تَنَاوُلِ مَا تَرْجُوْ بِهِ العَافِيَةَ، وَيُذَوِّبُ فِي المَرَارَةِ قَلِيْلًا مِنَ الحَلَاوةِ، وَيَتَنَاوَلُ مِن الأَغْذِيَةِ مِقْدَارَ مَا يَصِفُهُ الطَّبِيْبُ، وَلَا تَحْمِلُهُ شَهْوَتُهُ عَلَىٰ مُوَافَقَةِ غَرَضِهَا مِنْ مَطْعَمٍ رُبَّمَا جَرَّ جُوْعًا، وَمِنْ لُقمةٍ رُبَّمَا حَرَمَتْ لُقماتٍ.

٢٠٣ ـ فَكَذٰلِكَ المُؤْمِنُ العَاقِلُ؛ لا يَتْرُكُ لِجَامَهَا، وَلا يُهْمِلُ مِقْوَدَها، بَلْ يُرْخِيْ لَهَا فِي وَقْتٍ، والطِّوَلُ[1] بِيَدِهِ؛ فَمَا دَامَتْ عَلَىٰ الجَادَّةِ؛ لَمْ يُضَايِقْهَا في التَّضْيِيْقِ عَلَيْهَا، فَإِذَا رَآهَا قَدْ مَالَتْ؛ رَدَّهَا باللُّطْفِ، فَإِنْ وَنَتْ[2] وَأَبَتْ؛ فَبِالعُنْفِ[3]، وَيَحْسِبُهَا[4] فِي مَقَامِ المُدَارَاةِ كَالزَّوْجَةِ، الّتِي مَبْنَى عَقْلِهَا عَلَىٰ الضَّعْفِ والقِلَّةِ؛ فَهِيَ تُدَارَىٰ عِنْدَ نُشُوْزِهَا[5] بِالوَعْظِ، فَإِنْ لَمْ تَصْلُحْ؛ فَبِالْهَجْرِ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَقِمْ؛ فَبِالضَّرْبِ[6]، **وَلَيْسَ فِيْ سِيَاطِ التَّأْدِيْبِ أَجْوَدُ مِنْ سَوْطِ عَزْمٍ**[7].

٢٠٤ ـ هذِهِ مُجَاهَدَةٌ مِنْ حَيْثُ العَمَلُ، فَأَمَّا مِنْ حَيْثُ وَعْظُهَا وَتَأْنِيْبُهَا؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ رَآهَا تَسْكُنُ لِلْخَلْقِ، وَتَتَعَرَّضُ بِالدَّنَاءَةِ مِنَ الأَخْلاقِ أَنْ يُعَرِّفَهَا تَعْظِيْمَ خَالِقِها لَهَا، **فَيَقُوْلُ**: أَلَسْتِ الّتِي قَالَ فِيْكِ: خَلَقْتُكِ بِيَدِي، وَأَسْجَدْتُ لَكِ مَلائِكَتِي، وَارْتَضَاكِ

---

(١) **الطول**: كعنب: الرسن أو الزمام الذي تربط به قائمة الدابة في المرعى، ويربط طرفه الثاني بوتد ونحوه.

(٢) **ونت**: قصرت وضعفت.

(٣) في الأصل: وإلا فبالعنف.

(٤) **ويحسبها**: أي النفس. وفي الأصل: يحبسها. وهو تصحيف.

(٥) **نشوزها**: عصيانها.

(٦) ترك الضرب من مكارم الأخلاق، ومن شمائل النبي ﷺ، فإن كان ولا بد فيجب أن يتيقن أن الضرب رادع، وأن يتجنب الوجه والأعضاء الحساسة، وأن لا يكون مؤذيًا، وأن لا يترك أثرًا، وإلا لم يجز.

(٧) **سوط العزم**: أن يهدد بالضرب ولا يضرب، كما قال رسول الله ﷺ: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت، فإنه أدب لهم».

لِلخِلَافَةِ في أَرْضِهِ، وَرَاسَلَكِ، واقْتَرَضَ مِنْكِ وَاشْتَرَىٰ؟! فَإِنْ رَآها تَتَكَبَّرُ؛ **قَالَ لَهَا**: هَلْ أَنْتِ إِلَّا قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ[1]، تَقْتُلُكِ شَرْقَةٌ، وتُؤلِمُكِ بَقَّةٌ؟! وَإِنْ رَأَىٰ تَقْصِيْرَهَا؛ عَرَّفَها حَقَّ المَوَالِي عَلَىٰ العَبِيْدِ. وَإِنْ وَنَتْ[2] في العَمَلِ؛ حَدَّثَها بِجَزِيْلِ الأَجْرِ. وَإِنْ مَالَتْ إِلَىٰ الهَوَىٰ؛ خَوَّفَها عَظِيْمَ الوِزْرِ، ثُمَّ يُحَذِّرُهَا عَاجِلَ العُقُوْبَةِ الحِسِّيَّةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وَالمَعْنَوِيَّةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فهٰذا جِهَادٌ بِالقَوْلِ، وَذَاكَ جِهَادٌ بِالفِعْلِ.

٣٨ - فصل: امتناع إجابة الدعاء

٢٠٥ ـ رَأَيْتُ مِنَ البَلَاءِ أَنَّ المُؤْمِنَ يَدْعُوْ فَلا يُجَابُ، فَيُكَرِّرُ الدُّعَاءَ، وَتَطُوْلُ المُدَّةُ، وَلَا يَرَىٰ أَثَرًا لِلإِجَابَةِ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هٰذَا مِنَ البَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَىٰ الصَّبْرِ، وَمَا يَعْرِضُ للنَّفْسِ مِنَ الوَسْوَاسِ فِيْ تَأْخِيْرِ الجَوَابِ مَرَضٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ طِبٍّ.

٢٠٦ ـ وَلَقَدْ عَرَضَ لِيْ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا الجِنْسِ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَتْ بِيَ نَازِلَةٌ، فَدَعَوْتُ، وَبَالَغْتُ، فَلَمْ أَرَ الإِجَابَةَ، فَأَخَذَ إِبْلِيْسُ يَجُولُ فِيْ حَلَبَاتِ كَيْدِهِ. فَتَارَةً يَقُوْلُ: الكَرَمُ وَاسِعٌ، والبُخْلُ مَعْدُوْمٌ؛ فَمَا فَائِدَةُ تَأْخِيْرِ الجَوَابِ؟! **فَقُلْتُ لَهُ**: اخْسَأْ يَا لَعِيْنُ! فَمَا أَحْتَاجُ إِلَىٰ تَقَاضٍ، وَلا أَرْضَاكَ وَكِيْلًا.

ثُمّ عُدْتُ إِلَىٰ نَفْسِي فَقُلْتُ: إِيَّاكِ وَمُسَاكَنَةَ وَسْوَسَتِهِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْ تَأْخِيْرِ الإِجَابَةِ إِلَّا أَنْ يَبْلُوَكِ المُقَدِّرُ فِي مُحَارَبَةِ العَدُوِّ؛ لَكَفَىٰ فِي الحِكْمَةِ.

٢٠٧ ـ **قَالَتْ**: فَسَلِّنِي عَنْ تَأْخِيْرِ الإِجَابَةِ فِيْ مِثْلِ هٰذِهِ النَّازِلَةِ! **فَقُلْتُ**: **قَدْ ثَبَتَ بِالبُرْهَانِ أَنَّ اللهَ ﷻ مَالِكٌ**، وَلِلْمَالِكِ التَّصَرُّفُ بِالْمَنْعِ وَالعَطَاءِ؛ فَلَا وَجْهَ لِلاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ[3].

وَالثَّانِي: **أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَتُهُ بِالأَدِلَّةِ القَاطِعَةِ**؛ فَرُبَّمَا رَأَيْتِ الشَّيْءَ مَصْلَحَةً،

---

(١) **الماء المهين**: المني.
(٢) **ونت**: ضعفت وقصرت.
(٣) هذا أولًا.

وَالحِكْمَةُ لا تَقْتَضِيْهِ، وَقَدْ يَخْفَىٰ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِيْمَا يَفْعَلُهُ الطَّبِيْبُ مِنْ أَشْيَاءَ تُؤْذِي فِي الظَّاهِرِ، يَقْصِدُ بِهَا المَصْلَحَةَ؛ فَلَعَلَّ هٰذا مِنْ ذَاكَ.

وَالثَّالِثُ: **أَنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ التَّأْخِيرُ مَصْلَحَةً، وَالاسْتِعْجَالُ مَضَرَّةً**، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا يَزَالُ العَبْدُ فِيْ خَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ؛ يَقُوْلُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِيْ!»**[1].

وَالرَّابِعُ: **أَنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ امْتِنَاعُ الإِجَابَةِ لآفَةٍ فِيْكَ**؛ فَرُبَّمَا يَكُوْنُ فِيْ مَأْكُوْلِكَ شُبْهَةٌ، أَوْ قَلْبُكَ وَقْتَ الدُّعَاءِ فِيْ غَفْلَةٍ، أَوْ تُزَادُ عَقُوْبَتُكَ فِيْ مَنْعِ حَاجَتِكَ لِذَنْبٍ مَا صَدَقْتَ فِيْ التَّوْبَةِ مِنْهُ، فَابْحَثِي عَنْ بَعْضِ هٰذِهِ الأَسْبَابِ؛ لَعَلَّكِ تَقَعِي بِالمَقْصُوْدِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي يَزِيْد ﷺ: أَنَّهُ نَزَلَ بَعْضُ الأَعَاجِمِ فِي دَارِهِ، فَجَاءَ، فَرَآهُ، فَوَقَفَ بِبَابِ الدَّارِ، وَأَمَرَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ، فَقَلَعَ طِيْنًا جَدِيْدًا قَدْ طَيَّنَهُ، فَقَامَ الأَعْجَمِيُّ وَخَرَجَ، فَسُئِلَ أَبُو يَزِيْدَ عَنْ ذٰلِكَ؟ **فَقَالَ**: هٰذا الطِّيْنُ مِنْ وَجْهٍ فِيْهِ شُبْهَةٌ، فَلَمَّا زَالَتِ الشُّبْهَةُ؛ زَالَ صَاحِبُهَا.

وَعَنْ إِبْرَاهِيْمَ الخَوَّاصِ[2] رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: أَنَّهُ خَرَجَ لإِنْكَارِ مُنْكَرٍ، فَنَبَحَهُ كَلْبٌ لَهُ، فَمَنَعَهُ أَنْ يَمْضِيَ، فَعَادَ، وَدَخَلَ المَسْجِدَ، وَصَلَّىٰ، ثُمَّ خَرَجَ، فَبصْبَصَ الكَلْبُ[3] لَهُ، فَمَضَىٰ، وَأَنْكَرَ، فَزَالَ المُنْكَرُ، فَسُئِلَ عَنْ تِلْكَ الحَالِ؟ **فَقَالَ**: كَانَ عِنْدِيْ مُنْكَرٌ، فَمَنَعَنِي الكَلْبُ، فَلَمَّا عُدْتُ؛ ثَبَتُّ مِنْ ذٰلِكَ، فَكَانَ مَا رَأَيْتُمْ.

والخَامِسُ: **أَنَّهُ يَنْبَغِيْ أَنْ يَقَعَ البَحْثُ عَنْ مَقْصُوْدِكِ بِهٰذَا المَطْلُوْبِ**؛ فَرُبَّمَا كَانَ فِيْ حُصُوْلِهِ زِيَادَةُ إِثْمٍ، أَوْ تَأْخِيْرٌ عَنْ مَرْتَبَةِ خَيْرٍ؛ فَكَانَ المَنْعُ أَصْلَحَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ الغَزْوَ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: إِنَّكَ إِنْ غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وَإِنْ أُسِرْتَ؛ تَنَصَّرْتَ.

والسادس: **أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ فَقْدُ مَا فَقَدْتِهِ سَبَبًا لِلْوُقُوفِ عَلَىٰ البَابِ وَاللَّجَأ، وَحُصُوْلُهُ سَبَبًا للاشْتِغَالِ عَنِ المَسْؤُوْلِ**. وَهٰذَا الظَّاهِرُ؛ بِدَلِيْلِ أَنَّهُ لَوْلَا هٰذِهِ النَّازِلَةُ؛ مَا

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩٣ و٢١٠)، وأبو يعلى (٢٨٦٥)، وأبو نعيم (٦/ ٣٠٩) عن أنس ﷺ.

(٢) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق، من أقران الجنيد، توفي في جامع الري سنة (٢٩١هـ).

(٣) **بصبص الكلب**: هز ذيله تملقًا.

رَأَيْنَاكِ عَلَىٰ بَابِ اللَّجَأ، فَالحَقُّ ﷻ عَلِمَ مِنَ الخَلْقِ اشْتِغَالَهُمْ بِالبِرِّ عَنْهُ، فَلَذَعَهُمْ فِي خِلَالِ النِّعَمِ بِعَوَارِضَ تَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ بَابِهِ؛ يَسْتَغِيثُونَ بِهِ؛ فَهٰذَا مِنَ النِّعَمِ فِيْ طَيِّ البَلَاءِ، وَإِنَّمَا البَلاءُ المَحْضُ مَا يَشْغَلُكِ عَنْهُ، فَأَمَّا مَا يُقِيْمُكِ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَفِيْهِ جَمَالُكِ.

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ **يَحْيَىٰ البَكَّاءِ**[1] أَنَّهُ رَأَىٰ رَبَّه ﷻ فِي المَنَامِ، **فَقَالَ**: يَا رَبِّ! كَمْ أَدْعُوْكَ وَلَا تُجِيْبُنِي؟ **فَقَالَ**: يَا يَحْيَىٰ! إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَكَ.

وَإِذَا تَدَبَّرْتِ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ؛ تَشَاغَلْتِ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَكِ مِنْ حُصُوْلِ مَا فَاتَكِ؛ مِنْ رَفْعِ خَلَلٍ، أَوِ اعْتِذَارٍ مِنْ زَلَلٍ، أَوْ وُقُوْفٍ عَلَىٰ البَابِ إِلَىٰ رَبِّ الأَرْبَابِ.

٣٩ - فصل: من نزلت به بلية

٢٠٨ ـ مَنْ نَزَلَتْ بِهِ بَلِيَّةٌ، فَأَرَادَ تَمْحِيقَها[2]؛ فَلْيَتَصَوَّرْها أَكْبَرَ مِمّا هِيَ تَهُنْ، وَلْيَتَخَايَلْ ثَوَابَها، وَلْيَتَوَهَّمْ نُزُولَ أَعْظَمَ مِنْهَا؛ يَرَ الرِّبْحَ فِي الاقْتِصَارِ عَلَيْهَا.

وَلْيَتَلَمَّحْ سُرْعَةَ زَوَالِهَا؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا كَرْبُ الشِّدَّةِ؛ مَا رُجِيَتْ سَاعَاتُ الرَّاحَةِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مُدَّةَ مَقَامِهَا عِنْدَهُ كَمُدَّةِ مُقَامِ الضَّيْفِ؛ فَلْيَتَفَقَّدْ حَوَائِجَهُ فِيْ كُلِّ لَحْظَةٍ؛ فَيَا سُرْعَةَ انْقِضَاءِ مَقَامِهِ! وَيَا لَذَّةَ مَدَائِحِهِ وَبِشْرِهِ فِي المَحَافِلِ، وَوَصْفِ المُضِيْفِ بِالْكَرَمِ!

٢٠٩ ـ فَكَذٰلِكَ [المُؤْمِنُ فِي] الشِّدَّةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعِيَ السَّاعَاتِ، وَيَتَفَقَّدَ فِيْهَا أَحْوَالَ النَّفْسِ، وَيَتَلَمَّحَ الجَوَارِحَ؛ مَخَافَةَ أَنْ تَبْدُوَ مِنَ اللِّسَانِ كَلِمَةٌ، أَوْ مِنَ القَلْبِ تَسَخُّطٌ، فَكَأَنْ قَدْ لَاحَ فَجْرُ الأَجْرِ، فَانْجَابَ[3] لَيْلُ البَلَاءِ، ومُدِحَ السَّارِيْ بِقَطْعِ الدُّجَىٰ؛ فَمَا طَلَعَتْ شَمْسُ الجَزَاءِ؛ إِلَّا وَقَدْ وَصَلَ إِلَىٰ مَنْزِلِ السَّلَامَةِ.

٤٠ - فصل: فضل العلم وفوائده

٢١٠ ـ لَمَّا رَأَيْتُ رَأْيَ نَفْسِي فِي العِلْمِ حسنًا؛ فَهِيَ تُقَدِّمُهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ،

---

(١) يحيى بن مسلم، شيخ بصري، من موالي الأزد، تابعي، حدث عن ابن عمر ﷺ، توفي سنة (١٣٠هـ).

(٢) **تمحيقها**: تصغيرها وإزالتها.

(٣) **انجاب**: انكشف وزال.

وَتَعْتَقِدُ الدَّلِيْلَ، وَتُفَضِّلُ سَاعَةَ التَّشَاغُلِ بِهِ عَلَىٰ سَاعَاتِ النَّوَافِلِ، وَتَقُولُ: أَقْوَىٰ دَلِيْلٍ لِيَ عَلَىٰ فَضْلِهِ عَلَىٰ النَّوافِلِ: أَنِّي رَأَيْتُ كَثِيرًا مِمَّنْ شَغَلَتْهُمْ نَوَافِلُ الصَّلَاةِ والصَّوْمِ عَنْ نَوَافِلِ العِلْمِ عَادَ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ بِالقَدْحِ فِيْ الأُصُوْلِ؛ فرأيتُها في هٰذا الاتِّجاه علىٰ الجادَّةِ السليمةِ[1] والرأي الصحيح.

٢١١ ـ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُهَا وَاقِفَةً مَعَ صُوْرَةِ التَّشَاغُلِ بِالعِلْمِ، فَصِحْتُ بِهَا: فَمَا الَّذِي أَفادَكِ العِلْمُ؟! أَيْنَ الخَوْفُ؟! أَيْنَ القلقُ؟! أَيْنَ الحَذَرُ؟! أَوَ مَا سَمِعْتِ بِأَخْبَارِ أَخْيارِ الأَحْبَارِ فِي تَعبُّدِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ؟!

أَمَا كَانَ **الرَّسُوْلُ** ﷺ سَيِّدَ الكُلِّ، ثُمّ إِنَّهُ قَامَ حَتَّىٰ وَرِمَتْ قَدَمَاهُ[2]؟!

أَمَا كَانَ **أَبُوْ بَكْرٍ** رضي الله عنه شَجِيَّ النَّشِيْجِ، كَثِيْرَ البُكَاءِ؟!

أَمَا كَانَ فِيْ خَدِّ **عُمَرَ** رضي الله عنه خَطَّانِ[3] مِنْ آثارِ الدُّمُوْعِ؟!

أَمَا كَانَ **عُثْمَانُ** رضي الله عنه يَخْتِمُ القُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ؟!

أَمَا كَانَ **عَلِيٌّ** رضي الله عنه يَبْكِيْ بِاللَّيْلِ فِي مِحْرَابِهِ حَتَّىٰ تَخْضَلَّ لِحْيَتُهُ بِالدُّمُوعِ، وَيَقُوْلُ: يَا دُنْيا غُرِّي غَيْرِيْ[4]؟!

أَمَا كَانَ **الحَسَنُ البَصْرِيُّ** يَحْيَا عَلَىٰ قُوَّةِ القَلَقِ.

أَمَا كَانَ **سَعِيْدُ بْنُ المُسَيَّبِ** مَلَازِمًا لِلْمَسْجِدِ، فَلَمْ تَفُتْهُ صَلَاةٌ فِي جَمَاعةٍ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً؟!

أَمَا صَامَ **الأَسْوَدُ بْنُ يَزِيْدَ**[5] حَتَّىٰ اخْضَرَّ واصْفَرَّ؟!

---

(١) في حاشية الأصل: في الأحمدية: الجادة السهلة.

(٢) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وتمامه: فيقال له؟ فيقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

(٣) في الأصل: خطين.

(٤) صفة الصفوة (١/٣١٦) ط. دار الوعي بحلب.

(٥) أبو عمرو النخعي الكوفي: الإمام القدوة، وهو ابن أخي علقمة بن قيس، وخال إبراهيم النخعي، فهؤلاء أهل بيت من رؤوس العلم والعمل، كان الأسود مخضرمًا، أدرك الجاهلية والإسلام، توفي سنة (٧٥هـ).

أَمَا قَالَتِ ابْنَةُ **الرَّبِيْعِ بْنِ خُثَيْم** لَهُ: مَا لِي أَرَىٰ النَّاسَ يَنَامُوْنَ وَأَنْتَ لا تَنَامُ؟! فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكِ يَخَافُ عَذَابَ البَيَاتِ؟!

أَمَا كَانَ **أَبُوْ مُسْلِمٍ الخَوْلَانِيُّ**[1] يُعلِّقُ سَوْطًا فِي المَسْجِدِ يُؤَدِّبُ بِهِ نَفْسَهُ إِذَا فَتَرَ؟!

أَمَا صَامَ **يَزِيْدُ الرَّقَاشِيُّ**[2] أَرْبَعِيْنَ سَنَةً، وَكَانَ يَقُوْلُ: وَا لَهَفَاهُ! سَبَقَنِي العَابِدُوْنَ، وقُطِعَ بِي؟!

أَمَا صَامَ **مَنْصُوْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ**[3] أَرْبَعِيْنَ سَنَةً؟!

أَمَا كَانَ **سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ** يَبْكِي الدَّمَ مِنَ الخَوْفِ؟!

أَمَا كَانَ **إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ** يَبُوْلُ الدَّمَ مِنَ الخَوْفِ؟!

أَمَا تَعْلَمِيْنَ أَخْبَارَ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ فِيْ زُهْدِهِمْ وَتَعَبُّدِهِمْ؛ **أَبُوْ حَنِيْفَةَ، وَمَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ؟!**

احْذَرِي مِنَ الإِخْلَادِ إِلَىٰ صُوْرَةِ العِلْمِ مَعْ تَرْكِ العَمَلِ بِهِ؛ فَإِنَّهَا حَالَةُ الكُسَالَىٰ الزَّمْنَىٰ:

وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَىٰ مُهْلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيْشِكَ لَمْ يُدْبِرِ
وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيْلُ العِثَا ... رَ، وَتَطْوِي الوُرودَ عَلَىٰ المَصْدَرِ[4]
وَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيَّ الرَّعِيْـ ... ـلِ يَضمُّكَ في حَلْبَةِ المَحْشَرِ[5]

٤١ - فصل: في غلو بعض المتزهدين

٢١٢ - مِمَّا يَزِيْدُ العِلْمَ عِنْدِي فَضْلًا: أَنَّ قَوْمًا تَشَاغَلُوْا بِالتَّعَبُّدِ عَنِ العِلْمِ، فَوَقَفُوْا عَنِ الوُصُوْلِ إِلَىٰ حَقَائِقِ الطَّلَبِ.

---

(١) عبد الله بن ثوب الخولاني: ريحانة الشام وحكيم الأمة، تابعي فقيه، عابد زاهد، ولد باليمن، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، وهاجر إلى الشام، ووفاته بدمشق، وقبره بداريا، توفي سنة (٦٢هـ).

(٢) يزيد بن أبان الرقاشي البصري القاص الزاهد أبو عمرو، توفي بين سنتي (١١٠ - ١٢٠هـ).

(٣) السلمي الكوفي، أبو عتاب الحافظ الثبت القدوة، أحد الأعلام، توفي سنة (١٣٣هـ).

(٤) في حاشية الأصل: في هامش الهندية: الروابي، بدل الورود.

(٥) في حاشية الأصل: في هامش الهندية: الرعيل بالعين المهملة والياء المثناة التحتية قال في (النهاية): يقال للقطعة من الفرسان: رعلة، ولجماعة الخيل: رعيل.

فَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ القُدَمَاءِ أَنّه قَالَ لِرَجُلٍ: يَا أَبَا الوَلِيْدِ! إِنْ كُنْتَ أَبَا الوَلِيْدِ! يَتَوَرَّعُ أَنْ يَكْنِيْهِ وَلَا وَلَدَ لَهُ! وَلَوْ أَوْغَلَ هٰذَا فِيْ العِلْمِ؛ لَعَلِمَ أَنَّ **النَّبِيَّ ﷺ كَنَّىٰ صُهَيْبًا أَبَا يَحْيَىٰ**[1]، وَكَنَّىٰ طِفْلًا [فَقَالَ]: **«يَا أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»**[2].

٢١٣ ـ وَقَالَ بَعْضُ المُتَزَهِّدِيْنَ: قِيْلَ لِيْ يَوْمًا: كُلْ مِنْ هٰذا اللَّبَنِ! **فَقُلْتُ**: هٰذا يَضُرُّنِي. ثُمَّ وَقَفْتُ بَعْدَ مُدَّةٍ عِنْدَ الكَعْبَةِ، **فَقُلْتُ**: اللَّهُمَّ! إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَشْرَكْتُ بِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَهَتَفَ بِيْ هَاتِفٌ: وَلَا يَوْمَ اللَّبَنِ؟!

وَهٰذَا لَوْ صَحَّ؛ جَازَ أَنْ يَكُوْنَ تَأْدِيْبًا لَهُ؛ لِئَلَّا يَقِفَ مَعَ الأَسبابِ ناسِيًا لِلْمُسَبِّبِ، وَإِلَّا؛ فَالرَّسُوْلُ ﷺ قَدْ قَالَ: **«مَا زَالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي حَتَّىٰ الآنَ قَطَعَتْ أَبْهَرِي»**[3]، وَقَالَ: **«مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِيْ بَكْرٍ»**[4].

٢١٤ ـ وَمِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ أَقْوَامٌ يَرَوْنَ التَّوَكُّلَ قَطْعَ الأَسْبَابِ كُلِّهَا، وَهٰذَا جَهْلٌ بِالعِلْمِ؛ فَإِنَّ **النَّبِيَّ ﷺ: دَخَلَ الغَارَ**[5]، **وَشَاوَرَ الطَّبِيْبَ**[6]، **وَلَبِسَ الدِّرْعَ**[7]، **وَحَفَرَ الخَنْدَقَ**[8]، **وَدَخَلَ مَكَّةَ فِي جِوَارِ المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَكَانَ كَافِرًا**[9]، وَقَالَ لِسَعْدٍ: **«لَأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»**

فَالوُقُوْفُ مَعَ الأَسْبَابِ مَعَ نِسْيَانِ المُسَبِّبِ غَلَطٌ، والعَمَلُ على الأسبابِ مع تعلُّقِ القَلْبِ بالمسبِّبِ هو المشروعُ، وكُلُّ هذِهِ الظُّلُمَاتِ إِنَّمَا تُقْطَعُ بِمِصْبَاحِ العِلْمِ، وَلَقَدْ ضَلَّ مَنْ مَشَىٰ فِي ظُلْمَةِ الجَهْلِ، أَوْ فِي زُقَاقِ الهَوَىٰ.

---

(١) رواه الحاكم (٣/٣٩٨ ـ ٤٠٠) عن أنس وصهيب رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠) عن أنس رضي الله عنه. و(النغير) طائر يشبه العصفور أحمر المنقار.

(٣) رواه البخاري (٤٤٢٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٦١)، وأحمد (٢/٢٥٣ ـ ٣٦٦)، وابن ماجه (٩٤)، وابن حبان (٢١٦٦ و٦٨٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٣٩٠٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أُبي بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه، رواه مسلم (٢٢٠٧).

(٧) قال الهيثمي في المجمع (٦/١٠٨): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

(٨) رواه البخاري (٤١٠١ ـ ٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣) عن البراء رضي الله عنه.

(٩) ذكره ابن هشام في السيرة ص(٣٣٤).

٤٢ - فصل: شرف الإنسان

٢١٥ ـ مَا أَزَالُ أَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَرَىٰ تَفْضِيْلَ المَلَائِكَةِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ! فإِنْ كَانَ التَّفْضِيْلُ بالصُّوَرِ؛ فَصُورَةُ الآدَمِيِّ أَعْجَبُ مِنْ ذَوِي أَجْنِحَةٍ، وَإِنْ تُرِكَتْ صُوْرَةُ الآدَمِيِّ لأَجْلِ أَوْسَاخِهَا المَنُوْطَةِ بِهَا؛ فَالصُّوْرَةُ لَيْسَتِ الآدَمِيَّ، إِنَّمَا هِيَ قَالَبٌ! ثُمَّ قَدِ اسْتُحْسِنَ مِنْهَا مَا يُسْتَقْبَحُ فِي العَادَةِ؛ مِثْلُ: خُلُوْفِ فَمِ الصَّائِمِ، وَدَمِ الشُّهَدَاءِ[1]، والنَّوْمِ فِي الصَّلَاةِ[2]؛ فَبَقِيَتْ صُوْرَةً مَعْمُوْرَةً، وَصَارَ الحُكْمُ لِلْمَعْنَىٰ. أَلَهُمْ مَرْتَبَةٌ يُحِبُّهُم أَوْ فَضِيْلَةٌ يُبَاهِيْ بِهِمْ؟!

وَكَيْفَ دَارَ الأَمْرُ؛ فَقَدْ سَجَدُوْا لَنَا، وَهُوَ صَرِيْحٌ فِي تَفْضِيْلِنَا عَلَيْهِمْ.

٢١٦ ـ فَإِنْ كَانَتِ الفَضِيْلَةُ بِالعِلْمِ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ القِصَّةَ يَوْمَ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ [البقرة: ٣٣]. وَإِنْ فُضِّلَتِ المَلَائِكَةُ بِجَوْهَرِيَّةِ ذَوَاتِهِمْ؛ فَجَوْهَرِيَّةُ أَرْوَاحِنَا مِنْ ذٰلِكَ الجِنْسِ، وَعَلَيْنَا أَثْقَالُ أَعْبَاءِ الجِسْمِ.

بِاللهِ؛ لَوْلَا احْتِيَاجُ الرَّاكِبِ إِلَى النَّاقَةِ؛ فَهُوَ يَتَوَقَّفُ لِطَلَبِ عَلَفِهَا، وَيَرْفُقُ فِي السَّيْرِ بِهَا؛ لِطَرْقَ أَرْضِ مِنًى قَبْلَ العَشْرِ[3].

٢١٧ ـ وَاعَجَبًا! أَتُفَضَّلُ المَلَائِكَةُ بِكَثْرَةِ التعبُّد؟! فَمَا ثَمَّ صعادٌ[4]. أَوَ يُتَعَجَّبُ مِنَ المَاءِ إِذَا جَرَىٰ، أَوْ مِنْ مُنْحَدِرٍ يُسْرِعُ؟! إِنَّمَا العَجَبُ مِنْ مُصَاعِدٍ [يَشُقُّ الطَّرِيْقَ، ويُغَالِبُ العَقَبَاتِ]!

٢١٨ ـ بَلَىٰ؛ قَدْ يُتَصَوَّرُ مِنْهُمُ الخِلَافُ، وَدَعْوَىٰ الإِلٰهِيَّةِ؛ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ دَكِّ الصُّخُوْرِ وَشَقِّ الأَرْضِ؛ لِذٰلِكَ تُوُعِّدُوْا: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، لٰكِنَّهُمْ يَعْلَمُوْنَ عُقُوْبَةَ الحَقِّ فَيَحْذَرُوْنَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٧)، ومسلم (١٨٧٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ تكون له صلاة بليل فغلبه عليها نوم إلا كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه صدقة عليه»، رواه أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (١٧٨٣، ١٧٨٤).

(٣) **العشر**: عشر ذي الحجة.

(٤) **الصعاد**: الرقي والارتفاع، وفي حاشية الأصل: في الأحمدية: فما ثمَّ صادٌّ. قلت: أي مانع.

٢١٩ ـ فَأَمّا بُعْدُنا عَنِ المَعْرِفَةِ الحَقِيْقِيّةِ، وَضَعْفُ يَقِيْنِنَا بِالنَّاهِي، وَغَلَبَةُ شَهْوَتِنا مَعَ الغَفْلَةِ؛ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ جِهَادٍ أَعْظَمَ مِنْ جِهَادِهِم.

تَاللهِ؛ لَو ابْتُلِيَ أَحَدُ المُقَرَّبِيْنَ بَمَا ابْتُلِيْنَا بِهِ؛ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ التَّمَاسُكِ، يُصْبِحُ أَحَدُنَا؛ وَخِطَابُ الشَّرْعِ يَقُوْلُ لَهُ: اكْسَبْ لِعَائِلَتِكَ، وَاحْذَرْ فِي كَسْبِكَ! وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ مَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ؛ كَحُبِّ الأَهْلِ، وَعُلُوْقِ الوَلَدِ بِنِياطِ القَلْبِ، واحْتِيَاجِ بَدَنِهِ إِلَىٰ مَا لَا بدَّ مِنْهُ.

فَتَارَةً يُقَالُ لِلْخَلِيْلِ عليه السلام: اذْبَحْ وَلَدَكَ بِيَدِكَ! وَاقْطَعْ ثَمَرَةَ فُؤَادِكَ بِكَفِّكَ! ثُمَّ قُمْ إِلَىٰ المَنْجَنِيْقِ لِتُرْمَىٰ فِي النَّارِ! وَتَارَةً يُقَالُ لِمُوْسَىٰ عليه السلام: صُمْ شَهْرًا؛ لَيْلًا وَنَهَارًا.

ثُمَّ يُقَالُ لِلْغَضْبَانِ: اكْظِمْ! وَلِلْبَصِيْرِ: اغْضُضْ! وَلِذِي المِقْوَلِ: اصْمُتْ! وَلِمُسْتَلِذِّ النَّوْمِ: تَهَجَّدْ! وَلِمَنْ مَاتَ حَبِيْبُهُ: اصْبِرْ! وَلِمَنْ أُصِيْبَ في بَدَنِهِ: اشْكُرْ! وَلِلْوَاقِفِ فِي الجِهَادِ بَيْنَ اثْنَيْنِ: لَا يَحِلُّ أَنْ تَفِرَّ!

ثُمّ اعْلَمْ أَنَّ المَوْتَ يَأْتِي بِأَصْعَبِ المَرَارَاتِ، فَيَنْزِعُ الرُّوْحَ عَنِ البَدَنِ؛ فَإِذَا نَزَلَ؛ فاثْبُتْ! وَاعْلَمْ أَنَّكَ مُمَزَّقٌ في القَبْرِ؛ فَلا تَتَسَخَّطْ؛ لأَنَّهُ مِمَّا يَجْرِي بِهِ القَدَرُ! وَإِنْ وَقَعَ بِكَ مَرَضٌ؛ فَلا تَشْكُ إِلَىٰ الخَلْقِ!

فَهَلْ لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ هذِهِ الأَشْيَاءِ شَيْءٌ؟! وَهَلْ ثَمَّ إِلَّا عَبَادَةٌ سَاذَجَةٌ: **لَيْسَ فِيْهَا مُقَاوَمَةُ طَبْعٍ، وَلا رَدُّ هَوًىٰ**؟! وهل هي إِلَّا عبادةٌ صُورِيَّةٌ بين ركوع وسجودٍ وتسبيحٍ؟! فأين عبادتُهم المعنويةُ من عبادتِنا؟!

٢٢٠ ـ ثُمَّ أَكْثَرُهُمْ فِي خِدْمَتِنَا؛ بَيْنَ كَتَبَةٍ عَلَيْنَا، وَدَافِعِيْنَ عَنَّا، وَمُسَخَّرِيْنَ لإِرْسَالِ الرِّيْحِ والمَطَرِ، وَأَكْثَرُ وَظَائِفِهِمُ الاسْتِغْفَارُ لنا. فَكَيْفَ يُفَضَّلُوْنَ عَلَيْنَا بِلَا عِلَّةٍ ظاهرةٍ؟!

٢٢١ ـ وأما [إذا] مَا حُكَّتْ عَلىٰ مَحَكِّ التَّجَارُبِ [طائِفَةٌ] مِنْهُمْ ـ [مِثْلُ ما رُوِيَ عَن] هاروتَ وماروتَ[1] ـ؛ خَرَجُوْا أَقْبَحَ من بَهْرَجٍ[2].

٢٢٢ ـ وَلا تَظُنَّنَّ أَنِّي أَعْتَقِدُ فِي تَعَبُّدِ المَلائِكَةِ نَوْعَ تَقْصِيْرٍ؛ لأَنَّهُمْ شَدِيْدُوْ

---

(١) قصة هاروت وماروت والزهرة قال عنها العلامة محدث الديار المصرية الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٦١٧٨)، ما خلاصته: طرقها واهية معلولة، مع مخالفتها الواضحة للعقل.

(٢) **البهرج**: الزائف الفاسد.

الإِشْفَاقِ والخَوْفِ؛ لِعِلْمِهِم بِعَظَمَةِ الخَالِقِ، لٰكِنْ طَمأْنِيْنَةُ مَنْ لَمْ يُخْطِئْ تُقَوِّي نَفْسَه، وانْزِعَاجُ الغائِصِ في الزَّلَل يُرقّي رُوْحَه إلىٰ التَّراقِي[1].

٢٢٣ ـ فَاعْرِفوا ـ إِخْوَانِي ـ شَرَفَ أَقدارِكم، وَصُوْنُوْا جَوَاهِرَكُمْ عَنْ تَدْنِيْسِهَا بِلُؤْمِ الذُّنُوْبِ؛ فَأَنْتُمْ مَعْرِضُ الفَضْلِ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ؛ فاحْذَرُوْا أَنْ تَحُطَّكُمُ الذُّنُوبُ إلىٰ حَضِيْضِ البَهَائِمِ! وَلَا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ.

٤٣ - فصل: إذا كانت بعض المخلوقات لا تُعْلَمُ إلا جملة فالخالق أجل وأعلى

٢٢٤ ـ **رَأَيْتُ كَثِيْرًا** مِنَ الخَلْقِ وَعَالَمًا مِنَ العُلَمَاءِ لَا يَنْتَهُوْنَ عَنِ البَحْثِ عَنْ أُصُوْلِ الأَشْيَاءِ الّتِي أُمِرُوْا بِعِلْمِ جملها[2] مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ عَنْ حَقَائِقِهَا! كَالرُّوْحِ مَثَلًا؛ فَاللهُ تَعَالَىٰ سَتَرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَلَمْ يَقْنَعُوْا، وَأَخَذُوْا يَبْحَثُوْنَ عَنْ مَاهِيَّتِهَا، وَلا يَقَعُوْنَ بِشَيْءٍ[3]، وَلا يَثْبُتُ لأَحَدٍ مِنْهُمْ بُرْهَانٌ عَلىٰ مَا يَدَّعِيْهِ! وَكَذٰلِكَ العَقْلُ؛ فَإِنَّهُ مَوْجُوْدٌ بِلَا شَكٍّ؛ كَمَا أَنَّ الرّوْحَ مَوْجُوْدَةٌ بلا شَكٍّ، كِلاهُمَا يُعْرَفُ بِآثَارِهِ، لا بِحَقِيْقَةِ ذَاتِهِ.

٢٢٥ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: فَمَا السِّرُّ في كَتْمِ هذِهِ الأَشْيَاءِ؟ **قُلْتُ**: لأَنَّ النَّفْسَ مَا تَزَالُ تَتَرَقَّىٰ مِنْ حَالةٍ إِلَىٰ حَالةٍ؛ فَلَو اطَّلَعَتْ عَلىٰ هذِهِ الأَشْيَاءِ؛ لَتَرَقَّتْ إِلَىٰ خَالِقِها؛ فكانَ سَتْرُ ما دُوْنَهُ زِيادةً فِيْ تَعْظِيْمِهِ؛ لأَنَّهُ إِذا كَانَ بَعْضُ مَخْلُوْقَاتِهِ يُعْلَمُ جُمْلَةً[4]؛ فَهُوَ أَجَلُّ وَأَعْلَىٰ.

٢٢٦ ـ **وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ**: مَا الصَّوَاعِقُ؟ وَمَا البَرْقُ؟ وَمَا الزَّلازِلُ؟ **قُلْنَا**: شَيْءٌ مُزْعِجٌ، وَيَكْفِي. والسِّرُّ فِيْ سَتْرِ هٰذا: أَنّه لَوْ كُشِفَتْ حَقَائِقُهُ؛ خَفَّ مِقْدَارُ تَعْظِيْمِهِ[5]. وَمَنْ تَلَمَّحَ هٰذا الفَصْلَ؛ عَلِمَ أَنّه فَصْلٌ عَزِيْزٌ.

---

(١) **التراقي**: جمع ترقوة، وهي عظم بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ الروح إلى التراقي عن الإشراف على الموت.

(٢) في الأصل: جهلها. وهو تصحيف.

(٣) **لا يقعون بشيء**: لا يجدون شيئًا.

(٤) في هامش الأصل: في النسختين: «يعلم جملة» وفي الهندية: يجهل يعلم جهله.

(٥) قلت: بل يزيد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فمعرفة العلماء =

٢٢٧ ـ فَإِذَا ثَبَتَ هٰذَا فِي المَخْلُوقَاتِ؛ فَالخَالِقُ أَجَلُّ وَأَعْلَىٰ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُوْقَفَ فِي إِثْبَاتِهِ عَلَىٰ دَلِيْلِ وُجُودِهِ، ثُمَّ يُسْتَدَلَّ عَلَىٰ جَوَازِ بَعْثِهِ رُسُلَه، ثُمَّ **تُتَلَقَّىٰ أَوْصَافُهُ مِنْ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ بِهِ، وَلا يُزَادُ عَلَىٰ ذٰلِكَ.**

وَلَقَدْ بَحَثَ خَلْقٌ كَثِيرٌ عَنْ صِفَاتِهِ بِآرَائِهِمْ، فَعَادَ وَبَالُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ.

٢٢٨ ـ وَإِذا قُلْنَا: إِنَّه مَوْجُودٌ، وَعَلِمْنَا مِنْ كَلامِهِ أَنَّهُ سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ حَيٌّ قَادِرٌ... كَفَانَا هٰذا فِي صِفَاتِهِ، وَلا نَخُوْضُ فِي شَيْءٍ آخرَ. وَكذٰلِكَ نَقُوْلُ: مُتَكَلِّمٌ، والقُرْآنُ كَلَامُه، وَلَا نَتَكَلَّفُ مَا فَوْقَ ذٰلِكَ. وَلَمْ يَقُلِ السَّلَفُ: تِلَاوَةٌ وَمَتْلُوٌّ، وَقِرَاءَةٌ وَمَقْرُوْءٌ. وَلا قَالُوا: اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ بِذَاتِهِ. وَلا قَالُوْا: يَنْزِلُ بِذَاتِهِ... **بَلْ أَطْلَقُوْا مَا وَرَدَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ.** و[لا] نقولُ لِمَا ثَبَتَ بالدَّلِيلِ ما لا يجوز عليه. وَهذِهِ كَلِمَاتٌ كالمِثَالِ؛ فَقِسْ عَلَيْهَا جَمِيْعَ الصِّفَاتِ؛ تَفُزْ سَلِيْمًا مِنْ تَعْطِيْلٍ، مُتَخَلِّصًا مِنْ تَشْبِيْهٍ.

٤٤ - فصل: إنما تصلح الحياة بالتفاوت بين العباد

٢٢٩ ـ **رَأَيْتُ** أَكْثَرَ الخَلْقِ فِي وُجُودِهِمْ كَالمَعْدُوْمِيْنَ؛ **فَمِنْهُمْ** مَنْ لا يَعْرِفُ الخَالِقَ. **وَمِنْهُمْ** مَنْ يُثْبِتُهُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ حِسِّهِ. **وَمِنْهُمْ** مَنْ لا يَفْهَمُ المَقْصُوْدَ مِنَ التَّكْلِيْفِ.

٢٣٠ ـ وَتَرَىٰ المُتَوَسِّمِيْنَ بِالزُّهْدِ يَدْأَبُوْنَ فِي القِيَامِ وَالقُعُوْدِ، وَيَتْرُكُوْنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَنْسَوْنَ مَا قَدْ أَنِسُوْا بِهِ مِنْ شَهْوَةِ الشُّهْرَةِ، وَتَقْبِيْلِ الأَيَادِي!! وَلَوْ كُلِّمَ أَحَدُهُمْ؛ قَالَ: أَلِمِثْلِيْ يُقَالُ هٰذا؟! وَمَنْ فَلانٌ الفَاسِقُ؟! فهٰؤلاءِ لا يَفْهَمُوْنَ المَقْصُوْدَ. وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي احْتِقَارِهِمْ غَيْرَهُمْ، وَالتَّكَبُّرِ في نُفُوْسِهِمْ، فَتَعَجَّبْتُ؛ كَيْفَ يَصْلُحُ هٰؤُلاءِ لِمُجَاوَرَةِ الحَقِّ، وسُكْنَىٰ الجَنَّةِ؟!

٢٣١ ـ فَرَأَيْتُ أَنَّ الفَائِدَةَ فِي وُجُودِهِمْ في الدُّنيا تُجَانِسُ الفَائِدَةَ فِي دُخُوْلِهِمُ الجَنَّةَ؛ فإِنَّهُمْ في الدُّنْيَا بَيْنَ مُعْتَبَرٍ بِهِ؛ يَعْرِفُ عَارِفُ اللهِ سُبْحَانَهُ نَعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ، بِمَا كُشِفَ لَهُ مِمَّا غَطَّىٰ عَنْ ذَاكَ، ويُتِمُّ النِّظَامَ بِالاقْتِدَاءِ بصُوَرِ أُولئكَ، [أَوْ تَابِعٍ يَتِمُّ بِهِ

= أجل وأرسخ من معرفة العوام.

العِمْرَانُ، وَتَقُوْمُ بِهِ المَعَايِشُ. وَإِنَّما تَصْلُحُ الحَيَاةُ بِهٰذا التَفَاوُتِ البَعِيْدِ.

٢٣٢ ـ ثُمَّ بَيْنَ الخاصَّةِ فُرُوْقٌ:][1] فإنَّ العَارِفَ لا يتَّسِعُ وَقْتُهُ لِمُخَالَطَةِ مَنْ يَقِفُ مَعَ الصُّورة؛ فالزّاهِدُ كَرَاعِي البُهْمِ، والعَالِمُ كَمُؤَدِّبِ الصِّبْيَانِ، وَالعَارِفُ كَمُلَقِّنِ الحِكْمَةِ. وَلَوْلَا نَفَّاطُ[2] المَلِكِ وَحَارِسُهُ وَوَقَّادُ أَتُوْنِهِ[3]؛ مَا تَمَّ عَيْشُهُ.

٢٣٣ ـ فَمِنْ تَمَامِ عَيْشِ العَارِفِ اسْتِعْمَالُ أُولئِكَ بِحَسَبِهِمْ؛ فَإذا وَصَلوا إِلَيْهِ؛ حَرَّرَ ما مَعَهُمْ[4]، وَفِيْهِمْ مَن لا يَصِلُ إِلَيْهِ، فَيَكُوْنُ وُجُوْدُ أُولٰئِكَ كَزِيَادَةِ (لا) فِيْ الكَلَامِ، هِيَ حَشْوٌ، وَهِيَ مُؤَكِّدَةٌ.

٢٣٤ ـ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَهَبْ هٰذا يَصِحُّ فِي الدُّنْيَا؛ فَكَيْفَ فِي الجَنَّةِ؟! **وَالجَوَابُ**: أنَّ الأُنْسَ بِالجِيْرَانِ مَطْلُوْبٌ، وَرُؤْيَةَ القَاصِرِ مِنْ تَمَامِ لَذَّةِ الكَامِلِ[5]، وَلِكُلٍّ شِرْبٌ، وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ كَفَاهُ رَمْزُ لَفْظِي عَنْ تَطْوِيْلِ الشَّرْحِ.

٤٥ - فصل: من حكمة الله في النبات

٢٣٥ ـ لَمّا تَلَمَّحْتُ تَدْبِيْرَ الصَّانِعِ فِيْ سَوْقِ رِزْقِي؛ بِتَسْخِيْرِ السَّحَابِ، وَإِنْزَالِ المَطَرِ بِرِفْقٍ، وَالبِذْرُ [دَفِيْنٌ] تَحْتَ الأَرْضِ كَالمَوْتَىٰ، قد عَفِنَ يَنْتَظِرُ نَفْخَةً مِنْ صُوْرِ الحَيَاةِ؛ فَإِذَا [أَصَابَتْهُ][6]؛ اهْتَزَّ خَضِرًا، وَ[إِذَا] انْقَطَعَ عَنْهُ المَاءُ؛ مَدَّ يَدَ الطَّلَبِ يَسْتَعْطِي، وَأَمَالَ رَأْسَهُ خَاضِعًا، وَلَبِسَ حُلَلَ التَّغَيُّرِ؛ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلىٰ مَا أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَبُرُوْدَةِ المَاءِ، وَلُطْفِ النَّسِيْمِ، وَتَرْبِيَةِ الأَرْضِ! فسبحان من أراني ـ فيما يُرَبِّيني به ـ كيف تَرْبيتي في الأصل.

٢٣٦ ـ فَيَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الّتِي قَدِ اطَّلَعتْ عَلىٰ بَعْضِ حِكَمِهِ! قَبِيْحٌ بِكِ ـ وَاللهِ ـ

---

(١) زيادة من بعض النسخ المطبوعة.

(٢) **النفاط**: رامي النفط. وفي حاشية الأصل: في الأحمدية: نغاظ بالغين المعجمة والظاء المشالة.

(٣) **الأتون**: الموقد الكبير.

(٤) في الأحمدية والمصرية: مانعهم.

(٥) في حاشية الأصل: في المصرية والأحمدية: لذة الكلام.

(٦) في الأصل: به.

الإقبالُ عَلَىٰ غَيْرِهِ. ثُمَّ العَجَبُ! كَيْفَ تُقْبِلِيْنَ عَلَىٰ فَقِيْرٍ مِثْلِكِ، يُنَادِيْنِي لِسَانُ حَالِهِ: «بِيْ مِثْلُ مَا بِكَ يا حَمَامُ» فَارْجِعِي إِلَىٰ الأَصْلِ الأَوَّلِ، واطلُبي من المسبِّبِ، ويا طُوْبَىٰ لكِ إِنْ عَرَفْتِهِ! فَإِنَّ عِرْفَانَهُ مُلْكُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ.

٤٦ - فصل: احذروا الترخّص فيما لا يؤمن فساده

٢٣٧ ـ كُنْتُ فِي بِدَايَةِ الصَّبْوَةِ[١] قَدْ أُلْهِمْتُ سُلُوْكَ طَرِيْقِ الزُّهَادِ، بِإِدَامَةِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَحُبِّبَتْ إِلَيَّ الخَلْوَةُ، فَكُنْتُ أَجِدُ قَلْبًا طَيِّبًا، وَكَانَتْ عَيْنُ بَصِيْرَتِي قَوِيَّةَ الحِدَّةِ، تَتَأَسَّفُ عَلَىٰ لَحْظَةٍ تَمْضِي فِيْ غَيْرِ طَاعَةٍ، وَتُبَادِرُ[٢] الوَقْتَ فِي اغْتِنَامِ الطَّاعَاتِ، وَلِي نَوْعُ أُنْسٍ، وَحَلَاوَةُ مُنَاجَاةٍ، فَانْتَهَىٰ الأَمْرُ إِلَىٰ أَنْ صَارَ بَعْضُ وُلَاةِ الأُمُوْرِ يَسْتَحْسِنُ كَلَامِي، فَأَمَالَنِي إِلَيْهِ، فَمَالَ الطَّبْعُ، فَفَقَدْتُ تِلْكَ الحَلَاوَةَ. ثُمّ اسْتَمَالَنِي آخَرُ، فَكُنْتُ أَتَّقِي مُخَالَطَتَهُ وَمَطَاعِمَهُ لِخَوْفِ الشُّبُهَاتِ، وَكَانَتْ حَالَتِي قَرِيْبَةً، ثُمَّ جَاءَ التَّأْوِيْلُ، فَانْبَسَطْتُ فِيْمَا يُبَاحُ، فَعُدِمَ مَا كُنْتُ أَجِدُ [مِن اسْتِنَارَةٍ وَسَكِيْنَةٍ]، وَصَارَتِ المُخَالَطَةُ تُوْجِبُ ظُلْمَةً فِي القَلْبِ، إِلَىٰ أَنْ عَدِمَ النُّوْرُ كُلَّه، فَكَانَ حَنِيْنِي إِلَىٰ مَا ضَاعَ مِنِّي يُوْجِبُ انْزِعَاجَ أَهْلِ المَجْلِسِ، فَيَتُوْبُوْنَ وَيَصْلُحُوْنَ، وَأَخْرُجُ مُفْلِسًا فِيْمَا بَيْنِي وَبَيْنَ حَالِي!

٢٣٨ ـ وَكَثُرَ ضَجِيْجِي مِنْ مَرَضِي، وَعَجَزْتُ عَنْ طِبِّ نَفْسِي، فَلَجَأْتُ إِلَىٰ قُبُوْرِ الصَّالِحِيْنَ، وَتَوَسَّلْتُ فِي صَلَاحِي، فَاجْتَذَبَنِي لُطْفُ مَوْلَايَ بِيْ إِلَىٰ الخَلْوَةِ عَلَىٰ كَرَاهَةٍ مِنِّي، وَرَدَّ قَلْبِي عَلَيَّ بَعْدَ نُفُوْرٍ مِنِّي، وَأَرَانِي عَيْبَ مَا كُنْتُ أُوْثِرُهُ، فَأَفَقْتُ مِنْ مَرَضِ غَفْلَتِي، وَقُلْتُ فِي مُنَاجَاةِ خَلْوَتِي:

سَيِّدِي! كَيْفَ أَقْدِرُ عَلَىٰ شُكْرِكَ؟ وَبِأَيِّ لِسَانٍ أَنْطِقُ بِمَدْحِكَ؛ إِذْ لَمْ تُؤَاخِذْنِي عَلَىٰ غَفْلَتِي، وَنَبَّهْتَنِي مِنْ رَقْدَتِي، وَأَصْلَحْتَ حَالِي عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْ طَبْعِي؟!

فَمَا أَرْبَحَنِي فِيْمَا سُلِبَ مِنِّي إِذَا كَانَتْ ثَمَرَتُهُ اللَّجَأَ إِلَيْكَ!

وَمَا أَوْفَرَ جَمْعِي إِذ ثَمَرَتُهُ إِقْبَالِي[٣] عَلَىٰ الخَلْوَةِ بِكَ! وَمَا أَغْنَانِي إِذْ أَفْقَرْتَنِي

---

(١) **الصبوة**: الصِّبا.
(٢) **تبادر**: تسارع.
(٣) في حاشية الأصل: في الأصل: إقبالك.

إِلَيْكَ! وَمَا آنَسَنِي إِذْ أَوْحَشْتَنِي مِنْ خَلْقِكَ[1]!

آهٍ عَلَىٰ زَمَانٍ ضَاعَ فِي غَيْرِ خِدْمَتِكَ! أَسَفًا لِوَقْتٍ مَضَىٰ فِيْ غَيْرِ طَاعَتِكَ.

٢٣٩ ـ قَدْ كُنْتُ إِذَا انْتَبَهْتُ وَقْتَ الفَجْرِ لَا يُؤْلِمُنِي نَوْمِي طُوْلَ اللَّيْلِ، وَإِذَا انْسَلَخَ عَنِّي النَّهَارُ لا يُوْجِعُنِي ضَيَاعُ ذٰلِكَ اليوم، وَمَا عَلِمْتُ أَنْ عَدَمَ الإِحْسَاسِ لِقُوَّةِ المَرَضِ. فَالآنَ قَدْ هَبَّتْ نَسَائِمُ العَافِيَةِ، فَأَحْسَسْتُ بِالأَلَمِ، فَاسْتَدْلَلْتُ عَلَىٰ الصِّحَّةِ. فِيَا عَظِيْمَ الإِنْعَامِ! تَمِّمْ لِيَ العَافِيَةَ.

٢٤٠ ـ آهٍ مِنْ سُكْرٍ لَمْ يُعْلَمْ قَدْرُ عَرْبَدَتِهِ إِلَّا فِيْ وَقْتِ الإِفَاقَةِ! لَقَدْ فَتَقْتُ مَا يَصْعُبُ رَتْقُهُ، فَوَا أَسَفا عَلَىٰ بِضَاعَةٍ ضَاعَتْ، وعَلَىٰ مَلَّاحٍ تَعِبَ فِيْ مَوْجِ الشَّمَالِ مُصَاعِدًا مُدَّةً، ثُمَّ غَلَبَهُ النَّوْمُ، فَرُدَّ إِلَىٰ مَكَانِهِ الأَوّل.

٢٤١ ـ يَا مَنْ يَقْرَأُ تَحْذِيْرِي مِنَ التَّخْلِيْطِ[2]! فَإِنِّي ـ وَإِنْ كُنْتُ خُنْتُ نَفْسِي بِالفِعْلِ ـ نَصِيْحٌ لإِخْوَانِي بِالقَوْلِ:

احْذَرُوْا ـ إِخْوَانِي ـ مِنَ التَّرَخُّصِ فِيْمَا لَا يُؤْمَنُ فَسَادُهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُزَيِّنُ المُبَاحَ فِيْ أَوَّلِ مَرْتَبَةٍ، ثُمَّ يَجُرُّ إِلَىٰ الجُنَاحِ[3]؛ فَتَلَمَّحُوْا المَآلَ، وَافْهَمُوْا الحَالَ! وَرُبَّمَا أَرَاكُمُ الغَايَةَ الصَّالِحَةَ، وَكَانَ فِي الطَّرِيْقِ إِلَيْهَا نَوْعُ مُخَالَفَةٍ!

فَيَكْفِي الاعْتِبَارُ فِي تِلْكَ الحَالِ بِأَبِيْكُمْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]؛ إِنَّمَا تَأَمَّلَ آدمُ الغَايَةَ ـ وَهِيَ الخُلْدُ ـ وَلٰكِنَّهُ غَلِطَ فِي الطَّرِيْقِ.

٢٤٢ ـ وَهٰذَا أَعْجَبُ مَصَايِدِ إِبْلِيْسَ الَّتِي يَصِيْدُ بِهَا العُلَمَاءَ؛ يَتَأَوَّلُوْنَ لِعَوَاقِبِ المَصَالِحِ، فَيَسْتَعْجِلُوْنَ ضَرَرَ المَفَاسِدِ!!

مِثَالُهُ: أَنْ يَقُوْلَ لِلعَالِمِ: ادْخُلْ عَلَىٰ هٰذا الظَّالِمِ؛ فاشْفَعْ فِي مَظْلُوْمٍ! فَيَسْتَعْجِلُ الدَّاخِلُ رُؤْيَةَ المُنْكَرَاتِ، وَيَتَزَلْزَلُ دِيْنُهُ، وَرُبَّمَا وَقَعَ فِي شَرَكٍ صَارَ بِهِ أَظْلَمَ مِنْ ذٰلِكَ الظَّالِمِ. فَمَنْ لَمْ يَثِقْ بِدِيْنِهِ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنَ المَصَايِدِ؛ فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ.

---

(١) في الأصل: إذ أوحشتني بالتجارب لخلقك.

(٢) **التخليط**: الجمع بين العمل الصالح والعمل الطالح.

(٣) **الجناح**: الإثم.

٢٤٣ - وَأَسْلَمُ مَا لِلْجَبَانِ العُزْلَةُ، خُصُوْصًا فِيْ زَمَانٍ قَدْ مَاتَ فِيْهِ المَعْرُوْفُ، وَعَاشَ المُنْكَرُ، وَلَمْ يَبْقَ لأَهْلِ العِلْمِ وَقْعٌ عِنْدَ الوُلَاةِ؛ فَمَنْ دَاخَلَهُمْ؛ دَخَلَ مَعَهُمْ فِيْمَا لا يَجُوْزُ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلىٰ جَذْبِهِم مِمَّا هُمْ فِيْهِ.

٢٤٤ - ثُمَّ مَنْ تَأَمَّلَ حَالَ العُلَمَاءِ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ لَهُمْ فِي الوِلَايَاتِ؛ يَرَاهُمْ مُنْسَلِخِيْنَ مِنْ نَفْعِ العِلْمِ، قَدْ صَارُوْا كالشُّرَطِ، فَلَيْسَ إِلَّا العُزْلَةُ عَنِ الخَلْقِ، وَالإِعْرَاضُ عَنْ كُلِّ تَأْوِيْلٍ فاسدٍ في المُخَالَطَةِ، وَلأَنْ أَنْفَعَ نَفْسِي وَحْدِي خَيْرٌ لِيْ مِنْ أَنْ أَنْفَعَ غَيْرِي وَأَتَضَرَّرَ.

٢٤٥ - فَالْحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ خَوَادِعِ التَّأْوِيْلَاتِ، وَفَوَاسِدِ الفَتَاوَىٰ! وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَىٰ مَا تُوْجِبُهُ العُزْلَةُ! فَإِنَّهُ إِنِ انْفَرَدْتَ بِمَوْلَاكَ؛ فَتَحَ لكَ بَابَ مَعْرِفَتِهِ، فَهَانَ كُلُّ صَعْبٍ، وَطَابَ كُلُّ مُرٍّ، وَتَيَسَّرَ كُلُّ عُسْرٍ، وَحَصَّلْتَ كُلَّ مَطْلُوْبٍ، وَاللهُ المُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

٤٧ - فصل: إن الله لا يُخادع

٢٤٦ - **تَأَمَّلْتُ** فِيْ نَفْسِي تَأْوِيْلًا فِيْ مُبَاحٍ أَنَالُ بِهِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا؛ إِلَّا أَنَّهُ فِي بَابِ الوَرَعِ كَدَرٌ؛ فَرَأَيْتُهُ أَوَّلًا قَدِ احْتَلَبَ دَرَّ[1] الدِّيْنِ، فَذَهَبَتْ حَلَاوَةُ المُعَامَلَةِ للهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ عَادَ فَقَلَصَ[2] ضَرْعُ حَلْبِي لَهُ، فَوَقَعَ الفَقْدُ لِلْحَالَيْنِ.

فَقُلْتُ لِنَفْسِي: مَا مَثَلُكَ إِلَّا كَمَثَلِ وَالٍ ظَالِمٍ، جَمَعَ [مَالًا] مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَصُوْدِرَ، فَأُخِذَ مِنْهُ الَّذِي جَمَعَ، وأُلْزِمَ[3] مَا لَمْ يَجْمَعْ.

فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ فَسَادِ التَّأْوِيْلِ؛ **فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يُخَادَعُ، وَلا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ**.

٤٨ - فصل: إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين

٢٤٧ - **رَأَيْتُ** نَفْسِي كُلَّمَا صَفا فِكْرُهَا، أَوِ اتَّعَظَتْ بِدَارِجٍ[4]، أَوْ زَارَتْ قُبُوْرَ

---

(١) **الدر**: الحلب.
(٢) **قلص**: انكمش ولم يحلب.
(٣) في الأصل: اجتر.
(٤) **الدارج**: الشخص المتوفى.

الصَّالِحِيْنَ؛ تَتَحَرَّكُ هِمَّتُهَا فِي طَلَبِ العُزْلَةِ، وَالإِقْبَالِ عَلَىٰ مُعَامَلَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَقُلْتُ لَهَا يَوْمًا وَقَدْ كَلَّمَتْنِي فِيْ ذٰلِكَ: حَدِّثِيْنِي؛ مَا مَقْصُوْدُكِ؟! وَمَا نِهَايَةُ مَطْلُوْبِكِ؟! أَتُرَاكِ تُرِيْدِيْنَ مِنِّي أَنْ أَسْكُنَ قَفْرًا لا أَنِيْسَ بِهِ؛ فَتَفُوْتُنِي صَلَاةُ الجَمَاعَةِ، وَيَضِيْعُ مِنِّي مَا قَدْ عَلِمْتُهُ لِفَقْدِ مَنْ أُعَلِّمُهُ، وَأَنْ آكُلَ الجَشْبَ[1] الَّذِي لَمْ أَتَعَوَّدْهُ؛ فَيَقَعَ نِضْوِي[2] طَلْحًا[3] في يَوْمَيْنِ، وَأَنْ أَلْبِسَ الخَشِنَ الذي لا أُطِيْقُهُ؛ فَلا أَدْرِيْ مِنْ كَرْبِ مَحْمُوْلِي مَنْ أَنَا، وَأَنْ أَتَشَاغَلَ عَنْ طَلَبِ ذُرِّيَّةٍ تَتَعَبَّدُ بَعْدِي؛ مَعَ بَقَاءِ القُدْرَةِ عَلَىٰ الطَّلَبِ؟! بِاللهِ؛ مَا نَفَعَنِي العِلْمُ الذِي بَذَلْتُ فِيْهِ عُمُرِي إِنْ وَافقتُكِ!

٢٤٨ ـ وَأَنا أُعَرِّفُكِ غَلَطَ مَا وَقَعَ لَكِ بِالعِلْمِ: اعْلَمِي أَنَّ البَدَنَ مَطِيَّةٌ، وَالمَطِيَّةُ إِذَا لَمْ يُرْفَقْ بِهَا؛ لَمْ تَصِلْ بِرَاكِبِهَا إِلَىٰ المَنْزِلِ، وَلَيْسَ مُرَادِي بِالرِّفْقِ الإِكْثَارَ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَإِنَّمَا أَعْنِي أَخْذَ البُلْغَةِ[4] الصَّالِحَةِ لِلْبَدَنِ؛ فَحِيْنَئِذٍ يَصْفُوْ الفِكْرُ، وَيَصِحُّ العَقْلُ، وَيَقْوَىٰ الذِّهْنُ.

أَلَا تَرَيْنَ[5] إِلَىٰ تَأْثِيْرِ المُعَوِّقَاتِ عَنْ صَفَاءِ الذِّهْنِ فِيْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**لَا يَقْضِي القَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»، وَقَاسَ العُلَماءُ عَلىٰ ذٰلِكَ الجُوْعَ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنْ كَوْنِهِ حَاقِنًا أَو حَاقِبًا[6]؟! وَهَلِ الطَّبْعُ إِلَّا كَكَلْبٍ يَشْغَلُ الآكِلَ؛ فَإِذَا رَمَىٰ لَهُ مَا يَتَشَاغَلُ بِهِ؛ طَابَ لَهُ الأَكْلُ؟!

٢٤٩ ـ فَأَمّا الانْفِرَادُ وَالعُزْلَةُ؛ فَعَنِ الشَّرِّ لا عَنِ الخَيْرِ، وَلَوْ كَانَ فِيْهَا لَكِ وَقْعُ خَيْرٍ؛ لَنُقِلَ ذٰلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنْ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم.

٢٥٠ ـ هَيْهَاتَ! لَقَدْ عَرَفْتِ أَنَّ أَقْوَامًا دَامَ بِهِمُ التَّقَلُّلُ واليَبْسُ إِلَىٰ أَنْ تَغَيَّرَ فِكْرُهُمْ، وَقَوِيَ الخَلْطُ السَّوْدَاوِيُّ[7] عَلَيْهِم، فَاسْتَوْحَشُوا مِنَ النَّاسِ! وَمِنْهُمْ مَنِ

---

(١) **الجشب**: الطعام الخشن.
(٢) **نضوي**: جسمي.
(٣) **طلحًا**: مريضًا.
(٤) **البلغة**: ما يسد الرمق.
(٥) في الأصل: تري.
(٦) في حاشية الأصل: **الحاقن**: بالبول، **والحاقب**: بالغائط.
(٧) **السوداوي**: المصاب باضطرابات مصحوبة بالحزن العميق المزمن، والتشاؤم الدائم.

اجْتَمَعَتْ لَهُ مِنَ المَآكِلِ الرَّدِيةِ أَخْلَاطٌ[1] مَجَّةٌ[2]، فَبَقِيَ اليَوْمَ وَاليَوْمَيْنِ وَالثَّلاثةَ لَا يَأْكُلُ، وَهُوَ يَظُنُّ ذٰلِكَ مِنْ أَمْدَادِ اللُّطْفِ، وَإِذَا بِهِ مِنْ سُوْءِ الهَضْمِ!

وَفِيْهِمْ مَنْ تَرَقَّىٰ بِهِ الخَلْطُ إِلَىٰ رُؤْيَةِ الأَشْبَاحِ، فَيَظُنُّها المَلَائِكَةَ!!

٢٥١ ـ فَاللهَ اللهَ فِيْ العِلْمَ! وَاللهَ اللهَ فِي العَقْلِ! فَإِنَّ نورَ العَقْلِ لا يَنْبَغِي أَنْ يُتَعَرَّضَ لإِطْفَائِهِ، وَالعِلْمُ لا يَجُوْزُ المَيْلُ إِلَىٰ تَنْقِيْصِهِ؛ فَإِذَا حُفِظَا؛ حَفِظَا وَظَائِفَ الزَّمَانِ، ودَفَعَا مَا يُؤْذِي، وجَلَبا مَا يُصْلِحُ، وَصَارَتِ القَوَانِيْنُ مُسْتَقِيْمَةً فِيْ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمُخَالَطَةِ.

٢٥٢ ـ **فَقَالَتْ لِيَ النَّفْسُ**: فَوَظِّفْ لِيَ وَظِيْفَةً، وَاحْسِبْنِي مَرِيْضًا قَدْ كَتَبْتَ لَهُ شَرْبَةً. **فَقُلْتُ لَهَا**: قَدْ دَلَلْتُكِ عَلَىٰ العِلْمِ، وَهُوَ طَبِيْبٌ مُلازِمٌ، يَصِفُ كُلَّ لَحْظَةٍ لِكُلِّ دَاءٍ يَعْرِضُ دَوَاءً يُلائِمُ.

٢٥٣ ـ وَفِيْ الجُمْلَةِ: يَنْبَغِي لَكِ مُلَازَمَةُ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ فِي المَنْطِقِ وَالنَّظَرِ وَجَمِيْعِ الجَوَارِحِ، وَتَحَقُّقُ الحَلالِ فِي المَطْعَمِ، وَإِيْدَاعُ كُلِّ لَحْظَةٍ مَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ الخَيْرِ، وَمُنَاهَبَةُ الزَّمَانِ[3] فِي الأَفْضَلِ، وَمُجَانَبَةُ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ مَا يُؤْذِي مِنْ نَقْصِ رِبْحٍ، أَوْ وُقُوْعِ خُسْرَانٍ! وَلا تَعْمَلِي عَمَلًا إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيْمِ النِّيَّةِ.

وَتَأَهَّبِي لِمُزْعِجِ المَوْتِ؛ فَكَأَنْ قَدْ[4]، وَمَا عِنْدَكِ مِنْ مَجِيْئِهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَكُوْنُ!

٢٥٤ ـ وَلا تَتَعَرَّضِي لِمَصَالِحِ البَدَنِ، بَلْ وَفِّرِيْهَا عَلَيْهِ، وَنَاوِلِيْهِ إِيَّاهَا عَلَىٰ قَانُوْنِ الصَّوَابِ، لا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الهَوَىٰ؛ فَإِنَّ إِصْلَاحَ البَدَنِ سَبَبٌ لإِصْلَاحِ الدِّيْنِ!

ودَعِي الرُّعونَةَ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا الجَهْلُ لَا العِلْمُ؛ مِنْ قَوْلِ النَّفْسِ: فَلَانٌ يَأْكُلُ الخَلَّ وَالبَقْلَ! وَفُلَانٌ لا يَنَامُ اللَّيْلَ!

فَاحْمِلِي مَا تُطِيْقِيْنَ وَمَا قَدْ عَلِمْتِ قُوَّةَ البَدَنِ عَلَيهِ؛ فَإِنَّ البَهِيْمَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ إِلَىٰ نَهْرٍ أَوْ سَاقِيَةٍ، فَضُرِبَتْ لِتَقْفِزَ؛ لَمْ تَفْعَلْ حَتَّىٰ تَزِنَ نَفْسَها؛ فَإِنْ عَلِمَتْ فِيْهَا قُوَّةَ

---

(١) قال الأطباء الأقدمون: إن الجسم مركب من أربعة أخلاط بها قوامه، ومنها صلاحه وفساده وهي: الصفراء والدم والبلغم والسوداء.

(٢) **المجة**: التي ترفضها النفس ولا تقبلها عادة. (٣) **مناهبة الزمان**: اغتنام الوقت.

(٤) **فكأن قد**: كأنْ قد جاء الموت.

الطَّفْرِ[1]؛ طَفَرَتْ، وَإِنْ عَلِمَتْ أَنَّها لا تُطِيْقُ؛ لَمْ تَفْعَلْ، وَلَوْ قُتِلَتْ.

وَلَيْسَ كُلُّ الأَبْدَانِ تَتَسَاوَىٰ فِي الإِطَاقَةِ، وَلَقَدْ حَمَلَ أَقْوَامٌ مِنَ المُجَاهَدَاتِ في بِدَايَاتِهِم أشياءَ أَوْجَبَتْ أَمْرَاضًا قَطَعَتْهُمْ عَنْ خَيْرٍ، وَتَسَخَّطَتْ قُلُوْبُهُمْ بِوُقُوْعِهَا؛ **فَعَلَيْكَ بِالعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.**

٤٩ - فصل: مسألة الصفات

٢٥٥ ـ عَجِبْتُ مِنْ أَقْوَامٍ يَدَّعُوْنَ العِلْمَ، وَيَمِيْلُوْنَ إِلَىٰ التَّشْبِيْهِ؛ بِحَمْلِهِمُ الأَحَادِيْثَ عَلَىٰ ظَواهِرِهَا؛ فَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَرُّوْهَا كَمَا جَاءَتْ؛ سَلِمُوْا؛ لأَنَّ مَنْ أَمَرَّ مَا جَاءَ، وَمَرَّ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ وَلا تَعَرُّضٍ؛ فَمَا قَالَ شَيْئًا، لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

٢٥٦ ـ وَلٰكِنَّ أَقْوَامًا قَصُرَتْ عُلُوْمُهُمْ، فَرأَتْ أَنَّ حَمْلَ الكَلَامِ عَلَىٰ غَيْرِ ظاهِرِهِ نَوْعُ تَعْطِيلٍ، وَلَوْ فَهِمُوْا سَعَةَ اللُّغَةِ؛ لَمْ يَظُنُّوا هٰذَا، وَمَا هُمْ إِلَّا بِمَثَابَةِ قَوْلِ **الحَجَّاجِ** لِكَاتِبِهِ وَقَدْ مَدَحَتْهُ **الخَنْسَاءُ**[2] فَقَالَتْ:

إِذَا هَبَطَ الحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيْضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَىٰ دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي بِهَا ... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ القَنَاةَ شَفَاهَا

فَلَمَّا أَتَمَّتِ القَصِيْدَةَ؛ **قَالَ لِكَاتِبِهِ**: اقْطَعْ لِسَانَهَا! فَجَاءَ ذَاكَ الكَاتِبُ المُغَفَّلُ بِالمُوْسَىٰ، **فَقَالَتْ لَهُ**: وَيْلَكَ! إِنَّما قَالَ: أَجْزِلْ لَهَا العَطَاءَ. ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَىٰ **الحَجَّاجِ، فَقَالَتْ**: كَادَ واللهِ يَقْطَعُ مِقْوَلِي.

٢٥٧ ـ فَكَذٰلِكَ **الظَّاهِرِيَّةُ**[3] الَّذِيْنَ لَمْ يُسَلِّمُوْا بِالتَّسْلِيْمِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ قَرَأَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيْثَ وَلَمْ يَزِدْ؛ لَمْ أَلُمْهُ، وَهٰذِهِ طَرِيْقَةُ السَّلَفِ.

---

(١) **الطفر**: الوثب في ارتفاع.

(٢) كذا في الأصل، وهذا لا يعقل، إذ الخنساء ـ وهي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ـ قد توفيت سنة (٢٤هـ)، والحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق قد ولد سنة (٤٠هـ) أي بعد وفاتها بست عشرة سنة. والصواب أن التي مدحته هي ليلى الأخيلية، وهي ليلى بنت عبد الله بن الرحال من بني عامر بن صعصعة، كما في الأغاني (١١/١٦٧) وهي شاعرة فصيحة ذكية جميلة، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، وتوفيت سنة (٨٠هـ).

(٣) الظاهرية: سميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة، وإعراضها عن التأويل والرأي =

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: الحَدِيْثُ يَقْتَضِي كَذَا، وَيُحْمَلُ عَلَىٰ كَذَا؛ مِثْل أَنْ يَقُوْلَ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ بِذَاتِهِ، وَيَنْزِل إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيا بِذَاتِهِ؛ فهٰذه زِيَادَةٌ فَهِمَهَا قَائِلُها مِنَ الحِسِّ لَا مِنَ النَّقْلِ.

٢٥٨ - وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِرَجُلٍ أَنْدَلُسِيٍّ يُقَالُ لَهُ: **ابنُ عَبْدِ البَرِّ**[(١)]، صَنَّفَ كِتَابَ «**التَّمْهِيْدِ**»، فَذَكَرَ فِيْهِ حَدِيْثَ النُّزُوْلِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: هٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ؛ لأَنَّهُ لَوْلا ذٰلِكَ؛ لَمَا كَانَ لِقَوْلِهِ: «يَنْزِلُ» مَعْنًىٰ. وَهٰذَا كَلَامُ جَاهِلٍ[(٢)] بِمَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ؛ لأَنَّ هٰذا اسْتَسْلَفَ مِنْ حِسِّهِ مَا يَعْرِفُه مِنْ نُزُوْلِ الأَجْسَامِ، فَقَاسَ صِفَةَ الحَقِّ عَلَيْهِ[(٣)]. فَأَيْنَ هٰؤلاءِ وَاتِّبَاعَ الأَثَرِ؟! وَلَقَدْ تَكَلَّمُوْا بِأَقْبَحِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ المُتَأَوِّلُوْنَ، ثُمَّ عَابُوا المُتَكَلِّمِيْنَ.

٢٥٩ - وَاعْلَمْ أَيُّهَا الطَّالِبُ للرَّشَادِ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ إِلَيْنَا مِنَ العَقْلِ وَالنَّقْلِ أَصْلَانِ رَاسِخَانِ، عَلَيْهِمَا أمرُ الأَحَادِيْثِ كُلِّها:

أَمَّا **النَّقْلُ**؛ فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وَمَنْ فَهِمَ هٰذَا؛ لَمْ يَحْمِلْ وَصْفًا لَهُ عَلَىٰ مَا يُوْجِبُهُ الحِسُّ.

وَأَمَّا **العَقْلُ**؛ فَإِنَّه قَدْ عَلِمَ مُبَايَنَةَ الصَّانِعِ لِلمَصْنُوْعَاتِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَىٰ حُدُوْثِهَا بِتَغَيُّرِهَا، وَدُخُوْلِ الانْفِعَالِ عَلَيْهَا، فَثَبَتَ لَهُ قِدَمُ الصَّانِعِ[(٤)].

٢٦٠ - وَاعَجَبًا كُلَّ العَجَبِ مِنْ رَادٍّ لَمْ يَفْهَمْ طَبِيْعَةَ الكَلَامِ! أَلَيْسَ فِي الحَدِيْثِ

= والقياس، وإمامها هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان الملقب بالظاهري (٢٠١ - ٢٧٠هـ) ومن أئمة الظاهرية ابن حزم الأندلسي.

(١) يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، أبو عمرو، من كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ وأديب، ولد بقرطبة سنة (٣٦٨هـ)، وتوفي بشاطبة (٤٦٣هـ).

(٢) كلام العلماء في حق بعضهم بعضًا لا يلتفت إليه، ولا ينزل بمرتبتهم، ويسمّى عند العلماء كلام الأقران.

(٣) أثبت الله تعالى لنفسه النزول، وأثبت النزول للمخلوق، والفرق بين نزول الخالق ونزول المخلوق، كالفرق بين الخالق والمخلوق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(٤) صفات الله توقيفية، ولم يأت وصف الله تعالى بالقدم في شيء نصوص الكتاب والسنة.

الصَّحِيْحِ: «**أَنَّ المَوْتَ يُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ**»[1]؟! أَوَلَيْسَ العَقْلُ إِذَا اسْتُفْتِيَ فِيْ هٰذَا؛ صَرَفَ الأَمْرَ عَنْ حَقِيْقَتِهِ؛ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُ مَاهِيَّةَ المَوْتِ، فَقَالَ: المَوْتُ عَرَضٌ يُوْجِبُ بُطْلَانَ الحَيَاةِ؛ فَكَيْفَ يُمَاتُ المَوْتُ؟! فَإِذَا قِيْلَ لَهُ: فَمَا تَصْنَعُ بِالحَدِيْثِ؟! قَالَ: هٰذا ضُرِبَ مَثَلًا بِإِقَامَةِ صُوْرَةٍ؛ لِيُعْلَمَ بِتِلْكَ الصُّوْرَةِ الحِسِّيَّةِ فَوَاتُ ذٰلِكَ المَعْنَىٰ.

قُلْنَا لَهُ: فَقَدْ رُوِيَ فِي (الصَّحِيْحِ): «**تَأْتِي البَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ**»[2].

فَقَالَ: الكَلَامُ لا يَكُوْنُ غَمَامَةً، ولا يَتَشَبَّه بِهَا. **قُلْنَا لَهُ**: أفتُعَطِّلُ النَّقْلَ؟! **قَالَ**: لا، وَلٰكِنْ يَأْتِيْ ثَوَابُهُمَا. **قُلْنَا**: فَمَا الدَّلِيلُ الصَّارِفُ لَكَ عَنْ هٰذِهِ الحَقَائِقِ. **فَقَالَ**: عِلْمِي بِأَنَّ الكَلَامَ لَا يَتَشَبَّهُ بِالأَجْسَامِ، والمَوْتَ لا يُذْبَحُ ذَبْحَ الأَنْعَامِ، [وَلَوْ][3] عَلِمْتُمْ سَعَةَ لُغَةِ العَرَبِ، مَا ضَاقَتْ أَعْطَانُكُمْ[4] مِنْ سَمَاعِ مِثْلِ هٰذا.

فَقَالَ العُلَمَاءُ: صَدَقْتَ، هكذَا نَقُوْلُ فِيْ تَفْسِيْرِ مَجِيْءِ البَقَرَةِ، وَفِي ذَبْحِ المَوْتِ.

فَقَالَ: وَا عَجَبًا لَكُمْ! صَرَفْتُمْ عَنِ المَوْتِ وَالكَلَامِ مَا لا يَلِيْقُ بِهِمَا حِفْظًا لِمَا عَلِمْتُمْ مِنْ حَقَائِقِهِمَا؛ فَكَيْفَ لَمْ تَصْرِفُوا عَنِ الإِلٰهِ القَدِيْمِ مَا يُوْجِبُ التَّشْبِيْهَ لَهُ بِخَلْقِهِ بِمَا قَدْ دَلَّ الدَّلِيْلُ عَلَىٰ تَنْزِيْهِهِ عَنْهُ[5]؟!

فَمَا زَالَ يُجَادِلُ الخُصُوْمَ بِهٰذِهِ الأَدِلَّةِ، وَيَقُوْلُ: لَا أَقْطَعُ حَتَّىٰ أُقْطَعَ. فَمَا قَطَعَ حَتَّىٰ قُطِعَ[6].

٥٠ - فصل: لطف الله تعالى بعباده

٢٦١ ـ تَفَكَّرْتُ فِيْ السِّرِّ الَّذِي أَوْجَبَ حَذْفَ آيَةِ الرَّجْمِ مِنَ القُرْآنِ[7] لَفْظًا مَعَ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وانظر في معنى الذبح فتح الباري (١١/ ٤٣٠).

(٢) رواه مسلم (٨٠٤ و٨٠٥) عن أبي أمامة والنواس ﷺ.

(٣) في الأصل: ولقد.

(٤) **أعطانكم**: صدوركم.

(٥) انظر في مسألة الصفات كتاب (الأسماء والصفات نقلًا وعقلًا) للعلامة المفسّر محمد الأمين الجكني الشنقيطي، فقد حرر المسألة وكشف الشبهات وحلّ المشكلات بأيسر كلام وأوضحه.

(٦) أي: لا أتوقف عن الخوض في هذه المسألة حتى تقام عليّ حجة قاطعة دامغة.

(٧) عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، =

ثُبُوْتِ حُكْمِهَا إِجْمَاعًا؟! فَوَجَدْتُ لِذٰلِكَ مَعْنَيَيْنِ[1]:

أَحَدُهُمَا: لُطْفُ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِيْ أَنَّه لا يُوَاجِهُهُمْ بِأَعْظَمِ المَشَاقِّ، بَلْ ذَكَرَ الجَلْدَ، وسَتَرَ الرَّجْمَ.

وَمِنْ هٰذا المَعْنَىٰ قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ فِيْ المَكْرُوْهَاتِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ عَلَىٰ لفظٍ لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَ أَنَّه هُوَ الكَاتِبُ. فَلَمَّا جَاءَ إِلَىٰ مَا يُوْجِبُ الرَّاحَةَ؛ قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّه يُبَيِّنُ بِذٰلِكَ فَضْلَ الأُمَّةِ فِيْ بَذْلِهَا النُّفُوْسَ قُنُوعًا بِبَعْضِ الأَدِلَّةِ؛ فَإِنَّ الاتِّفَاقَ لَمَّا وَقَعَ عَلَىٰ ذٰلِكَ الحُكْمِ؛ كَانَ دَلِيْلًا، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ كَالدَّلِيْلِ المَقْطُوْعِ بِنَصِّهِ.

وَمِنْ هٰذا الجِنْسِ شُرُوعُ الخَلِيْلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيْ ذَبْحِ وَلَدِهِ بِمَنَامٍ، وَإِنْ كَانَ الوَحْيُ فِي اليَقْظَةِ آكَدَ.

٥١ - فصل: الأمور منوطة بالأسباب

٢٦٢ - عَرَضَتْ لِيْ حَالَةٌ لَجَأْتُ فِيْهَا بِقَلْبِي إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ؛ عَالِمًا بِأَنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ جَلْبِ نَفْعِيْ، ودَفْعِ ضُرِّي سِوَاهُ، ثُمَّ قُمْتُ أَتَعَرَّضُ بِالأَسْبَابِ. فَأَنْكَرَ عَلَيَّ يَقِيْنِي، **وَقَالَ**: هٰذا قَدْحٌ فِي التَّوَكُّلِ! **فَقُلْتُ**: لَيْسَ كَذٰلِكَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَضَعَهَا[2] مِنَ الحِكَمِ، وَكَانَ مَعْنَىٰ حَالِي: أَنَّ مَا وَضَعْتَ لا يُفِيدُ، وأَنَّ وُجُوْدَهُ كَالعَدَمِ!

٢٦٣ - وَمَا زَالَتِ الأَسْبَابُ فِي الشَّرْعِ: كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ

= فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن؛ من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف، رواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

(١) بل هناك معانٍ أخرى، انظر: الفتح (٤٣٨٢).

(٢) أي: الأسباب. وفي الأصل: وضع.

لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧]. وَقَدْ **ظَاهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَشَاوَرَ طَبِيْبَيْنِ،** وَلَمَّا خَرَجَ إِلَىٰ **الطَّائِفِ**؛ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ دُخُوْلِ مَكَّةَ، حَتَّىٰ بَعَثَ إِلَىٰ المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ: «**أَدْخُلُ فِي جُوَارِكَ**»؛ وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَدْخُلَ مُتَوَكِّلًا بِلا سَبَبٍ.

٢٦٤ - فَإِذَا جَعَلَ الشَّرْعُ الأُمُوْرَ مَنُوْطَةً بِالأَسْبَابِ؛ كَانَ إِعْرَاضِي عَنِ الأَسْبَابِ دَفْعًا لِلْحِكْمَةِ، وَلِهٰذَا أَرَىٰ أَنَّ التَّدَاوِيَ مَنْدُوْبٌ إِلَيْهِ، وَقَدْ ذَهَبَ صَاحِبُ مَذْهَبِي[١] إِلَىٰ أَنَّ تَرْكَ التَّدَاوِي أَفْضَلُ، وَمَنَعَنِي الدَّلِيلُ مِن اتِّبَاعِهِ فِيْ هٰذا: فَإِنَّ الحَدِيْثَ الصَّحِيْحَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً؛ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً؛ فَتَدَاوَوْا**»[٢]، وَمَرْتَبَةُ هٰذِهِ اللَّفْظَةِ الأَمْرُ، وَالأَمْرُ إِمّا أَنْ يَكُوْنَ وَاجِبًا، أَوْ نَدْبًا، [إن][٣] لم يَسْبِقْهُ حَظْرٌ؛ [فَإِنْ سَبَقَهُ حَظْرٌ][٤] فَيُقَالُ: هُوَ أَمرُ إِبَاحَةٍ[٥]. وَكَانَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَقُوْلُ: **تَعَلَّمْتُ الطِبَّ مِنْ كَثْرَةِ أَمْرَاضِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَمَا يُنْعَتُ لَهُ**[٦]. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «**كُلْ مِنْ هٰذا؛ فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ مِنْ هٰذا**»[٧].

٢٦٥ - وَمَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ تَرْكَهُ أَفْضَلُ؛ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُوْنَ أَلْفًا بِلَا حِسَابٍ**»، ثُمَّ وَصَفَهُم فَقَالَ: «**لَا يَكْتَوُوْنَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُوْنَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُوْنَ**»[٨]. وَهذَا لا يُنَافِي التَّدَاوِيَ؛ لأَنَّهُ قَدْ كَانَ أَقْوَامٌ يَكْتَوُوْنَ لِئَلَّا يَمْرَضُوْا، وَيَسْتَرْقُوْنَ لِئَلَّا تُصِيْبَهُمْ نَكْبَةٌ، وَقَدْ كَوَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ**[٩]، وَرَخَّصَ فِي الرُّقْيَةِ فِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ[١٠]، فَعَلِمْنَا أَنَّ المُرَادَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ.

---

(١) أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.
(٢) رواه البخاري (٥٦٧٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) في الأصل: ولم.
(٤) زيادة ليستقيم بها الكلام.
(٥) إن الأمر بعد النهي يفيد الإباحة، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ وقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها» نسخ النهي، فرجع الحكم إلى الإباحة.
(٦) رواه أحمد (٦٧١٦)، وأبو نعيم (٢/ ٤٩)، والحاكم (٤/ ١١).
(٧) رواه أبو داود (٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٤٢) عن أم المنذر الأنصارية رضي الله عنها.
(٨) رواه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٩) رواه الترمذي (٢٠٥٠)، وابن ماجه (٣٤٩٢)، وأحمد (٤/ ٦٥)، و(٥/ ٣٦٧٨). **قلت**: وقد وقع في الأصل سعد بن زرارة. وهو خطأ.
(١٠) رواه البخاري (٥٧٤١)، ومسلم (٢١٩٣) عن عائشة رضي الله عنها، انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٣).

٢٦٦ ـ وَإِذَا عَرَفْتُ الحَاجَةَ إِلَىٰ إِسْهَالِ الطَّبْعِ؛ رَأَيْتُ أَنَّ أَكْلَ البَلُّوطِ مِمَّا يَمْنَعُ عَنْهُ عِلْمِي، وَشُرْبُ مَاءِ التَّمْرِ هِنْدِي أَوْفَقُ، وهٰذا طِبٌّ؛ فَإِذَا لَمْ أَشْرَبْ مَا يُوَافِقُنِي، ثُمَّ قُلْتُ: اللّٰهُمَّ! عَافِنِي! قَالَتْ لِيَ الحِكْمَةُ: أَمَا سَمِعْتَ: «**اعْقِلْها وَتَوَكَّلْ**»[1]؟! اشْرَبْ! وَقُلْ: عَافِنِي! وَلا تَكُنْ كَمَنْ بَيْنَ زَرْعِهِ وَبَيْنَ النَّهْرِ كَفٌّ مِنْ تُرَابٍ، تَكَاسَلَ أَنْ يَرْفَعَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي صَلَاةَ الاسْتِسْقَاءِ!

٢٦٧ ـ وَمَا هٰذِهِ الحَالَةُ إِلَّا كَحَالِ مَنْ سَافَرَ عَلَىٰ التَّجْرِيدِ[2]، وإِنَّمَا سَافَرَ عَلَىٰ التَّجْرِيدِ، لأَنَّهُ يُجَرِّبُ رَبَّه[3] ﷻ؛ هَلْ يَرْزُقُهُ أَوْ لَا؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ الأَمْرُ إِلَيْهِ: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ [البقرة: ١٩٧]، فَقَالَ: لَا أَتَزَوَّدُ! فَهذَا هَالِكٌ قَبْلَ أَنْ يُهْلِكَه، وَلَوْ جَاءَ وَقْتُ صَلاةٍ وَلَيْسَ مَعَهُ مَاءٌ؛ لِيْمَ عَلَىٰ تَفْرِيطِهِ، وَقِيْلَ لَهُ: هَلَّا اسْتَصْحَبْتَ المَاءَ قَبْلَ المَفَازَةِ!

٢٦٨ ـ فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ أَفْعَالِ أَقْوَامٍ دَقَّقُوْا، فَمَرَقُوْا[4] عَنِ الأَوْضَاعِ الدِّيْنِيَّةِ، وَظَنُّوْا أَنَّ كَمَالَ الدِّيْنِ بِالخُرُوْجِ عَنِ الطِّبَاعِ، وَالمُخَالَفَةِ لِلأَوْضَاعِ، وَلَوْلَا قُوَّةُ العِلْمِ وَالرُّسُوْخُ فيه؛ لَمَا قَدِرْتُ عَلَىٰ شَرْحِ هذَا وَلَا عَرَفْتُهُ. فَافْهَمْ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْ كَرَارِيْسَ تَسْمَعُهَا، وَكُنْ مَعَ أَهْلِ المَعَانِي لا مَعَ أَهْلِ الحَشْوِ.

٥٢ - فصل: أمر المؤمن بالتنظف

٢٦٩ ـ **تَلَمَّحْتُ** عَلَىٰ خُلُقٍ كَثِيْرٍ مِنَ النّاسِ إِهْمَالَ أَبْدَانِهِمْ؛ **فَمِنْهُمْ** مَنْ لَا يُنَظِّفُ فَمَهُ بِالخِلَالِ[5] بَعْدَ الأَكْلِ، **وَمِنْهُمْ** مَنْ لا يُنَقِّي يَدَيْهِ فِيْ غَسْلِهِمَا مِنَ الزَّهَمِ[6]، **وَمِنْهُمْ** مَنْ لا يَكَادُ يَسْتَاكُ، **وَفِيْهِمْ** مَنْ لا يَكْتَحِلُ، **وَفِيْهِمْ** مَنْ لا يُرَاعِي الإِبطَ... إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ، فَيَعُوْدُ هٰذا الإِهْمَالُ بِالخَلَلِ فِي الدِّيْنِ والدُّنيا.

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٦٢٣)، وابن حبان (٧٣١)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٦): رواه الطبراني من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح، غير يعقوب بن عبد الله بن عمرو بن أمية، وهو ثقة.

(٢) أي: بلا زاد ولا رفقة، وفي الأصل التجربة وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: (بربه).

(٤) **مرقوا**: خرجوا.

(٥) **الخلال**: أعواد يُنظف بها ما بين الأسنان.

(٦) **الزهم**: الدسم.

٢٧٠ ـ أمّا **الدِّيْنُ**؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَ المُؤْمِنَ بِالتَّنَظُّفِ، والاغْتِسَالِ لِلْجُمُعَةِ، لأَجْلِ اجْتِمَاعِهِ بالنَّاسِ، **وَنَهَىٰ عَنْ دُخُوْلِ المَسْجِدِ إِذَا أَكَلَ الثُّومَ**[١]، **وَأَمَرَ الشَّرْعُ بِتَنْقِيَةِ البَرَاجِمِ**[٢]، **وَقَصِّ الأَظْفَارِ، والسِّوَاكِ**[٣]، **والاسْتِحْدَادِ**[٤]... وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الآدَابِ؛ فَإِذَا أُهْمِلَ ذٰلِكَ؛ تُرِكَ مَسْنُوْنُ الشَّرْعِ، وَرُبَّمَا تَعَدَّىٰ بَعْضُ ذٰلِكَ إِلَىٰ فَسَادِ العِبَادَةِ؛ مثل أَنْ يُهْمِلَ أَظْفَارَهُ، فَيَجْمَعَ تَحْتَهُ الوَسَخَ المَانِعَ لِلْمَاءِ في الوُضُوْءِ أَنْ يَصِلَ.

٢٧١ ـ وَأَمّا **الدُّنيا**؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ المُهْمِلِيْنَ أَنْفُسَهُم يَتَقَدَّمُوْنَ إِلَىٰ السِّرَارِ[٥]، وَالغَفْلَةُ الّتِي أَوْجَبَتْ إِهْمَالَهُمْ أَنْفسَهُمْ أَوْجَبَتْ جَهْلَهُم بِالأَذَىٰ الحَادِثِ عَنْهُمْ؛ فَإِذَا أَخَذُوا فِي مُنَاجَاةِ السِّرِّ؛ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ أصدِفَ[٦] عَنْهُمْ؛ لأَنَّهُمْ يَقْصِدُوْنَ السِّرَّ، فَأَلْقَىٰ الشَّدَائِدَ مِنْ رِيْحِ أَفْوَاهِهِم، وَلَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَقْتِ انْتِبَاهِهِم مَا أَمرَّ إِصْبَعَه عَلَىٰ أَسْنَانِهِ!!

ثُمَّ يُوْجِبُ مِثْلُ هٰذا نُفُوْرَ المَرْأَةِ، وَقَدْ لَا تَسْتَحْسِنُ ذِكْرَ ذٰلِكَ للرَّجُلِ، فَيُثْمِرُ ذٰلِكَ التِفَاتَهَا عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ ابنُ عَبّاسٍ ﷺ يَقُولُ: إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي.

٢٧٢ ـ وَفِيْ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ: هٰذا تَصَنُّعٌ! وَلَيْسَ بِشَيْءٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ زَيَّنَنَا لَمَّا خَلَقَنا؛ لأَنَّ لِلْعَيْنِ حَظًّا فِيَ النَّظَرِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ أَهْدَابَ العَيْنِ وَالحَاجِبَيْنِ وَحُسْنَ تَرْتِيْبِ الخِلْقَةِ؛ عَلِمَ أَنَّ اللهَ زَيَّنَ الآدَمِيَّ.

٢٧٣ ـ وَقَدْ **كَانَ النَبِيُّ ﷺ أَنْظَفَ النَّاسِ، وَأَطْيَبَ النّاسِ**[٧]. وَفِي الحَدِيْثِ عَنْهُ ﷺ: **يرفَعُ يَدَيْهِ حَتَّىٰ تَبَيَّنَ عَفْرَةُ إِبْطَيْهِ**[٨]. **وَكَانَ سَاقُهُ رُبَّمَا انْكَشَفَتْ، فَكَأَنَّهَا**

---

(١) البخاري (٨٥٢ ـ ٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤) عن جابر ﷺ.

(٢) **البراجم**، جمع برجمة، وهي المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع.

(٣) رواه البخاري (٨٧٨)، ومسلم (٢٥٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»، رواه مسلم عن عائشة ﷺ، قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون: «المضمضة والاستحداد وحلق العانة».

(٥) **السرار**: المناجاة.

(٦) **صدف عن الشيء**: أعرض عنه.

(٧) رواه ابن سعد كما في صحيح الجامع (٤٩٨٨).

(٨) **عفرة إبطيه**: بياضهما.

جُمَّارةٌ[١] . **وَكَانَ لَا يُفَارِقُه السِّوَاكُ**[٢] ، **وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُشَمَّ مِنْهُ رِيْحٌ لَيْسَتْ طيبةٌ**[٣] .
وَفِي حَدِيْثِ أَنَسٍ الصَّحِيْحِ : **مَا شَانَهُ اللهُ بِبَيْضَاءَ**[٤] .

وَقَدْ قَالَتِ الحُكَمَاءُ : مَنْ نَظَّفَ ثَوْبَه ؛ قَلَّ هَمُّهُ ، وَمَنْ طَابَ رِيْحُهُ ؛ زَادَ عَقْلُهُ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ لأَصْحَابِهِ : «**مَا لَكُمْ تَدْخُلُوْنَ عَلَيَّ قُلْحًا؟! اسْتَاكُوْا**»[٥] . **وَقَدْ فُضِّلَتِ الصَّلَاةُ بِالسِّوَاكِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ بِغَيْرِ سِوَاكٍ**[٦] .

٢٧٤ ـ فَالْمُتَنَظِّفُ يُنَعِّمُ نَفْسَه ، وَيَرْفَعُ مِنْهَا قذرهَا[٧] . وَقَدْ قَالَ الحُكَمَاءُ : مَنْ طَالَ ظُفُرُهُ ؛ قَصُرَتْ يَدُه .

٢٧٥ ـ ثُمَّ إِنّه يَقْرُبُ مِنْ قُلُوْبِ الخَلْقِ ، وَتُحِبُّه النُّفُوْسُ ؛ لِنَظَافَتِهِ وَطِيْبِهِ . وَقَدْ **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ الطِّيْبَ**[٨] .

٢٧٦ ـ ثُمَّ إِنَّه يُؤْنِسُ الزَّوْجَةَ بِتِلْكَ الحَالِ ؛ فَإِنَّ **النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**[٩] ؛ فَكَمَا أَنَّهُ يَكْرَهُ الشَّيْءَ مِنْهَا ؛ فَكَذٰلِكَ هِيَ تَكْرَهُهُ ، ورُبَّمَا صَبَرَ هُوَ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ ، وَهِيَ لا تَصْبِرُ .

٢٧٧ ـ وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً يَزْعُمُوْنَ أَنَّهُمْ زهَّادٌ ، وَهُمْ مِنْ أَقْذَرِ النَّاسِ ، وَذٰلكَ أَنَّهُمْ مَا قوَّمهُمُ العِلْمُ .

٢٧٨ ـ وَأَمّا مَا يُحْكَىٰ عَنْ **دَاوُدَ الطَّائِيِّ**[١٠] : **أَنَّهُ قِيْلَ لَهُ** : لَوْ سَرَّحْتَ لِحْيَتَكَ؟

---

(١) **جمارة النخل**: باطن جذعها، يشير بذلك إلى بياض ساقيه ونظافتهما.
(٢) رواه مسلم (٢٥٣). (٣) رواه مسلم (٥٦٥).
(٤) رواه مسلم (٢٣٤١).
(٥) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٢٦): رواه أحمد والطبراني في الكبير واللفظ له، وفيه أبو علي الصيقل، وهو مجهول، (ضعيف). **والقلح**: صفرة الأسنان.
(٦) في هامش الأصل: في المصرية: «عبدها» كذا بمهملة، وفي الأحمدية: «عندها» وفي الهندية: عدتها، وليحرر. قلت: وما أثبته فمن (أ).
(٧) رواه أحمد (٦/ ٢٧٢)، وأبو يعلى (٤٧٣٨)، والحاكم (١/ ١٤٦) وصححه ووافقه الذهبي.
(٨) رواه أبو داود والحاكم عن عائشة رضي الله عنها. (٩) رواه أبو داود والترمذي وأحمد.
(١٠) داود بن نصير الطائي، أبو سليمان، من العباد الزهاد، أصله من خراسان، مولده في الكوفة رحل إلى بغداد، وأخذ عن أبي حنيفة، وعاد إلى الكوفة، ولزم العبادة إلى أن توفي سنة (١٦٥هـ).

فَقَالَ: إِنِّي عَنْهَا مَشْغُوْلٌ. فَهذَا قَوْلُ مُعْتَذِرٍ عَنِ العَمَلِ بِالسُّنَّةِ، وَالإِخْبَارُ عَنْ غَيْبَتِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِشدَّةِ خَوْفِهِ مِنَ الآخِرَةِ، وَلَوْ كَانَ مُفِيْقًا لذٰلِكَ؛ لَمْ يَتْرُكْهُ؛ فَلا **يُحْتَجُّ بِحَالِ المَغْلُوْبِيْنَ**.

٢٧٩ ـ **وَمَنْ تَأَمَّلَ خَصَائِصَ الرَّسُوْلِ ﷺ؛ رَأَىٰ كَامِلًا فِيْ العِلْمِ وَالعَمَلِ؛ فَبِهِ يَكُوْنُ الاقْتِدَاءُ، وَهُوَ الحُجَّةُ عَلىٰ الخَلْقِ**.

٥٣ - فصل: خلق الله الحَرَّ والبرد لمصالح البدن

٢٨٠ ـ **تَأَمَّلْتُ** مُبَالَغَةَ أَرْبَابِ الدُّنيا فِي اتِّقَاءِ الحَرِّ وَالبَرْدِ، فَرَأَيْتُهَا تَعْكِسُ المَقْصُوْدَ فِي بَابِ الحِكْمَةِ، وَإِنَّمَا تُحَصِّلُ مُجَرَّدَ لَذَّةٍ، ولا خَيْرَ فِيْ لَذَّةٍ تُعْقِبُ أَلَمًا.

٢٨١ ـ فَأَمّا [فِي] **الحَرِّ**؛ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُوْنَ المَاءَ المَثْلُوْجَ، وَذٰلِكَ علىٰ غَايةٍ في الضَّررِ، وأَهْلُ الطِّبِّ يَقُوْلُوْنَ: إِنّه يُحْدِثُ أَمْراضًا صَعْبَةً، يَظْهَرُ أَثَرُها في وَقْتِ الشَّيْخُوْخَةِ، وَيَضَعونَ الخُيُوْشَ المَضَاعَفَةَ. وَفِي البَرْدِ يَصْنَعونَ **اللُّبُوْدَ** المَانِعَةَ لِلْبَرْدِ.

٢٨٢ ـ وَهٰذا مِنْ حَيْثُ الحِكْمَةُ يُضَادُّ مَا وَضَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ الحَرَّ لِتَحَلُّلِ الأَخْلَاطِ، وَالبَرْدَ لِجُمُوْدِهَا، فَيَجْعَلُوْنَ هُمْ جَمِيْعَ السَّنَةِ رَبِيْعًا، فَتَنْعَكِسُ الحِكْمَةُ الّتِي وُضِعَ الحَرُّ والبَرْدُ لَهَا، وَيَرْجِعُ الأَذَىٰ عَلَىٰ الأَبْدَانِ.

٢٨٣ ـ وَلَا يَظُنَّنَّ سَامِعُ هٰذا أَنِّي آمُرُهُ بِمُلَاقَاةِ الحَرِّ والبَرْدِ. وَإِنَّمَا أَقُوْلُ لَهُ: لَا يُفْرِطْ فِي التَّوَقِّي، بَلْ يَتَعَرَّضْ فِي الحَرِّ لِمَا يُحَلِّلُ بَعْضَ الأَخْلَاطِ إِلَىٰ حَدٍّ لا يُؤَثِّرُ فِي القُوَّةِ، وَفِي البَرْدِ بِأَنْ يُصِيْبَكَ مِنْهُ الأَمْرُ القَرِيْبُ لا المُؤْذِي؛ فَإِنَّ الحَرَّ والبَرْدَ لِمَصَالِحِ البَدَنِ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الأُمَرَاءِ يَصُوْنُ نَفْسَهُ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ أَصْلًا، فزاد جوفه[1] فَمَاتَ عَاجِلًا، وَقَدْ ذَكَرْتُ قِصَّتَه فِي كِتَابِ (لَقَطِ المَنَافِعِ فِيْ عِلْمِ الطِّبِّ).

---

(١) في حاشية الأصل: كذا في الأحمدية والهندية، وفي المصرية: فبرد الحر. وفي هامش (أ): في بعض النسخ: «فتغيّرت حالتُه».

٥٤ - فصل: الصبر على القضاء وما يعين عليه

٢٨٤ ـ لَيْسَ فِي التَّكْلِيْفِ أَصْعَبُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ القَضَاءِ، وَلا فِيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الرِّضَا بِهِ. فَأَمّا **الصَّبْرُ**؛ فَهُوَ فَرْضٌ، وَأَمّا **الرِّضا**؛ فَهُوَ فَضْلٌ.

٢٨٥ ـ وَإِنَّمَا صَعُبَ الصَّبْرُ؛ لأَنَّ القَدَرَ يَجْرِي فِي الأَغْلَبِ بِمَكْرُوْهِ النَّفْسِ، وَلَيْسَ مَكْرُوْهُ النَّفْسِ يَقِفُ علىٰ المَرَضِ وَالأَذَىٰ فِي البَدَنِ؛ بَلْ هُوَ يَتَنَوَّعُ، حَتَّىٰ يَتَحَيَّرَ العَقْلُ فِيْ حِكْمَةِ جَرَيَانِ القَدَرِ.

٢٨٦ ـ فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ مَغْمُوْرًا بِالدُّنيا؛ قَدْ سَالَتْ لَهُ أَوْدِيَتُهَا[1]، حَتَّىٰ لا يَدْرِيْ مَا يَصْنَعُ بِالمَالِ؛ فَهُوَ يَصُوْغُهُ أَوَانِيَ يَسْتَعْمِلُهَا، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ البِلَّوْرَ وَالعَقِيْقَ وَالشَّبَهَ قَدْ يَكُوْنُ أَحْسَنَ مِنْهَا صُوْرَةً؛ غَيْرَ أَنَّ قِلَّةَ مُبَالاتِهِ بِالشَّرِيْعَةِ جَعَلَتْ عِنْدَهُ وُجُوْدَ النَّهْيِ كَعَدَمِهِ! وَيَلْبَسُ الحَرِيْرَ، وَيَظْلِمُ النَّاسَ، وَالدُّنيا مُنْصَبَّةٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَرَىٰ خَلْقًا مِنْ أَهْلِ الدِّيْنِ وَطُلَّابِ العِلْمِ؛ مَغْمُوْرِيْنَ بِالفَقْرِ وَالبَلاءِ، مَقْهُوْرِيْنَ تَحْتَ وِلَايَةِ ذٰلِكَ الظَّالِمِ: فَحِيْنَئِذٍ يَجِدُ الشَّيْطَانُ طَرِيْقًا للوَسْوَاسِ، وَيَبْتَدِئُ بِالقَدْحِ فِي حِكْمَةِ القَدَرِ؛ فَيَحْتَاجُ المُؤْمِنُ إِلَىٰ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يَلْقَىٰ مِنَ ضُرٍّ في الدُّنيا، وَعَلَىٰ جِدَالِ إِبْلِيْسَ فِي ذٰلِكَ.

٢٨٧ ـ وَكَذٰلِكَ فِي تَسْلِيْطِ الكُفَّارِ عَلَىٰ المُسْلِمِيْنَ وَالفُسَّاقِ عَلَىٰ أَهْلِ الدِّيْنِ. وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذا إِيْلَامُ الحَيَوَانِ، وَتَعْذِيْبُ الأَطْفَالِ. **فَفِي مِثْلِ هٰذِهِ المَوَاطِنِ يَتَمَحَّضُ الإِيْمَانُ.**

٢٨٨ ـ وَمِمّا يُقَوِّي الصَّبْرَ عَلَىٰ الحَالَتَيْنِ: **النَّقْلُ، وَالْعَقْلُ**: أَمّا **النَّقْلُ**؛ **فَالقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ.**

٢٨٩ ـ أما **القرآنُ**؛ فَمُنْقَسِمٌ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: **بَيَانُ سَبَبِ إِعْطَاءِ الكَافِرِ وَالعَاصِي**، فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا**﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿**وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن**

---

(١) أي: فتحت له أبواب الرزق.

يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]... وفي القرآنِ من هٰذا كثيرٌ.

والقسم الثاني: **ابْتِلَاءُ المُؤْمِنِ بِمَا يَلْقَىٰ**، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]... وفي القُرْآنِ مِنْ هٰذا كَثِيْرٌ.

٢٩٠ ـ وَأَمّا **السُّنَّةُ**؛ فَمُنْقَسِمَةٌ إِلَىٰ **قَوْلٍ وَحَالٍ**:

أَمّا **الحَالُ**؛ فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ رِمَالِ حَصِيْرٍ تُؤَثِّرُ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَىٰ عُمَرُ رضي الله عنه، وَقَالَ: كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِي الحَرِيْرِ وَالدِّيْباج! فَقَالَ ﷺ: **«أَفِيْ شَكٍّ أَنْتَ يَا عُمَرُ؟! أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُوْنَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنيا؟!»**[(١)]

وَأَمّا **القَوْلُ**؛ فَكَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تُسَاوِيْ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ؛ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**[(٢)]

٢٩١ ـ وَأَمّا **العَقْلُ**؛ فَإِنَّهُ يُقَوِّي عَسَاكِرَ الصَّبْرِ بِجُنُودٍ مِنْهَا: أَنْ يَقُوْلَ: قَد ثَبَتَتْ عِنْدِي الأَدِلَّةُ القَاطِعَةُ عَلَىٰ حِكْمَةِ المُقَدِّرِ؛ فَلا أَتْرُكُ الأَصْلَ الثَابِتَ لِمَا يَظُنُّه الجَاهِلُ خَلَلًا.

٢٩٢ ـ وَمِنْهَا: أَنْ يَقُوْلَ: مَا قَدِ اسْتَهْوَلْتَهُ أَيُّهَا النَّاظِرُ مِنْ بَسْطِ يَدِ العَاصِي هِيَ قَبْضٌ فِيْ المَعْنَىٰ، وَمَا قَدْ أَثَّرَ عِنْدَكَ مِنْ قَبْضِ يَدِ الطَّائِعِ بَسْطٌ في المَعْنَىٰ؛ لأَنّ ذٰلك البَسْطَ[(٣)] يُوْجِبُ عِقَابًا طَوِيْلًا، وهٰذا القَبْضُ[(٤)] يُؤَثِّرُ انْبِسَاطًا فِي الأَجْرِ جَزِيْلًا؛ فَزَمَانُ الرَّجُلَيْنِ يَنْقَضِي عَنْ قَرِيْبٍ، وَالمَرَاحِلُ تُطْوَىٰ، وَالرُّكبانُ فِي [السَّيْرِ][(٥)] الحثيثِ.

٢٩٣ ـ وَمِنْهَا: أَنْ يَقُوْلَ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ المُؤْمِنَ بِاللهِ كَالأَجِيْرِ، وَأَنَّ زَمَنَ التَّكْلِيْفِ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٨) عن عمر رضي الله عنه.
(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٣) **البسط**: العطاء.
(٤) **القبض**: المنع أو السلب.
(٥) زيادة من بعض النسخ المطبوعة.

كَبَيَاضِ نَهَارٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْتَعْمَلِ فِي الطِّيْنِ أَنْ يَلْبَسَ نَظِيْفَ الثِّيَابِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُصَابِرَ سَاعَاتِ العَمَلِ؛ فَإِذَا فَرَغَ؛ تَنَظَّفَ، وَلَبِسَ أَجْوَدَ ثِيَابِهِ؛ فَمَنْ تَرَفَّهَ وَقْتَ العَمَلِ؛ نَدِمَ وَقْتَ تَفْرِيقِ الأُجْرَةِ، وَعُوْقِبَ عَلَىٰ التَّوانِي[1] فِيْمَا كُلِّفَ.

٢٩٤ ـ فَهٰذِهِ النَّبْذَةُ تُقَوِّي أَزْرَ الصَّبْرِ، وَأَزِيْدُهَا بَسْطًا فَأَقُوْلُ: أَتَرَىٰ إِذَا أُرِيْدَ اتِّخَاذُ شُهَدَاءَ؛ فَكَيْفَ لَا يُخْلَقُ أَقْوَامٌ يَبْسُطُوْنَ أَيْدِيَهُمْ لِقَتْلِ المُؤْمِنِيْنَ؟! أَفَيَجُوْزُ أَنْ يَفْتِكَ بِعُمَرَ إِلَّا مِثْلُ أَبِي لُؤْلُؤَةَ[2]؟! وَبِعَلِيٍّ إِلَّا مِثْلُ ابنِ مُلْجِمٍ[3]؟! أَفَيَصِحُّ أَنْ يَقْتُلَ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيّا إِلَّا جَبَّارٌ كافِرٌ؟!

٢٩٥ ـ وَلَوْ أَنَّ عَيْنَ الفَهْمِ زَالَ عَنْهَا غِشَاءُ العَشَا؛ لَرَأَتِ المُسَبِّبَ لا الأَسْبَابَ، وَالمُقَدِّرَ لا الأَقْدَارَ، فَصَبَرَتْ عَلَىٰ بِلَائِهِ؛ إِيْثَارًا لِمَا يُرِيْدُ. وَمِنْ هاهُنَا يَنْشَأُ الرِّضَا؛ كَمَا قِيْلَ لِبَعْضِ أَهْلِ البَلاءِ: ٱدْعُ اللهَ بِالعَافِيَةِ! فَقَالَ: أَحَبُّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ!!

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي ... فَسَلَامُ اللهِ عَلَىٰ وَسَنِي[4]

٥٥ - فصل: الرضا بالقضاء وما يعين عليه

٢٩٦ ـ لَمَّا أَنْهَيْتُ كِتَابَةَ الفَصْلِ المُتَقَدِّمِ؛ هَتَفَ بي هَاتِفٌ مِنْ بَاطِنِي: دَعْنِي مِنْ شَرْحِ الصَّبرِ عَلَىٰ الأَقْدَارِ؛ فَإِنِّي قَدِ اكْتَفَيْتُ بِأُنْمُوْذَجِ مَا شَرَحْتَ! وَصِفْ حَالَ الرِّضا؛ فَإِنِّي أَجِدُ نَسِيْمًا مِنْ ذِكْرِهِ فِيْهِ رَوْحٌ للرُّوْحِ[5]!

فَقُلْتُ: أَيُّهَا الهَاتِفُ! اسْمَعِ الجَوَابَ! وَافْهَمِ الصَّوَابَ! **إِنَّ الرِّضَا مِنْ جُمْلَةِ ثَمَرَاتِ المَعْرِفَةِ؛ فَإِذَا عَرَفْتَهُ؛ رَضِيْتَ بِقَضَائِهِ.**

٢٩٧ ـ وَقَدْ يَجْرِيْ فِي ضِمْنِ القَضَاءِ مَرَارَاتٌ، يَجِدُ بَعْضَ طَعْمِهَا الرَّاضِي، أَمَّا العارِفُ؛ فَتَقِلُّ عِنْدَهُ المَرَارَةُ، لِقُوَّةِ حَلَاوَةِ المَعْرِفَةِ، فَإِذَا تَرَقَّىٰ بِالمَعْرِفَةِ إِلَىٰ المَحَبَّةِ؛ صَارَتْ مَرَارَةُ الأَقْدَارِ حَلَاوَةً. كَمَا قَالَ القَائِلُ:

---

(١) **التواني**: الضعف والفتور.

(٢) فيروز الفارسي المجوسي، قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي الخارجي، قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) **الوسن**: النوم الخفيف.

(٥) **روح للروح**: أي راحة للنفس.

عَـــذَابُـــهُ فِـــيْـــكَ عَـــذْبُ وَبُـــعْـــدُهُ فِـــيْـــكَ قُـــرْبُ
وَأَنْـــتَ عِـــنْـــدِيْ كَـــرُوْحِـــيْ بَـــلْ أَنْـــتَ مِـــنْـــهَـــا أَحَـــبُّ
حَـــسْـــبِـــيَ مِـــنَ الـــحُـــبِّ أَنِّـــي لِـــمَـــا تُـــحِـــبُّ أُحِـــبُّ

وَقَالَ بَعْضُ المُحِبِّيْنَ فِي هٰذا المَعْنَىٰ:

وَيَـقْـبُـحُ مِـنْ سِـوَاكَ الـفِـعْـلُ عِـنْـدِي فَـتَـفْـعَـلُـهُ فَـيَـحْـسُـنُ مِـنْـكَ ذَاكَـا

٢٩٨ ـ فَصَاحَ بيَ الهَاتِفُ: حَدِّثْني؛ بِمَاذا أَرْضَىٰ؟! قَدِّرْ أَنِّي أَرْضَىٰ في أَقْدَارِهِ بِالمَرَضِ وَالفَقْرِ؛ أَفَأَرْضَىٰ بِالكَسَلِ عَنْ خِدْمَتِهِ، والبُعْدِ عَنْ أَهْلِ مَحَبَّتِهِ؟! فَبيِّنْ لِيْ مَا الَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَ الرِّضَا ممَا لا يَدْخُلُ!

فَقُلْتُ لَهُ: نِعْمَ مَا سَأَلْتَ؛ فَاسْمَعِ الفَرْقَ سَمَاعَ مَنْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ: **ارْضَ بِمَا كَانَ مِنْهُ**، فَأَمَّا الكَسَلُ وَالتَّخَلُّفُ؛ فَذَاكَ مَنْسُوْبٌ إِلَيْكَ؛ فَلَا تَرْضَ بِهِ مِنْ فِعْلِكَ. وَكُنْ مُسْتَوْفِيًا حَقَّهُ عَلَيْكَ، مُنَاقِشًا نَفْسَكَ فِيْمَا يُقَرِّبُكَ مِنْهُ، غَيْرَ رَاضٍ مِنْهَا بِالتَّوَانِي فِي المُجَاهَدَةِ.

فَأَمَّا **مَا يَصْدُرُ مِنْ أَقْضِيَتِهِ المُجَرَّدَةِ، الَّتِي لا كَسْبَ لَكَ فِيْهَا؛ فَكُنْ رَاضِيًا بها؛** كَمَا قَالَتْ **رَابِعَةُ** رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا؛ وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهَا رَجُلٌ مِنَ العُبَّادِ يَلْتَقِطُ مِنْ مَزْبَلَةٍ فَيَأْكُلُ، فَقِيْلَ: هَلَّا سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ مِنْ غَيْرِ هذَا؟! **فَقَالَتْ**: إِنَّ الرَّاضِيْ لا يَتَخَيَّرُ، وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَ المَعْرِفَةِ؛ وَجَدَ فيهِ طَعْمَ المَحَبَّةِ، فَوَقَعَ الرِّضا عِنْدَهُ ضَرُوْرَةً.

٢٩٩ ـ فَيَنْبَغِي الاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ المَعْرِفَةِ بِالأَدِلَّةِ، ثُمَّ العَمَلُ بِمُقْتَضَىٰ المَعْرِفَةِ بِالجِدِّ في الخِدْمَةِ، لعَلَّ ذٰلِكَ يُوْرِثُ المَحَبَّةَ؛ فَقَدْ «قَالَ ﷻ: **لَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...**»[1]. فَذٰلِكَ الغِنَىٰ الأَكْبَرُ... وَوَا فَقْراهُ!

٥٦ - فصل: انشغال العلماء عن أمور المعاش

٣٠٠ ـ **رَأَيْتُ** جُمْهُوْرَ العُلَمَاءِ يَشْغَلُهُمْ طَلَبُهُمْ لِلْعِلْمِ فِيْ زَمَانِ الصِّبَا عَنِ

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المَعَاشِ، فَيَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ مَا لا بُدَّ مِنْهُ، فَلَا يَصِلُهُمْ مِنْ بَيْتِ المَالِ شَيْءٌ، وَلَا مِنْ صِلاتِ الإِخْوَانِ مَا يَكْفِي، فَيَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ بِالإِذْلَالِ! فَلَمْ أَرَ فِي ذٰلِكَ مِنَ الحِكْمَةِ إِلَّا سَبَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا: **قَمْعُ إِعْجَابِهِمْ بِهٰذَا الإِذْلَالِ**. وَالثَّانِي: **نَفْعُ أُولٰئِكَ بِثَوابِهِمْ**.

٣٠١ - ثُمَّ **أَمْعَنْتُ الفِكْرَ**، فَتَلَمَّحْتُ نُكْتَةً لَطِيْفَةً، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ الأَبِيَّةَ إِذَا رَأَتْ حَالَ الدُّنيا كذٰلِكَ؛ لَمْ تُساكِنْهَا بِالقَلْبِ، وَنَبَتْ[١] عَنْهَا بِالعَزْمِ، وَرَأَتْ أَقْرَبَ الأَشْيَاءِ شَبَهًا بِهَا مَزْبَلَةً عَلَيْهَا الكِلَابُ، أَوْ غَائِطًا[٢] يُؤْتَىٰ لِضَرُوْرَةٍ؛ فَإِذَا نَزَلَ المَوْتُ بِالرِّحْلَةِ عَنْ مِثْلِ هٰذِهِ الدَّارِ؛ لَمْ يَكُنْ لِلْقَلْبِ بِهَا مُتَعَلَّقٌ مُتَمَكِّنٌ، فَتَهُوْنُ حِيْنَئِذٍ.

٥٧ - فصل: الشرع فيه الرخصة وفيه العزيمة

٣٠٢ - مَا زَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ يُزْرُوْنَ[٣] عَلَىٰ كَثِيْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ إِذَا انْبَسَطُوْا فِي مُبَاحَاتٍ، وَالَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ هٰذا الجَهْلُ؛ فَلَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ فَضْلُ عِلْمٍ؛ مَا عَابُوْهُمْ، وَهٰذا، لأَنَّ الطِّبَاعَ لا تَتَسَاوَىٰ؛ فَرُبَّ شَخْصٍ يَصْلُحُ عَلىٰ خُشُوْنَةِ العَيْشِ، وآخَرُ لَا يَصْلُحُ عَلىٰ ذٰلِكَ، وَلَا يَجُوْزُ لأَحدٍ أَنْ يَحمِلَ غَيْرَهُ عَلىٰ مَا يُطِيقُهُ هُوَ؛ غَيْرَ أَنَّ لنا ضَابِطًا ـ هُوَ الشَّرْعُ ـ فِيْهِ الرُّخْصَةُ، وَفِيْهِ العَزِيْمَةُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلَامَ مَنْ حَصَرَ نَفْسَهُ فِيْ ذٰلِكَ الضَّابِطِ، وَرُبَّ رُخْصَةٍ كَانَتْ أَفْضَلَ مِنْ عَزائِمَ لِتَأْثِيْرِ نَفْعِهَا.

٣٠٣ - وَلَوْ عَلِمَ المُتَزَهِّدُوْنَ أَنَّ العِلْمَ يُوْجِبُ المَعْرِفَةَ بِاللهِ تَعَالَىٰ، فَتَنْبَتُّ[٤] القُلُوْبُ مِنْ خَوْفِهِ، وَتَنْحَلُّ الأَجْسَامُ لِلْحَذَرِ مِنْهُ، فَوَجَبَ التَّلَطُّفُ بِالأَجْسَامِ حِفْظًا لِقُوَّةِ الرَّاحِلَةِ، وَلأَنَّ آلَةَ العِلْمَ وَالحِفْظِ القَلْبُ والفِكْرُ؛ فَإِذَا رُفِّهَتِ الآلَةُ؛ جَادَ العَمَلُ.

وَهٰذا أَمْرٌ لا يُعْلَمُ إِلَّا بِالعِلْمِ؛ فَلِجَهْلِ المُتَزَهِّدِيْنَ بِالعِلْمِ أَنْكَرُوْا مَا لَمْ يَعْلَمُوا، وَظَنُّوا أَنَّ المُرَادَ إِتْعَابُ الأَبْدَانِ، وَإِنْضَاءُ[٥] الرَّوَاحِلِ، وَمَا عَلِمُوْا أَنَّ الخَوْفَ المُضْنِي

---

(١) **نبت**: بعدت.
(٢) **الغائط**: المنخفض من الأرض يقصد لقضاء الحاجة.
(٣) **يزرون**: يعيبون. (٤) **تنبت**: تنقطع.
(٥) **إنضاء الرواحل**: إتعاب وإهزال الإبل التي تتخذ للسفر.

يَحْتَاجُ إِلَىٰ رَاحَةٍ مُقَاوِمَةٍ؛ كَمَا قَالَ القَائِلُ: **رَوِّحُوا القلوبَ تَعِ[1] الذِّكْرَ**.

٥٨ - فصل: ليس شيء في الوجود أشرف من العلم

٣٠٤ - لَيْسَ فِي الوُجُوْدِ شَيْءٌ أَشْرَفُ مِنَ العِلْمِ. كَيْفَ لَا وَهُوَ الدَّلِيْلُ؛ فَإِذَا عُدِمَ؛ وَقَعَ الضَّلَالُ؟!

٣٠٥ - وَإِنَّ مِنْ خفِيِّ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ أَنْ يُزَيِّنَ فِي نَفْسِ الإِنْسَانِ التَّعَبُّدَ؛ لِيَشْغَلَهُ عَنْ أَفْضَلِ التَّعَبُّدِ، وَهُوَ العِلْمُ؛ حَتَّىٰ إِنَّه زَيَّنَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ القُدَمَاءِ أَنَّهُمْ دَفنوا كُتُبَهُمْ، وَرَمَوْهَا فِي البَحْرِ! وَهذَا قَدْ وَرَدَ عَنْ جَمَاعَةٍ. وَأَحْسَنُ ظَنِّي بِهِمْ أَنْ أَقُوْلَ: كَانَ فِيْهَا شَيْءٌ مِنْ رَأْيِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، فَمَا أَحَبُّوا انْتِشَارَهُ، وَإِلَّا؛ فَمَتَىٰ كَانَ فِيْهَا عِلْمٌ مُفِيْدٌ صَحِيْحٌ لا يُخَافُ عَوَاقِبُهُ؛ كَانَ رَمْيُهَا إِضَاعَةً لِلْمَالِ لا يَحِلُّ.

٣٠٦ - وَقَدْ دَنَتْ حِيْلَةُ إِبْلِيْسَ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ **المُتَصَوِّفَةِ**، حَتَّىٰ مَنَعُوْا مِنْ حَمْلِ المَحَابِرِ تَلَامِذَتَهُمْ، وَحَتَّىٰ قَالَ جَعْفَرٌ الخُلْدِيُّ[2]: لَوْ تَرَكَنِي الصُّوْفِيَّةُ؛ جِئْتُكُمْ بِإِسْنَادِ الدُّنْيَا، كَتَبْتُ مَجْلِسًا عَنْ عَبّاسٍ الدُّوْرِيِّ[3]، فَلَقِيَنِي بَعْضُ الصُّوْفِيَّةِ، فَقَالَ: دَعْ عِلْمَ الوَرَقِ، وَعَلَيْكَ بِعِلْمِ الخِرَقِ. وَرُئِيَتْ مَحْبَرَةٌ مَعَ بَعْضِ الصُّوْفِيّة، فَقَالَ لَهُ صُوْفِيٌّ آخَرُ: اسْتُرْ عَوْرَتَكَ! وَقَدْ أَنْشَدُوْا لِلشِّبْلِيِّ[4]:

إِذَا طَالَبُوْنِي بِعِلْمِ الوَرَقْ ... بَرَزْتُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الخِرَقْ

وَهذَا مِنْ خَفِيِّ حِيَلِ إِبْلِيْسَ، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠].

---

(١) **تعي**: تدرك وتعقل وتفهم.

(٢) جعفر بن محمد بن نصير أبو محمد الخُلدي (٢٥٣ ـ ٣٤٨هـ): شيخ الصوفية في أيامه ببغداد وأعلمهم بالحديث، كان خواصًا: يصنع الخوص من سعف النخل، نسبته إلى قصر الخلد وهو قصر من قصور الخلافة في بغداد، حج ٥٦ حجة.

(٣) أبو الفضل عباس بن محمد الدوري البغدادي: (١٨٥ ـ ٢٧١هـ): الإمام الحافظ، الثقة، الناقد، وقد وقع في الأصل: (أبو العباس) والتصويب من تاريخ بغداد (٧/ ٢٢٧).

(٤) دلف بن جحدر، أبو بكر الشبلي (٢٤٧ ـ ٣٣٤هـ): من كبار الصوفية، نسبته إلى شبلة، قرية من قرى ما وراء النهر. و(علم الورق) الشريعة من تفسير وحديث وفقه ونحوه، و(علم الخرق) التصوف.

وَإِنَّمَا فَعَلَ وَزَيَّنَه عِنْدَهُمْ لِسَبَبَيْنِ: أحدهما: **أَنَّهُ أَرادَهُمْ يَمْشُوْنَ فِي الظُّلْمَةِ**.
والثّانِي: **أَنَّ تَصَفُّحَ العِلْمِ كُلَّ يَوْمٍ يَزِيْدُ فِي العَالِمِ**، وَيَكْشِفُ لَهُ مَا كَانَ خَفِيَ عَنْهُ، وَيُقَوِّي إِيْمَانَهُ وَمَعْرِفَتَهُ، وَيُرِيْهِ عَيْبَ كَثِيْرٍ مِنْ مَسَالِكِهِ؛ إِذَا تَصَفَّحَ مِنْهَاجَ الرَّسُوْلِ ﷺ والصَّحَابةِ.

فَأَرَادَ إِبْلِيْسُ سَدَّ تِلْكَ الطُّرُقِ بِأَخْفَىٰ حِيْلَةٍ، فَأَظْهَرَ أَنَّ المَقْصُوْدَ العَمَلُ لا العِلْمُ لِنَفْسِهِ، وَخَفِيَ عَلَىٰ المَخْدُوْعِ أَنَّ العِلْمَ عَمَلٌ، وَأَيُّ عَمَلٍ!

فاحْذَرْ مِنْ هٰذِهِ الخَدِيْعَةِ الخَفِيَّةِ؛ **فَإِنَّ العِلْمَ هُوَ الأَصْلُ الأَعْظَمُ وَالنُّوْرُ الأَكْبَرُ**. وَرُبَّما كانَ تَقْلِيْبُ الأَوْرَاقِ أَفْضَلَ مِنَ الصَّوْمِ والصَّلاةِ والحَجِّ والغَزْوِ، وَكَمْ مِنْ مُعْرِضٍ عَنِ العِلْمِ يَخُوْضُ فِي عَذَابٍ مِنَ الهَوَىٰ فِيْ تَعَبُّدِهِ، وَيُضَيِّعُ كَثِيْرًا مِنَ الفَرْضِ بِالنَّفْلِ، وَيَشْتَغِلُ بِمَا يَزْعُمُهُ الأَفْضَلَ عَنِ الوَاجِبِ، وَلَوْ كانَتْ عِنْدُهُ شُعْلَةٌ مِنْ نُوْرِ العِلْمِ؛ لاهْتَدَىٰ، فَتَأَمَّلْ مَا ذَكَرْتُ لَكَ؛ تَرْشُدْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

٥٩ - فصل: مداراة النفس والتلطف بها لازم

٣٠٧ ـ مَرَّ بِيْ حَمَّالانِ تَحْتَ جِذْعٍ ثَقِيْلٍ، وَهُمَا يَتَجَاوَبَانِ بِإِنْشَادِ النَّغَمِ، وَكَلِمَاتِ الاسْتِرَاحَةِ؛ فَأَحَدُهُمَا يُصْغِي إِلَىٰ مَا يَقُوْلُهُ الآخَرُ، ثُمَّ يُعِيْدُهُ، أَوْ يُجِيْبُهُ بِمِثْلِهِ، والآخَرُ هِمَّتُه مِثْلُ ذٰلِكَ. فَرَأَيْتُ أَنَّهُمَا لَوْ لَمْ يَفْعَلا هٰذا؛ زَادَتِ المَشَقَّةُ عَلَيْهِمَا، وَثَقُلَ الأَمْرُ، وَكُلَّمَا فَعَلا هذَا؛ هَانَ الأَمْرُ.

فَتَأَمَّلْتُ السَّبَبَ فِيْ ذٰلك؛ فَإِذَا بِهِ تَعْلِيْقُ فِكْرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَقُوْلُهُ الآخَرُ، وَطَرَبُهُ بِهِ، وَإِجَالَةُ فِكْرِهِ فِيْ الجَوَابِ بِمِثْلِ ذٰلِكَ، فَيَنْقَطِعُ الطَّرِيْقُ، وَيَنْسَىٰ ثِقَلَ المَحْمُوْلِ.

٣٠٨ ـ فَأَخَذْتُ مِنْ هٰذا إِشَارَةً عَجِيْبَةً، وَرَأَيْتُ الإِنْسَانَ قَدْ حُمِّلَ مِنَ التَّكْلِيْفِ أُمُوْرًا صَعْبَةً، وَمِنْ أَثْقَلِ مَا حُمِّلَ مُدَارَاةُ نَفْسِهِ، وَتَكْلِيْفُهَا الصَّبْرَ عَمَّا تُحِبُّ، وَعَلَىٰ مَا تَكْرَهُ، فَرَأَيْتُ الصَّوَابَ قَطْعَ طَرِيْقِ الصَّبْرِ بِالتَّسْلِيَةِ والتَّلَطُّفِ للنَّفْسِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا المَجَرَّةَ مِنْ ضَوْءِ الصَّبَاحِ، وَعِدْها بِالرَّوَاحِ ضُحَىٰ

٣٠٩ - وَمِنْ هٰذَا مَا يُحْكَىٰ عَنْ بِشْرٍ الحَافِي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: سَارَ وَمَعَهُ رَجُلٌ فِيْ طَرِيْقٍ، فَعَطِشَ صَاحِبُهُ، فَقَالَ لَهُ: أَتَشْرَبُ مِنْ هٰذا البِئْرِ؟ **فَقَالَ بِشْرٌ**: اصْبِرْ إِلَىٰ البِئْرِ الأُخْرَىٰ! فَلَمَّا وَصَلا إِلَيْهَا؛ **قَالَ لَهُ**: البِئْرِ الأُخْرَىٰ! فَمَا زَالَ يُعَلِّلُهُ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ، **فَقَالَ لَهُ**: هٰكَذَا تَنْقَطِعُ الدُّنيا.

٣١٠ - وَمَنْ فَهِمَ هٰذا الأَصْلَ؛ عَلَّلَ النَّفْسَ، وَتَلَطَّفَ بِهَا، وَوَعَدَها الجَمِيْلَ؛ لِتَصْبِرَ عَلَىٰ مَا قَدْ حُمِّلَتْ، كَمَا كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُوْلُ لِنَفْسِهِ: وَاللهِ؛ مَا أُرِيْدُ بِمَنْعِكِ مِنْ هٰذا الذِيْ تُحِبِّينَ إِلَّا الإِشْفَاقَ عَلَيْكِ. وَقَالَ أَبُوْ يَزِيْدَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: مَا زِلْتُ أَسُوْقُ نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَهِيَ تَبْكِي، حَتَّىٰ سُقْتُها وَهِيَ تَضْحَكُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مُدَارَاةَ النَّفْسِ وَالتَلَطُّفَ بِهَا لازِمٌ، وَبِذٰلِكَ يَنْقَطِعُ الطَّرِيْقُ، فهٰذا رَمْزٌ إِلَىٰ الإِشَارَةِ، وَشَرْحُهُ يَطُوْلُ.

٦٠ - فصل: الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب

٣١١ - **تَأَمَّلْتُ** أَشْيَاءَ تَجْرِي فِيْ مَجَالِسِ الوَعْظِ، يَعْتَقِدُها العَوَامُّ وَجُهَّالُ العُلَمَاءِ قُربةً، وَهِيَ مُنْكَرٌ وبُعْدٌ، وَذَاكَ أَنَّ المُقْرِئَ يُطْرِبُ، ويُخْرِجُ الأَلْحَانَ إِلَىٰ الغِنَاءِ، والوَاعِظَ يُنْشِدُ بِتَطْرِيْبٍ أَشْعَارَ المَجْنُوْنِ وَلَيْلَىٰ[1]، فَيُصَفِّقُ هٰذَا! وَيَخْرِقُ ثوبَه هٰذَا! وَيَعْتَقِدُوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ قُرْبَةً!!

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ هٰذِهِ الأَلْحَانَ كالمُوْسِيْقَا، تُوْجِبُ طربًا للنفوسِ [وَنَشْوَةً]؛ فَالتَّعَرُّضُ بِمَا يُوْجِبُ الفَسَادَ غَلَطٌ عَظِيْمٌ، وَيَنْبَغِي الاحْتِسَابُ عَلَىٰ الوُعَّاظِ فِي هٰذا[2].

٣١٢ - وَكَذٰلِكَ المُقَابِرِيُّونَ[3] مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يُهَيِّجُونَ الأَحْزَانَ؛ لِيَكْثُرَ بُكَاءُ

---

(١) هو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري، مجنون ليلى، شاعر غزل، من المتيمين، من أهل نجد، لم يكن مجنونًا، وإنما لقب بذلك لهيامه بحب ليلى بنت مهدي بن سعد، توفي سنة (٦٨هـ).

(٢) أي: أن يراقب المحتسبون الوعاظ، وينصحونهم إذا تجاوزوا الحق.

(٣) من يطوفون على المقابر فينشدون أشعار الرثاء والحكمة التي تهيج الحزن والبكاء، وبعضهم يرتزقون من قراءة القرآن على القبور وهم شر ممّن ينشد الأشعار.

النِّسَاءِ، فيُعْطَوْنَ عَلىٰ ذٰلِكَ الأُجْرَةَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَرُوْا بِالصَّبْرِ؛ لَمْ تُرِدِ النِّسْوَةُ ذٰلِكَ! وهٰذِهِ أَضْدَادٌ للشَّرْعِ. قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: حَضَرْنا عَزَاءَ رَجُلٍ قَدْ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ، فَقَرأَ المُقْرِئُ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، فَقُلْتُ لَهُ: هٰذِهِ نِيَاحَةٌ بِالقُرْآنِ!

٣١٣ ـ وَفِي الوُعّاظِ مَنْ يَتَكَلَّمُ عَلىٰ طَرِيْقِ المَعْرِفَةِ والمَحَبَّةِ، فَتَرَىٰ الحَائِكَ والسُّوقيَّ الذِي لَا يَعْرِفُ فَرَائِضَ تِلكَ الصَّلاةِ يُمَزِّقُ أَثْوَابَه؛ دَعْوَىٰ لِمَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ!! والصَّافِي حَالًا مِنْهُمْ ـ وَهُوَ أَصْلَحُهُمْ ـ يَتَخَايَلُ بِوَهْمِهِ شَخْصًا هُوَ الخَالِقُ، فَيُبْكِيْهِ شَوْقُهُ إِلَيْهِ، لِمَا يَسْمَعُ مِنْ عَظَمتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجَمَالِهِ. وَلَيْسَ مَا يَتَخَايَلُوْنَهُ الْمَعْبُودَ؛ لأَنَّ المَعْبُوْدَ لا يَقَعُ فِيْ خَيَالٍ.

٣١٤ ـ وَبَعْدَ هٰذا؛ فَالتَّحْقِيْقُ[1] مَعَ العَوَامِّ صَعْبٌ، وَلا يَكَادُوْنَ يَنْتَفِعُوْنَ بِمُرِّ الحَقِّ؛ إِلَّا أَنَّ الوَاعِظَ مَأْمُوْرٌ بِأَنْ لا يَتَعَدَّىٰ الصَّوَابَ، وَلا يَتَعَرَّضَ لِمَا يُفْسِدُهُمْ، بَلْ يَجْذِبُهُمْ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ بِأَلْطَفِ وَجْهٍ، وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ صِنَاعَةٍ؛ فَإِنَّ مِنَ العَوَامِّ مَنْ يُعْجِبُهُ حُسْنُ اللَّفْظِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْجِبُهُ الإِشارةُ، وَمِنْهُمْ مَن يَنْقَادُ بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ.

٣١٥ ـ وَأَحْوَجُ النَّاسِ إِلَىٰ البَلَاغَةِ الوَاعِظُ؛ لِيَجْمَعَ مَطَالِبَهُمْ، لٰكِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي اللّازِمِ الوَاجِبِ، وَأَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنَ المُبَاحِ فِي اللَّفْظِ قَدْرَ المِلْحِ في الطَّعَامِ، ثُمَّ يَجْتَذِبَهُمْ إِلَىٰ العَزَائِمِ، وَيُعَرِّفَهُمُ الطَّرِيْقَ الحَقَّ.

٣١٦ ـ وَقَدْ حَضَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل، فَسَمِعَ كَلامَ الحَارِثِ المُحَاسِبِيِّ[2]، فَبَكَىٰ، ثُمَّ قَالَ: لا يُعْجِبُنِي الحُضُورُ. وَإِنَّمَا بَكَىٰ؛ لأَنَّ الحَالَ أَوْجَبَتِ البُكَاءَ.

٣١٧ ـ وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَرَوْنَ تَخْلِيْطَ القُصَّاصِ، فَيَنْهَوْنَ عَنِ الحُضُوْرِ عِنْدَهُمْ، وَهٰذَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ لا يَحْسُنُ اليَوْمَ؛ لأَنَّهُ كَانَ النَّاسُ في ذٰلِكَ الزَّمَانِ مُتَشَاغِلِيْنَ بِالعِلْمِ، فَرَأَوْا حُضُوْرَ القَصَصِ صَادًّا لَهُمْ، وَالْيَوْمَ كَثُرَ الإِعْرَاضُ عَنِ العِلْمِ، فَأَنْفَعُ مَا لِلعَامِيِّ مَجْلِسُ الوَعْظِ، يَرُدُّهُ عَنْ ذَنْبٍ، وَيُحَرِّكُهُ إِلَىٰ تَوْبَةٍ، وَإِنَّمَا الخَلَلُ فِي القَاصِّ؛ فَلْيَتَّقِ اللهَ ﷻ.

---

(١) **التحقيق**: أي تفصيل المسائل وبيان الوجوه.

(٢) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله، من كبار الصوفية، كان عالمًا بالأصول والمعاملات، واعظًا مبكيًا، ولد بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة (٢٤٣هـ).

٦١ - فصل: الأنبياء بالغوا في إثبات الصفات

٣١٨ - مِنْ أَضَرِّ الأَشْيَاءِ عَلىٰ العَوَامِّ كَلَامُ المُتَأَوِّلِيْنَ وَالنُّفَاةِ لِلصِّفَاتِ والإِضَافَاتِ. فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بَالَغُوْا فِي الإِثباتِ؛ لِيَتَقَرَّرَ في أَنْفُسِ العَوَامِّ وُجُوْدُ الخَالِقِ؛ فَإِنَّ النُّفُوْسَ تَأْنَسُ بِالإِثْبَاتِ؛ فَإِذَا سَمِعَ العَامِيُّ مَا يُوْجِبُ النَّفْيَ؛ طَرَدَ عَنْ قَلْبِهِ الإِثْبَاتَ، فَكَانَ أَعْظَمَ ضَرَرٍ عَلَيْهِ، وَكَانَ هٰذا المُنَزِّهُ مِنَ العُلَمَاءِ - عَلىٰ زَعْمِهِ - مُقَاوِمًا لإِثْبَاتِ الأَنْبِيَاءِ عليهم الصلاة والسلام بِالمَحْوِ، وَشَارِعًا فِي إِبْطَالِ مَا يُفْتُوْنَ بِهِ.

٣١٩ - وَبَيَانُ هذَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ بِاسْتِوَائِهِ عَلىٰ العَرْشِ، فَأَنِسَتِ النُّفُوْسُ إِلَىٰ إِثْبَاتِ الإِلٰهِ وَوُجُوْدِهِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وَقَالَ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨].

وَأَخْبَرَ[١] **أَنَّه يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيا**[٢]. وَقَالَ: **«قلوبُ العِبادِ بين أُصْبُعَيْنِ»**[٣]. وَقَالَ: **«كَتَبَ التوراةَ بيده»**[٤]. **«وَكَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»**[٥]. إِلىٰ غير ذٰلك مما يطولُ ذِكرُه.

فَإِذَا امْتَلأَ العَامِيُّ وَالصَّبِيُّ مِنَ الإِثْبَاتِ، وَكَادَ يَأْنَسُ مِنَ الأَوْصَافِ بِمَا يَفْهَمُهُ الحِسُّ؛ قِيْلَ لَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فَمَحَا مِنْ قَلْبِهِ مَا نَقَشَهُ الخَيَالُ، وَتَبْقَىٰ أَلْفَاظُ الإِثْبَاتِ مُتَمَكِّنَةً.

وَلِهٰذَا أَقَرَّ الشَّرْعُ مِثْلَ هذَا، فَسَمِعَ[٦] مُنْشِدًا[٧] يَقُوْلُ: «وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ

---

(١) أي: الله تعالى على لسان نبيه ﷺ.

(٢) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) زيادة من بعض النسخ المطبوعة.

(٧) هو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وذلك أنه مشى ليلة إلى أمة له فنالها، وفطنت له امرأته، =

العَالَمِيْنَا» فَضَحِكَ. **وَقَالَ لَهُ آخَرُ**: أَوَيَضْحَكُ رَبُّنَا؟ **فَقَالَ**: «**نَعَمْ**»[1]. وَقَالَ: «**إِنَّهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ هٰكَذَا**»[2].

كُلُّ هذَا لِيُقَرِّرَ الإِثْبَاتَ فِي النُّفُوْسِ!

٣٢٠ ـ وَأَكْثَرُ الخَلْقِ لَا يَعْرِفُوْنَ الإِثْبَاتَ إِلَّا عَلَىٰ مَا يَعْلَمُوْنَ مِنَ الشَّاهِدِ، فَيُقْنَعُ مِنْهُمْ بِذٰلِكَ، إِلَىٰ أَنْ يَفْهَمُوْا التَّنْزِيْهَ. ولِهذا صُحِّحَ إِسْلامُ مَنِ انفتل[3] بالسُّجُوْدِ. **فَأَمَّا إِذَا ابْتُدِئَ** بِالعَامِيِّ الفَارِغِ مِنْ فَهْمِ الإِثْبَاتِ، فَقُلْنا: لَيْسَ فِي السَّمَاءِ! وَلَا عَلَىٰ العَرْشِ! وَلا يُوْصَفُ بِيَدٍ! وَكَلَامُهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنْهُ شَيْءٌ! وَلا يُتَصَوَّرُ نُزُوْلُهُ: **انْمَحَىٰ مِنْ قَلْبِهِ** تَعْظِيْمُ المُصْحَفِ، وَلَمْ يتوضع فِي سِرِّهِ إِثْبَاتُ إِلٰهٍ. وَهٰذِهِ جِنَايَةٌ عَظِيْمَةٌ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ، تُوْجِبُ نَقْضَ مَا تَعِبوا فِي بَيَانِهِ، وَلَا يَجُوْزُ لِعَالِمٍ أَنْ يَأْتِيَ إِلَىٰ عَقِيْدَةِ عَامِيٍّ قَدْ أَنِسَ بِالإِثْبَاتِ فَيُهَوِّشَهَا؛ فَإِنَّهُ يُفْسِدُه، وَيَصْعُبُ صَلَاحُهُ.

٣٢١ ـ فَأَمَّا العَالِمُ؛ فَإِنَّا قَدْ أَمِنَّاهُ؛ لأَنَّه لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ اسْتِحَالَةُ تَجَدُّدِ صِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ لا يَجُوْزُ أَنْ يَكُونَ اسْتَوَىٰ كَمَا يُعْلَمُ، وَلا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ مَحْمُوْلًا، وَلا

= فلامته، فجحدها، وكانت قد رأت جماعه لها، فقالت له: إن كنتَ صادقًا فاقرأ القرآن، فقال:

شهدتُ بأنَّ وعدَ اللَّهِ حقٌّ ... وأنّ النارَ مثوى الكافرينا
وأنّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ ... وفوقَ العرشِ ربُّ العالمينا
وتحملُه ملائكةٌ شدادٌ ... ملائكةُ الإلٰه مسوّمينا

فقالت امرأته: صدق الله وكذبت عيني. وكانت لا تحفظ القرآن ولا تقرؤه، وليس في الخبر ذكر لضحك النبي ﷺ ولا علمه بالقصة، وقد روى هذا الخبر ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/٢٩٦).

(١) رواه ابن ماجه (١٨١) وأحمد (٤/ ١١ و١٢ و١٣) عن وكيع بن حدس عن أبي رزين قال الهيثمي في المجمع: وكيع ذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجاله احتج بهم مسلم، وانظر حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدُهما الآخر يدخلان الجنة: يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل، ثم يتوبُ اللهُ على القاتل فيستشهد» رواه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٢٦) وابن أبي عاصم في السنة (٢٥٢/ ٥٧٥) من طريق محمد بن إسحاق وهو مدلس، فإذا لم يصرح بالسماع لا يحتج بحديثه.

(٣) في حاشية الأصل: كذا في النسخ الثلاثة.

أَنْ يُوْصَفَ بِمُلاصَقَةٍ ومَسٍّ، وَلا أَنْ يَنْتَقِلَ. وَلا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ أَنَّ المُرَادَ بِتَقْلِيْبِ القُلُوْبِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ الإِعْلَامُ بِالتَّحَكُّمِ فِي القُلُوْبِ؛ فَإِنَّ ما يُدِيْرُهُ الإِنْسَانُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ هُوَ مُتَحَكِّمٌ فِيْهِ إِلَىٰ الغَايَةِ، وَلا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْوِيْلِ مَنْ قَالَ: الإِصْبَعُ الأَثَرُ الحَسَنُ؛ فَالقُلُوْبُ بَيْنَ أَثَرَيْنِ مِنْ آثَارِ الرُّبُوْبِيَّةِ، وَهُمَا: الإِقامةُ، والإِزاغةُ. وَلا إِلَىٰ تَأْوِيْلِ مَنْ قَالَ: يَدَاهُ: نِعْمَتَاهُ؛ لأَنَّهُ إِذَا فَهِمَ أَنَّ المَقْصُوْدَ الإِثْبَاتُ، وَقَدْ حُدِّثْنا بِمَا نَعْقِلُ، وَضُرِبَتْ لَنَا الأَمْثَالُ بِمَا نَعْلَمُ، وَقَدْ **ثَبَتَ عِنْدَنَا بِالأَصْلِ المَقْطُوْعِ بِهِ أَنَّه لا يَجُوْزُ عَلَيْهِ ما يَعْرِفُه الحِسُّ**؛ عَلِمْنا المَقْصُوْدَ بِذِكْرِ ذٰلِكَ.

٣٢٢ ـ وَأَصْلَحُ ما نَقُوْلُ للعَوَامِّ[١]: **أَمِرُّوا هٰذِهِ الأَشْيَاءَ كَمَا جَاءَتْ، وَلا تَتَعَرَّضُوْا لِتَأْوِيْلِها**، وَكُلُّ ذٰلِكَ يُقْصَدُ بِهِ حِفْظُ الإِثْبَاتِ، وَهٰذَا الذِيْ قَصَدَهُ السَّلَفُ.

وَكَانَ أَحْمَدُ يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يُقَالَ: لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوْقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوْقٍ. كُلُّ ذٰلِكَ لِيَحْمِلَ عَلَىٰ الاتِّباعِ، وتَبْقَىٰ أَلْفَاظُ الإِثْبَاتِ عَلىٰ حَالِهَا.

٣٢٣ ـ وَأَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ جَاءَ إِلَىٰ مَا قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ تَعْظِيْمَهُ، فَأَضْعَفَ فِي النُّفُوْسِ قُوَىٰ التَّعْظِيْمِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تُسَافِرُوا بِالقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ العَدُوِّ**»[٢]؛ يُشِيْرُ إِلى المُصْحَفِ. وَمَنَعَ الشَّافِعِيُّ أَنْ يَحْمِلَهُ المُحْدِثُ بِعلاقَتِهِ[٣]؛ تَعْظِيمًا لَهُ.

٣٢٤ ـ فَإِذَا جَاءَ مُتَحَذْلِقٌ[٤] فَقَالَ: الكَلَامُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِ المُتَكَلِّمِ! فَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ هٰذَا أَنَّ مَا هَا هُنَا شَيْءٌ يُحْتَرَمُ! فهٰذا قَدْ ضَادَّ بِمَا أَتَىٰ بِهِ مَقْصُوْدَ الشَّرْعِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ أَوْضَاعَ الشَّرْعِ وَمَقَاصِدَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٣٢٥ ـ وَقَدْ مَنَعُوْا مِنْ كَشْفِ مَا قَدْ قَنَّعَ الشَّرْعُ؛ فَنَهَىٰ **رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنِ الكَلَامِ فِي القَدَرِ**[٥]، **ونَهَىٰ عَنِ الاخْتِلافِ**[٦]؛ لِأَنَّ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ تَخْرُجُ إِلَىٰ مَا يُؤْذِي؛ فَإِنَّ

---

(١) بل وللعلماء أيضًا، حتى إن كبار المتكلمين تمنوا مثل إيمان العوام؛ فقد قال إمام الحرمين: اللهم إيمانًا كإيمان العجائز.

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) كيس له عروة كبيرة يوضع فيه المصحف. (٤) من المتكلمين.

(٥) رواه الطبراني (١٠٤٤٨)، وأبو نعيم (١٠٨/٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٥٠): إسناده حسن.

(٦) رواه البخاري (٥٠٦٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

البَاحِثَ عَنِ القَدَرِ إِذَا بَلَغَ فَهْمُهُ إِلَىٰ أَنْ يَقُوْلَ: قَضَىٰ وَعَاقَبَ؛ تَزَلْزَلَ إِيْمَانُهُ بِالْعَدْلِ، وَإِنْ قَالَ: لَمْ يُقَدِّرْ، وَلَمْ يَقْضِ؛ تَزَلْزَلَ إِيْمَانُهُ بِالقُدْرَةِ والمُلْكِ؛ فَكَانَ الأَوْلَىٰ تَرْكَ الخَوْضِ فِي هٰذِهِ الأَشْيَاءِ.

٣٢٦ ـ وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُوْلُ: هٰذَا مَنْعٌ لَنَا عَنِ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ الحَقَائِقِ، وَأَمْرٌ بِالوُقُوْفِ مَعَ التَّقْلِيْدِ! فَأَقُوْل: لا؛ إِنَّمَا أَعْلَمَكَ أَنَّ المُرَادَ مِنْكَ الإِيْمَانُ بِالجُمَلِ، ومَا أُمِرْتَ بِالتَّنْقِيْرِ [لِمَعْرِفَةِ الكُنْهِ]، مَعَ أَنَّ قُوَىٰ فَهْمِكَ تَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ الحَقَائِقِ.

فَإِنَّ الخَلِيْلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ قَالَ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فَأَرَاهُ مَيْتًا أُحْيِيَ، وَلَمْ يُرِه كَيْفَ أَحْيَاهُ؛ لِأَنَّ قُوَاهُ تَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ ذٰلِكَ.

٣٢٧ ـ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ ـ وَهُوَ الَّذِيْ بُعِثَ لِيُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ـ يَقْنَعُ مِنَ النَّاسِ بِنَفْسِ الإِقرارِ، واعْتِقَادِ الجُمَلِ.

٣٢٨ ـ وَكَذٰلِكَ كانَتِ الصَّحَابةُ، فما نُقِلَ عَنْهُم أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوْا فِي تِلَاوَةٍ وَمَتْلُوٍّ، وَقِرَاءَةٍ وَمَقْرُوْءٍ، وَلَا أَنَّهُمْ قَالُوْا: اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَىٰ! وَيَنْزِلُ بِمَعْنَىٰ يَرْحَمُ! بَلْ قَنَعُوا بِإِثْبَاتِ الجُمَلِ الَّتِي تُثْبِتُ التَّعْظِيْمَ عِنْدَ النُّفُوْسِ، وكَفُّوا كَفَّ الخَيَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٣٢٩ ـ ثم هٰذا مُنْكَرٌ ونَكِيْرٌ؛ إِنَّمَا يَسْأَلَانِ عَنِ الأُصُوْلِ المُجْمَلَةِ، **فَيَقُوْلَانِ**: مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِيْنُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَمَنْ فَهِمَ هٰذا الفَصْلَ؛ سَلِمَ مِنْ تَشْبِيْهِ المُجَسِّمَةِ، وَتَعْطِيْلِ المُعَطِّلَةِ، وَوَقَفَ عَلَىٰ جَادَّةِ السَّلَفِ الأَوَّلِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٦٢ - فصل: أخذ السمع والبصر يكون بذهولهما عن الحقائق

٣٣٠ ـ قرأت هٰذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فَلَاحَتْ لِيْ منها إِشَارَةٌ كِدْتُ أَطِيْشُ مِنْهَا، وَذٰلِكَ أَنَّهُ:

إِنْ كَانَ عَنَىٰ بِالآيةِ نَفْسَ السَّمْعِ وَالبَصَرِ؛ فَإِنّ السَّمَعَ آلةٌ لإِدْرَاكِ المَسْمُوْعَاتِ، وَالبَصَرَ آلةٌ لإِدْرَاكِ المُبْصَرَاتِ؛ فَهُمَا يَعْرِضانِ ذٰلِكَ عَلَىٰ القَلْبِ، فَيَتَدَبَّرُ وَيَعْتَبِرُ؛ فَإِذَا

عُرِضَتِ المَخْلُوْقَات عَلىٰ السَّمْعِ والبَصَرِ؛ فأَوْصَلا إِلَىٰ القَلْبِ أَخْبَارَهَا؛ مِنْ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلىٰ الخَالِقِ، وَتَحْمِلُ عَلَىٰ طَاعةِ الصَّانِعِ، وَتُحَذِّرُ مِنْ بَطْشِهِ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِ.

وَإِنْ عَنَىٰ مَعْنَى السَّمْعِ والبَصرِ؛ فَذٰلِكَ يَكُوْنُ بِذُهُوْلِهِمَا عَنْ حَقَائِقِ مَا أَدْرَكَا شُغْلًا بِالهَوَىٰ، فَيُعَاقَبُ الإِنْسَانُ بِسَلْبِ مَعَانِي تِلْكَ الآلاتِ، فَيَرَىٰ؛ وَكَأَنَّهُ مَا رَأَىٰ، وَيَسْمَعُ؛ وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ، وَالْقَلْبُ ذَاهِلٌ عَمَّا يَتَأَدَّى بِهِ؛ فَيَبْقَى الإِنْسَانُ خاطئًا على نفسِهِ، لا يَدْرِيْ مَا يُرَادُ بِهِ، لَاْ يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ أَنَّهُ يَبْلَىٰ، وَلَاْ تَنْفَعُهُ مَوْعِظَةٌ تُجْلى، وَلَاْ يَدْرِيْ أَيْنَ هُوَ، وَلَاْ مَا المُرَادُ مِنْهُ، وَلَاْ إِلَىٰ أَيْنَ يُحْمَلُ، وَإِنَّمَا يُلَاحِظُ بِالطَّبْعِ مَصَالِحَ عَاجِلَتِهِ، وَلَاْ يَتَفَكَّرُ فِي خُسْرَانِ آجِلَتِهِ، لا يَعْتَبِرُ بِرَفِيْقِهِ، وَلَا يَتَّعِظُ بِصَدِيْقِهِ، وَلَاْ يَتَزَوَّدُ لِطَرِيْقِهِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

النَّاسُ فِيْ غَفْلَةٍ وَالمَوْتُ يُوْقِظُهُمْ ... وَمَا يُفِيْقُوْنَ حَتَّى يَنْفَدَ العُمُرُ
يُشَيِّعُوْنَ أَهَالِيْهِمْ بِجَمْعِهِمُ ... وَيَنْظُرُوْنَ إِلَىٰ مَا فِيْهِ قَدْ قبروْا[1]
وَيَرْجِعُوْنَ إِلَىٰ أَحْلامِ غَفْلَتِهِمْ ... كَأَنَّهُمْ مَا رَأَوْا شَيْئًا وَلَاْ نَظَرُوْا

وَهٰذِهِ حَالَةُ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ فَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سَلْبِ فَوَائِدِ الآلاتِ؛ فَإِنَّهَا أَقْبَحُ الحَالاتِ.

٦٣ - فصل: لا يتمكن العشق إلا مع واقف جامد

٣٣١ - نَظَرْتُ فِيْمَا تَكَلَّمَ بِهِ الحُكَمَاءُ فِي العِشْقِ وَأَسْبَابِه وَأَدْوِيَتِهِ، وَصَنَّفْتُ فِي ذٰلِكَ كِتابًا سَمَّيْتُهُ بـ(ذَمِّ الهَوَىٰ)، وَذَكَرْتُ فِيْهِ عَنِ الحُكَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: سَبَبُ العِشْقِ حَرَكَةُ نَفْسٍ فَارِغَةٍ، وَأَنَّهُم اخْتَلَفُوْا: فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: لا يَعْرِضُ العِشْقُ إِلَّا لِظِرافِ النَّاسِ. وَقَالَ آخَرُوْنَ: بَلْ لِأَهْلِ الغَفْلَةِ مِنْهُمْ عَنْ تَأَمُّلِ الحَقَائِقِ[2].

٣٣٢ - إِلَّا أَنَّهُ خَطَرَ لِيْ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعْنًىٰ عَجِيْبٌ، أَشْرَحُهُ هَا هُنَا، وَهُوَ أَنَّهُ لا يَتَمَكَّنُ العِشْقُ إِلَّا مَعَ وَاقِفٍ جَامِدٍ، فأمّا أَرْبَابُ صُعُوْدِ الهِمَمِ؛ فَإِنَّهَا كُلَّمَا تَخَايَلَتْ مَا

---

(١) في حاشية الأصل: في الأحمدية: قد قبروا، قلت: وفي المصرية: قد فتروا، وهو تصحيف.
(٢) ذم الهوى ص(٢٨٩).

تُوْجِبُهُ المَحَبَّةُ، فَلَاحَتْ عُيُوْبُهُ لَهَا ـ إِمَّا بالفِكْرِ فِيْهِ، أَوْ بِالمُخَالَطَةِ له ـ؛ تَسَلَّتْ [أَنْفُسُهُم]، وتَعَلَّقَتْ بِمَطْلُوْبٍ آخَرَ. فَلَا يَقِفُ عَلَىٰ دَرَجَةِ العِشْقِ، المُوْجِبِ لِلتَّمَسُّكِ بِتِلْكَ الصُّوْرَةِ، العَامِيْ[1] عَنْ عُيُوْبِهَا؛ إِلَّا جَامِدٌ واقفٌ.

٣٣٣ ـ وَأَمَّا أَرْبَابُ الأَنَفَةِ مِنَ النَقَائِصِ؛ فَإِنَّهُمْ أَبدًا فِي التَّرَقِّي، لا يَصُدُّهُمْ صَادٌّ، فَإِذَا عَلِقَتِ الطِّبَاعَ مَحَبَّةُ شَخْصٍ؛ لَمْ يَبْلُغُوْا مَرْتَبَةَ العِشْقِ المُسْتَأْثِرِ، بَلْ رُبَّمَا مَالُوْا مَيْلًا شَدِيْدًا؛ **إِمَّا فِي البِدَايَةِ لِقِلَّةِ التَّفَكُّرِ**، أَوْ لِقِلَّةِ المُخَالَطَةِ والاطِّلَاعِ عَلَىٰ العُيُوْبِ، **وَإِمَّا لِتَشَبُّثِ بَعْضِ الخِلَالِ المَمْدُوْحَةِ بِالنُّفُوْسِ** مِنْ جِهَةِ مُنَاسَبَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الشَّخْصَيْنِ؛ كَالظَّرِيْفِ مَعَ الظَّرِيْفِ، وَالفَطِنِ مَعَ الفَطِنِ، فَيُوْجِبُ ذٰلِكَ المَحَبَّةَ. فأَمَّا العِشْقُ؛ فَلَا؛ فَهُمْ أبدًا فِي السَّيْرِ، فَلَا تَوَقُّفَ، وَإِبِلُ الطَّبْعِ تَتْبَعُ حَادِيَ الفَهْمِ؛ فَإِنَّ لِلطَّبْعِ مُتَعَلَّقًا لا تَجِدُهُ فِي الدُّنيا؛ لِأَنَّهُ يَرُوْمُ مَا لا يَصِحُّ وُجُوْدُهُ مِنَ الكَمَالِ في الأَشْخَاصِ؛ فَإِذَا تَلَمَّحَ عُيُوْبَها نَفَرَ.

٣٣٤ ـ وَأَمَّا مُتَعَلَّقُ القُلُوْبِ مِنْ مَحَبَّةِ الخَالِقِ البارئ؛ فهُوَ مانِعٌ لهَا مِنَ الوُقُوْفِ مَعَ سِوَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَحَبَّتُهُ لا تُجَانِسُ مَحَبَّةَ المَخْلُوْقِيْنَ؛ غَيْر أَنَّ أَرْبَابَ المَعْرِفَةِ وَلْهَى[2]، قَدْ شَغَلَهُم حُبُّهُ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ، وَصَارَت الطِّبَاعُ مُسْتَغْرقةً لِقُوَّةِ مَعْرِفَةِ القُلُوْبِ وَمَحَبَّتِهَا. كَمَا قَالَتْ **رَابِعَةُ**:

أُحِبُّ حَبِيبًا لَا أُعَابُ بِحُبِّهِ ... وأَحْبَبْتُمُ مِنْ فِي هَوَاهُ عُيُوْبُ[3]

٣٣٥ ـ وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ فُقَرَاءِ الزُّهَادِ: أَنَّهُ مرَّ بِٱمْرَأَةٍ، فَأَعْجَبَتْهُ، فخَطَبَها إِلَىٰ أَبِيْهَا، فَزَوَّجَهُ، وَجَاءَ بِهِ إِلىٰ المَنْزِلِ، وَأَلْبَسَهُ غَيْر خَلْقانِه. فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ؛ صَاح الفَقِيْر: ثِيَابِي! ثِيَابِي! فَقَدْتُ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ! فَهٰذِهِ عَثْرَةٌ في طرِيْق هٰذا الفَقِيْرِ دَلَّتْهُ عَلىٰ أَنَّه مُنْحَرِفٌ عَنِ الجَادَّةِ.

٣٣٦ ـ وَإِنَّمَا تعْتَرِي هٰذِهِ الحالاتُ أَرْبَابَ المَعْرِفَةِ باللهِ ﷻ، وأَهْل الأَنَفةِ مِن الرَّذَائِلِ. وقدْ قَالَ **ابنُ مَسْعُوْدٍ**: إِذَا أَعْجَبَتْ أحَدَكُمُ ٱمْرَأَةٌ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ مَثَانَتَهَا. وَمِثَالُ هٰذِه

---

(١) **العامي**: الأعمىٰ.
(٢) **الوله**: مرتبة يستلب فيها عقل العاشق
(٣) في الأصل: (وأحببتهم)، وهو تصحيف.

الحَالِ أَنَّ العَقْلَ يَغِيْبُ عِنْدَ اسْتِحْلَاءِ تَنَاوُلِ المُشْتَهَىٰ مِنَ الطَّعَامِ عَنْ التَّفْكِيْرِ في تَقَلُّبِهِ فِي الفَمِ، وبَلْعِهِ، ويَذْهَلُ عِنْدَ الجِمَاعِ عَنْ مُلاقَاةِ القَاذُوْرَاتِ، لِقوَّةِ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وَيَنْسَىٰ عِنْدَ بَلْعِ الرُّضَابِ[1] اسْتِحَالَتَهُ عَنِ الغِذَاءِ.

وفي تَغْطِيَةِ تِلْكَ الأَحْوَالِ مَصَالِحُ. إِلَّا أَنَّ أَرْبَابَ اليَقَظَةِ يَعْتَرِيْهِمْ [هٰذا الإِحْسَاسُ] مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ لَهُ[2] في غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ، فَيُنَغِّصُ عَلَيْهِمْ لَذِيْذَ العَيْشِ، وَيُوْجِبُ الأَنَفَةَ مِنْ رَذَالَةِ الهَوَىٰ. **وَعَلَىٰ قَدْرِ النَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ يَخِفُّ العِشْقُ عَنْ قَلْبِ العَاشِقِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ جُمُوْدِ الذِّهْنِ يَقْوَىٰ القَلَقُ. قال المتنبي**[3]:

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

٣٣٧ ـ وَمَجْمُوْعُ مَا أَرَدْتُ شَرْحَهُ: أَنَّ طِبَاعَ المُتَيَقِّظِيْنَ تَتَرَقَّى، فَلَا تَقِفُ مَعَ شَخْصٍ مُسْتَحْسَنٍ، وَسَبَبُ تَرَقِّيْهَا التَّفْكِيْرُ فِي نَقْصِ ذٰلِكَ الشَّخْصِ وَعُيُوْبِهِ، أَوْ فِي طَلَبِ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ، وَقُلُوْبُ العَارِفِيْنَ تَتَرَقَّى إِلَىٰ مَعْرُوْفِهَا فَتَعْتَبِرُ في مَعْبَرِ الاعْتِبَارِ.

فَأَمَّا أَهْلُ الغَفْلَةِ؛ فَجُمُوْدُهُمْ في الحَالَتَيْنِ، وَغَفْلَتُهُمْ عَنِ المَقَامَيْنِ؛ يُوْجِبُ أَسْرَهُمْ، وقَسْرَهُمْ، وحَيْرَتَهُمْ.

٦٤ - فصل: الاعتراف بالتقصير أنجح في الحوائج

٣٣٨ ـ عَرَضَ لِيْ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ سُؤَالِ اللهِ ﷻ وَدُعَائِهِ، فَدَعَوْتُ وَسَأَلْتُ، فَأَخَذَ بَعْضُ أَهْلِ الخَيْرِ يَدْعُوْ مَعِي، فَرَأَيْتُ نَوْعًا مِنْ أَثَرِ الإِجَابَةِ. **فَقَالَتْ لِي نَفْسِي**: هٰذَا بِسُؤَالِ ذٰلِكَ العَبْدِ لا بِسُؤَالِكَ. **فَقُلْتُ لَهَا**: أَمَّا أَنَا؛ فَإِنِّي أَعْرِفُ مِنْ نَفْسِي مِنَ الذُّنُوْبِ وَالتَّقْصِيْرِ مَا يُوْجِبُ مَنْعَ الجَوَابِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ أَنَا الَّذِيْ أُجِبْتُ؛ لِأَنَّ هٰذَا الدَّاعِيَ الصَّالِحَ سَلِيْمٌ مِمَّا أَظُنُّهُ مِنْ نَفْسِي؛ لِأَنَّ مَعِيَ انْكِسَارُ تَقْصِيْرِي، وَمَعَهُ الفَرَحُ بِمُعَامَلَتِهِ، **وَرُبَّمَا كَانَ الاعْتِرَافُ بِالتَّقْصِيْرِ أَنْجَحَ فِي الحَوَائِجِ**.

---

(١) **الرضاب**: الريق. (٢) في الأصل: لها.

(٣) أحمد بن الحسين الجعفي الكندي، شاعر العربية الأكبر ومالئ الدنيا وشاغل الناس، ولد في الكوفة سنة (٣٠٣هـ)، ورحل إلى الشام فمصر فالعراق ففارس ثم عاد إلى العراق فقتل في النعمانية قرب بغداد سنة (٣٥٤هـ)، والبيت في ديوانه ص(٥٣٧).

عَلىٰ أَنَّنِي أنا وَهُوَ نَطْلُبُ مِنَ الفَضْلِ لا بِأعْمَالِنَا؛ فَإِذَا وَقَفْتُ أَنَا عَلىٰ قَدَمِ الانْكِسَارِ، مُعْتَرِفًا بِذُنُوْبِي، وَقُلْتُ: أَعْطُوْنِي بِفَضْلِكُم؛ فَمَا لِي فِي سُؤَالِي شَيْءٌ أَمُنُّ به، وَرُبَّما تَلَمَّحَ ذاكَ حُسْنَ عَمَلِهِ، وكانَ صَادًّا لَهُ.

فَلَا تَكْسِرِيْنِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ؛ فَيَكْفِيْنِي كَسْرُ عِلْمِي بِي لِي! وَمَعي مِنَ العِلمِ المُوْجِبِ لِلْأَدَبِ، وَالاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيْرِ، وَشِدَّةِ الفَقْرِ إِلَىٰ مَا سَأَلْتُ، وَيَقِيْنِي بِفَضْلِ المَطْلُوْبِ عَنْهُ: مَا لَيْسَ مَعَ ذٰلِكَ العَابِدِ؛ فَبَارَكَ اللهُ فِي عِبَادَتِهِ؛ فَرُبَّما كانَ اعْتِرَافِي بِتَقْصِيْرِي أَوْفَىٰ.

٦٥ - فصل: أي لب أوغل في النظر مدح على قدر فهمه

٣٣٩ - قَرَأْتُ مِنْ غَرَائِبِ العِلْمِ وَعَجَائِبِ الحِكَمِ؛ عَلَىٰ بَعْضِ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ، فَرَأَيْتُهُ يَتَلوَّىٰ مِنْ سَمَاعِ ذٰلِكَ، وَلا يَطَّلِعُ عَلىٰ غَوْرِهِ، وَلَا يَشْرَئِبُّ[1] إِلَىٰ مَا يَأْتِي، فَصَدَفْتُ[2] عَنْ إِسْمَاعِهِ شَيْئًا آخَرَ، وَقُلْتُ: إِنَّمَا يَصْلُحُ مِثْلُ هٰذَا لِذِي لُبٍّ يَتَلَقَّاهُ تَلَقِّيَ العَطْشَانِ المَاءَ.

٣٤٠ - ثُمَّ أَخَذْتُ مِنْ هٰذِهِ إِشَارَةً، [هِيَ أَنَّهُ][3] لَوْ كَانَ هٰذَا يَفْهَمُ مَا جَرَىٰ، وَمَدَحَنِي لِحُسْنِ مَا صَنَعْتُ؛ لَعَظُمَ قَدْرُهُ عِنْدِي، وَلَأَرَيْتُهُ مَحَاسِنَ مَجْمُوْعَاتِي وَكَلامِي، ولٰكِنَّهُ لَمَّا لَمْ أَرَهُ لَهَا أَهْلًا؛ صَرَفْتُهَا عَنْهُ، وَصَدَفْتُ بِنَظَرِي عَنْهُ[4].

وَكَانَتِ الإِشَارَةُ: أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ صَنَّفَ هٰذِهِ المَخْلُوْقَاتِ، فَأَحْسَنَ التَّرْكِيْبَ، وَأَحْكَمَ التَّرْتِيْبَ، ثُمَّ عَرَضَها عَلىٰ الأَلْبَابِ؛ فَأَيُّ لُبٍّ أَوْغَلَ فِي النَّظَرِ؛ مُدِحَ عَلىٰ قَدْرِ فَهْمِهِ، فَأَحَبَّهُ المُصَنِّفُ.

وَكَذٰلِكَ أَنْزَلَ القُرْآنَ يَحْتَوِي عَلىٰ عَجَائِبِ الحِكَمِ؛ فَمَنْ فَتَّشَهُ بِيَدِ الفَهْمِ، وَحَادَثَه فِيْ خَلْوةِ الفِكْرِ؛ اسْتَجْلَبَ رِضا المُتَكَلِّمِ بِهِ، وحَظِيَ بالزُّلْفَىٰ[5] لَدَيْهِ، وَمَنْ كانَ

---

(١) **يشرئب**: يتطاول ليتطلع وينظر. وتأتي بمعنى يتشوف.
(٢) **صدفت**: أعرضت. في الأصل: صرفت.
(٣) في الأصل: جعلت.
(٤) في الأصل: إليه.
(٥) **الزلفى**: القرب والمكانة.

ذِهْنُهُ[1] مُسْتَغْرِقَ الفَهْمِ بِالحِسِّيَّات؛ صُرِفَ عَنْ ذٰلِكَ المَقَام. قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٦٦ - فصل: لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرًا

٣٤١ ـ دَعَوْتُ يَوْمًا **فَقُلْتُ**: اللَّهُمَّ! بَلِّغْنِي آمَالِي مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَأَطِلْ عُمرِي لَأَبْلُغَ مَا أُحِبُّ مِنْ ذٰلِكَ. فَعَارَضَنِي وَسْوَاسٌ مِنْ إِبْلِيْسَ، **فَقَالَ**: ثُمَّ مَاذَا؟ أَلَيْسَ المَوْتُ؟ فَمَا الَّذِي يَنْفَعُ طُوْلُ الحَيَاةِ؟! **فَقُلْتُ لَهُ**: يَا أَبْلَهُ! لَوْ فَهِمْتَ مَا تَحْتَ سُؤَالِي؛ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَبَثٍ. أَلَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَزِيْدُ عِلْمِي وَمَعْرِفَتِي، فَتَكْثُرَ ثِمَارُ غَرْسِي، فَأُشْكَرَ يَوْمَ حَصَادِي[2]؟! أَفَيَسُرُّنِي أَنَّنِي مِتُّ مُنْذُ عِشْرِيْنَ سَنَةً؟! لَا وَاللهِ؛ لَأَنِّي مَا كُنْتُ أَعْرِفُ اللهَ تَعَالَىٰ عُشْرَ مَعْرِفَتِي بِهِ اليَوْمَ. وَكُلُّ ذٰلِكَ ثَمَرَةُ الحَيَاةِ؛ الَّتِي فِيْهَا اجْتَنَيْتُ أَدِلَّةَ الوَحْدَانِيَّةِ، وَارْتَقَيْتُ عَنْ حَضِيْضِ[3] التَّقْلِيْدِ إِلَىٰ يَفَاعِ[4] البَصِيْرَةِ، واطَّلَعْتُ على عُلُومٍ زَادَ بِهَا قَدْرِي، وَتَجَوْهَرَتْ بِهَا نَفْسِي، ثُمَّ زَادَ غَرْسِي لِآخِرَتِي، وَقَوِيَتْ تِجَارَتِي فِيْ إِنْقَاذِ المُبَاضِعِيْنَ[5] مِنَ المُتَعَلِّمِيْنَ. وَقَدْ قَالَ اللهُ **لِسَيِّدِ المُرْسَلِيْنَ**: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وَفِي (صَحِيْحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النبيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَزِيْدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيْرًا**»[6]. وَفِي حَدِيْثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُوْلَ عُمُرُ العَبْدِ، وَيَرْزُقَهُ اللهُ ﷻ الإِنَابَةَ**»[7].

فَيَا لَيْتَنِي قَدَرْتُ عَلَىٰ عُمُرِ نُوْحٍ؛ فَإِنَّ العِلْمَ كَثِيْرٌ، وَكُلَّمَا حَصَلَ مِنْهُ حَاصِلٌ؛ رَفَعَ وَنَفَعَ.

---

(١) في الأصل: للذهن.

(٢) في حاشية الأصل: في الهندية: فأستكثر بذري يوم حصادي.

(٣) **الحضيض**: الأرض المنخفضة.

(٤) **اليفاع**: ما ارتفع من الأرض.

(٥) **المباضعين**: الذين يضاربون بأموالهم.

(٦) مسلم (٢٠٦٥).

(٧) رواه أحمد (٣/ ٣٣٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٠) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٦): إسناده حسن.

٦٧ - فصل: طوبى لمن عرف المسبِّبَ وتعلق به

٣٤٢ ـ قُلُوبُ العَارِفِيْنَ يُغَارُ عَلَيْهَا مِنَ الأَسْبَابِ، وَإِنْ كَانَتْ لا تُسَاكِنُهَا؛ لِأَنَّهَا لَمَّا انْفَرَدَتْ لِمَعْرِفَتِهَا؛ انْفَرَدَ لَهَا بِتَوَلِّي أُمُوْرِهَا؛ فَإِذَا تَعَرَّضَتْ بِالأَسْبَابِ؛ مَحَا أَثَرَ الأَسْبَابِ. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥].

٣٤٣ ـ وَتَأَمَّلْ فِيْ حَالِ يَعْقُوْبَ وَحَذَرِهِ عَلَىٰ يُوْسُفَ عليه السلام، حَتَّىٰ قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، فَقَالُوْا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، فَلَمَّا جَاءَ أَوَانُ الفَرَجِ؛ خَرَجَ يَهُوْذَا بِالقَمِيْصِ، فَسَبَقَهُ الرِّيْحُ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

٣٤٤ ـ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ يُوْسُفَ عليه السلام للسَّاقي: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فَعُوْقِبَ بِأَنْ لَبِثَ سَبْعَ سِنِيْنَ، وَإِنْ كَانَ يُوْسُفُ عليه السلام يَعْلَمُ أَنَّهُ لا خَلَاصَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَأَنَّ التَّعَرُّضَ بِالأَسْبَابِ مَشْرُوْعٌ؛ غَيْرَ أَنَّ الغَيْرَةَ أَثَّرَتْ فِي العُقُوْبَةِ.

٣٤٥ ـ وَمِنْ هٰذِهِ قِصَّةُ مَرْيَمَ عليها السلام: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فَغَارَ المُسَبِّبُ مِنْ مُسَاكَنَةِ الأَسْبَابِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٣٤٦ ـ وَمِنْ هٰذا القَبِيْلِ ما يُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّه قَالَ: «**أَبَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**»[(١)].

٣٤٧ ـ وَالأَسْبَابُ طَرِيْقٌ، وَلا بُدَّ مِنْ سُلُوْكِها، والعَارِفُ لا يُسَاكِنُهَا؛ غَيْرَ أَنَّهُ يُجَلَّىٰ لَهُ مِنْ أَمْرِهَا مَا لا يُجَلَّىٰ لِغَيْرِهِ مِنْ أَنَّهَا لا تُسَاكَنُ، وَرُبَّمَا عُوقِبَ[(٢)] إِنْ مَالَ إِلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ مَيْلًا لا يَقْبَلُهُ؛ غَيْرَ أَنَّ أَقَلَّ الهَفَوَاتِ يُوْجِبُ الأَدَبَ[(٣)].

وَتَأَمَّلْ عُقْبَى سُلَيْمَانَ عليه السلام لَمَّا قَالَ: «**لَأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ مِئَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ**

---

(١) رواه القضاعي (٥٨٥) وابن عبد البر في التمهيد (٢١/ ٢٠) وفي إسناده أحمد بن طاهر كذاب وعمر بن راشد منكر الحديث.

(٢) في الأصل: عرفت، وهو تصحيف.

(٣) لذلك قالوا: حسنات الأبرار سيئاتُ المقربين.

وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلامًا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ! فَمَا حَمَلَتْ إِلَّا وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ»[1].

٣٤٨ - وَلَقَدْ طَرَقَتْنِي حَالَةٌ أَوْجَبَتِ التَّشَبُّثَ بِبَعْضِ الأَسْبَابِ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنْ ضَرُوْرَةِ ذٰلِكَ لِقَاءُ بَعْضِ الظَّلَمَة، وَمَدَارَاتُهُ بِكَلِمةٍ، فَبَيْنَا أَنَا أُفَكِّرُ فِيْ تِلْكَ الحَالِ؛ دَخَلَ عليَّ قَارِئٌ، فَاسْتَفْتَحَ، فَتَفَاءَلْتُ بِمَا يَقْرَأُ، فَقَرَأَ: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ**﴾ [هود: ١١٣]، فَبُهِتُّ مِنْ إِجَابَتِي عَلىٰ خَاطِرِي، **وَقُلْتُ لِنَفْسِي**: اسمَعِي! فَإِنَّنِي طَلَبْتُ النَّصْرَ فِيْ هٰذِهِ المُدَارَاةِ، فَأَعْلَمَنِي القُرْآنُ أَنَّنِي إِذَا رَكَنْتُ إِلىٰ ظَالِمٍ؛ فَاتَنِي مَا رَكَنْتُ لِأَجْلِهِ مِنَ النَّصْرِ. **فَيَا طُوْبَىٰ لِمَنْ عَرَفَ المُسَبِّبَ، وَتَعَلَّقَ بِهِ؛ فَإِنَّهَا الغَايَةُ القُصْوَىٰ**، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا.

٦٨ - فصل: المؤمن لا يبالغ في الذنوب

٣٤٩ - المُؤْمِنُ لا يُبَالِغُ فِي الذُّنُوْبِ، وَإِنَّمَا يَقْوَى الهَوَىٰ، وَتَتَوَقَّدُ نِيْرَانُ الشَّهْوَةِ، فَيَتَحَدَّرُ؛ وَلَهُ مُرَادٌ لا يَعْزِمُ المُؤْمِنُ عَلىٰ مُوَاقَعَتِهِ، وَلَا عَلَىٰ العَوْدِ بَعْدَ فَرَاغِهِ، وَلا يَسْتَقْصِي فِي الانْتِقَامِ إِنْ غَضِبَ، وَيَنْوِي التَّوْبَةَ قَبْلَ الزَّلَلِ.

٣٥٠ - وَتَأَمَّلْ إِخْوَةَ يُوْسُفَ عليه السلام: فَإِنَّهُمْ عَزَمُوا عَلىٰ التَوْبَةِ قَبْلَ إِبْعَادِ يُوْسُفَ، فقالوا: ﴿**ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ**﴾، ثُمَّ زَادَ ذٰلِكَ تَعْظِيْمًا فَقَالُوْا: ﴿**أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾، ثُمَّ عَزَمُوْا عَلىٰ الإِنَابَةِ فَقَالُوْا: ﴿**وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ**﴾ [يوسف: ٩]، فَلَمَّا خَرَجُوْا بِهِ إِلىٰ الصَّحْرَاءِ؛ هَمُّوا بِقَتْلِهِ بِمُقْتَضَى مَا فِي القُلُوْبِ مِنَ الحَسَدِ، فَقَالَ كَبِيْرُهُمْ: ﴿**لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ**﴾ [يوسف: ١٠]، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَمُوْتَ، بَلْ يَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ، فَأَجَابُوْا إِلَىٰ ذٰلِكَ.

والسَّبَبُ فِي هٰذِهِ الأَحْوَالِ أَنَّ الإِيْمَانَ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّتِهِ؛ فَتَارَةً يَرُدُّها عِنْدَ الهَمِّ، وَتَارَةً يَضْعُفُ فَيَرُدُّها عِنْدَ العَزْمِ، وَتَارَةً عَنْ بَعْضِ الفِعْلِ، فَإِذا غَلَبَتِ الغَفْلَةُ، وَوَاقَعَ

---

[1] رواه البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه

الذَّنْبَ؛ فَتَرَ الطَّبْعُ، فَنَهَضَ الإِيمَانُ لِلْعَمَلِ، فَيُنَغِّصُ بِالنَّدَمِ أَضْعَافَ مَا الْتَذَّ.

٦٩ - فصل: أفضلُ الأشياء التَّزيُّد من العلم

٣٥١ ـ أَفَضَلُ الأَشْياءِ التَّزَيُّدُ من العلم، فإنَّهُ مَنِ اقْتَصَرَ عَلىٰ مَا يَعْلَمُهُ، فَظَنَّهُ كافيًا؛ اسْتَبَدَّ بِرأْيِه، وَصارَ تَعْظِيْمُهُ لِنَفْسِهِ مَانِعًا لَهُ مِنَ الاسْتِفَادَةِ، وَالمُذَاكَرَةُ تُبَيِّنُ لَهُ خَطَأَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ مُعَظَّمًا فِي النُّفُوْسِ، فَلَمْ يُتَجَاسَرْ عَلىٰ الرَدِّ عَلَيْه، وَلَوْ أَنَّه أَظْهَرَ الاسْتِفَادَةَ؛ لأهْدِيَتْ إِلَيْه مَسَاوِئُهُ، فَعَادَ عَنْهَا.

٣٥٢ ـ وَلَقَدْ حَكَىٰ ابْنُ عَقِيْلٍ عَنْ أَبِي المَعَالي الجُوَيْنِيِّ(١): أَنَّه قَاْلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَعْلَمُ جُمَلَ الأَشْيَاءِ وَلا يَعْلَمُ التَّفَاصِيْلَ! وَلا أَدْرِي أَيَّ شُبْهةٍ وَقَعتْ فِيْ وَجْهِ هٰذا المِسْكِيْنِ حَتَّى قَاْلَ هٰذا!. وَكذٰلِكَ أبو حَامِدٍ(٢) حِيْنَ قَاْلَ: النُّزُوْلُ التَّنَقُّلُ، وَالاسْتِوَاءُ مُمَاسَّةٌ. وَكَيْفَ أَصِفُ هٰذا بِالفِقْهِ، أَوْ هٰذَا بِالزُّهْدِ، وَهُوَ لا يَدْرِيْ مَا يَجُوْزُ عَلىٰ اللهِ مِمَّا لا يَجُوْزُ؟! وَلَوْ أَنَّه تَرَكَ تَعْظِيْمَ نَفْسِهِ؛ لَرَدَّ صِبْيَانُ الكُتَّابِ رَأْيَهُ عَلَيْهِ، فَبَانَ لَهُ صِدْقُهُمْ.

٣٥٣ ـ وَمِنْ هٰذَا الفَنِّ أَبُوْ بَكْرِ بْنُ مِقْسَمٍ(٣)؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ كِتَابَ «الاحْتِجَاجِ لِلْقُرَّاءِ» فَأَتَىٰ فِيْهِ بِفَوَائِدَ؛ إِلَّا أَنَّهُ أَفْسَدَ عِلْمَهُ بِإِجَازَتِهِ أَنْ يُقْرَأَ بِمَا لَمْ يُقْرَأْ بِهِ، ثُمَّ تَفَاقَمَ ذٰلِكَ مِنْهُ، حتَّى أَجَازَ مَا يُفْسِدُ المَعْنَىٰ؛ مثلَ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فَقَالَ: يَصْلُحُ أن يُقالَ هنا: (نُجِيًّا) أي خَلَصُوا كِرَامًا بُرَآءَ مِنَ

---

(١) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني إمام الحرمين (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ): من أئمة الشافعية والأصوليين والمتكلمين، صاحب المصنفات العظيمة. انظر: حول هذه المسألة التي حكاها ابن عقيل سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٢ ـ ٤٧٥).

(٢) محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فقيه متصوف، متكلم، أصولي ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ) ودرس في نظامية بغداد ورحل إلى دمشق فبيت المقدس فالإسكندرية ثم عاد إلى بلده طوس وتوفي في طابران سنة (٥٠٥هـ) وإمامة كل من الغزالي وإمام الحرمين ووصفهما بالفقه والزهد لا تتوقف على شهادة ابن الجوزي رحمهم الله جميعًا. وهذا لا يقتضي لهما العصمة فكل يؤخذ ويرد عليه إلّا النبي ﷺ. كما أن خطأ أحدهم لا يقدح في مكانته وعلمه.

(٣) محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم العطار، أبو بكر (٢٦٥ ـ ٣٥٤هـ)، عالم بالقراءات والعربية.

alukah.com

السَّرِقةِ. وهٰذا سُوْءُ فَهْمٍ لِلْقِصّةِ؛ فَإِنَّ الّذِي نُسِبَ إِلَىٰ السَّرِقةِ، فَظَهَرَتْ مَعَهُ مَا خَلَصَ؛ فَمَا الّذِي يَنْفَعُ خَلاصُهُمْ؟! وَإِنَّمَا سِيْقَتِ القِصَّةُ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمُ انْفَرَدُوْا وَتَشَاوَرُوْا فِيْمَا يَصْنَعونَ، وَكَيْفَ يَرْجِعُوْنَ إِلَىٰ أَبِيْهِم، وَقَدِ احْتُبِسَ أَخُوْهُمْ؛ فَأَيُّ وَجْهٍ لِلنَّجاةِ ها هنا؟!

وَمَنْ تَأَمَّلَ كِتَابَهُ؛ رَأَىٰ فِيْهِ مِنْ هٰذا الجِنْسِ مَا يَزِيْدُ عَلىٰ الإِحْصَاءِ، أكثره[1] مِنْ هٰذا الفَنِّ القَبِيْحِ، وَلَوْ أَنَّه أَصْغَىٰ إِلَىٰ عُلَمَاءِ وَقْتِه، وَتَرَكَ تَعْظِيْمَ نَفْسِهِ؛ لَبَانَ لَهُ الصَّوَابُ.

غَيْرَ أَنَّ اقْتِصَارَ الرَّجُلِ عَلىٰ عِلْمِهِ إِذَا مَازَجَهُ نَوْعُ رُؤْيَةٍ لِلنَّفْسِ؛ حَبَسَ عَن إِدْرَاكِ الصَّوابِ. نَعُوْذُ باللهِ مِنْ ذٰلِكَ.

٧٠ - فصل: الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان

٣٥٤ ـ تَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، فَرَأَيْتُ فِيْهِ مَعْنًى عَجِيْبًا: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمّا وُهِبَتْ لَهُمُ العُقُوْلُ، فَتَدَبَّروا بِهَا عَيْبَ الأَصْنَام، وَعَلِمُوْا أَنَّهَا لا تَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ، فَوَجَّهُوا العِبَادَةَ إِلَى مَنْ فَطَرَ الأَشْيَاءَ: كَانَتْ هٰذِهِ المعرِفَةُ ثَمَرَةَ العَقْلِ المَوْهُوْبِ لهم، الّذِي بِهِ بَايَنُوْا البَهَائِمَ؛ فَإِذَا أَمَنُّوْا بِفِعْلِهِمُ الذِي نَدَبَ إِلَيْه العَقْلُ الموهوبُ؛ فَقَدْ جَهلوا قَدْرَ المَوْهُوْب، وَغَفَلُوْا عَمَّنْ وَهَبَ. وَأَيُّ شَيْءٍ لَهُمْ فِي الثَّمَرةِ وَالشَّجَرَةُ لَيْسَتْ مُلْكًا لَهُمْ؟!

فَعَلَىٰ هٰذا؛ كُلُّ مُتَعَبِّدٍ وَمُجْتَهِدٍ فِيْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ إِنَّمَا رَأَىٰ بِنُوْرِ اليَقَظَةِ وَقُوَّةِ الفَهْمِ وَالعَقْلِ صَوَابًا، فَوَقَعَ عَلىٰ المَطْلُوْبِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُوَجِّهَ الشُّكْرَ إِلَىٰ مَنْ بَعَثَ لهُ فِيْ ظَلامِ الطَّبْعِ القَبَسَ.

٣٥٥ ـ وَمِنْ هٰذَا الفَنِّ حَدِيْثُ **الثَّلَاثَةِ الّذِيْنَ دَخَلُوْا الغَارَ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، فَسَدَّتْ بَابَ الغَارِ، فَقَالُوْا: تَعَالَوْا نَتَوَسَّلْ بِصَالِحِ أَعْمَالِنَا! فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمْ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا**[2]..

---

(١) في الأصل: أكثر.

(٢) رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وَهٰؤلاءِ: إِنْ كَانُوْا لاحَظُوْا نِعْمَةَ الوَاهِبِ لِلْعِصْمَةِ عَنِ الخَطَأ، فَتَوَسَّلُوْا بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْجَبَ تَخْصِيْصَهُمْ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ عَنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ؛ فَبِهِ تَوَسَّلُوْا[1] إِلَيْهِ. وَإِنْ كَانُوْا لَاحَظُوْا أَفْعَالَهُمْ، فَلَمَحُوْا جَزَاءَهَا، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِيْنَ فَعَلُوْا؛ فَهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ لا حُضُوْرٍ، وَيَكُوْنُ جَوَابُ مَسْأَلَتِهِم لِقَطْعِ مِنَنِهِمْ الدَّائِمَةِ.

٣٥٦ ـ وَمِثْلُ هٰذِهِ رُؤْيَةُ المُتَّقِي تَقْوَاهُ، حَتَّى إِنَّه يَرَىٰ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيْرٍ مِنَ الخَلْقِ، وَرُبَّمَا احْتَقَرَ أَهْلَ المَعَاصِي، وَشَمَخَ عَلَيْهِمْ! وَهٰذِهِ غَفْلَةٌ عَنْ طَرِيْقِ السُّلُوْكِ، وَرُبَّمَا أَخْرَجَتْ.

٣٥٧ ـ وَلا أَقُوْلُ لَكَ: خَالِطِ الفُسَّاقَ احْتِقَارًا لِنَفْسِكَ! بَلِ اغْضَبْ عَلَيْهِمْ في البَاطِنِ، وَأَعْرِضْ عَنْهُم في الظَّاهِرِ، ثُمَّ تَلَمَّحْ جَرَيانَ الأَقْدَارِ عَلَيْهِمْ! **فَأَكْثَرُهُمْ** لا يَعْرِفُ مَنْ عَصَىٰ! **وَجُمْهُوْرُهُمْ** لا يَقْصِدُ العِصْيَانَ، بَلْ يُرِيْدُ مُوَافَقَةَ هَوَاهُ، وَعَزِيْزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْصِيَ! **وَفِيْهِمْ** مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ تَلَمُّحُ العَفْوِ والحِلْمِ، فَاحْتَقَرَ مَا يَأْتِي؛ لِقُوَّةِ يَقِيْنِهِ بِالعَفْوِ!

وَهٰذِه كُلُّهَا لَيْسَتْ بِأَعْذَارٍ[2] لَهُمْ، وَلٰكِنْ؛ تَلَمَّحْه أَنْتَ يَا صَاحِبَ التَّقْوَىٰ! وَاعْلَمْ أَنَّ الحُجَّةَ عَلَيْكَ أَوْفَىٰ مِنَ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّكَ تَعْرِفُ مَنْ تَعْصِي، وَتَعْلَمُ ما تَأْتِي، بَلِ انْظُرْ إِلَىٰ **تَقْلِيْبِ القُلُوْبِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ**؛ فَرُبَّما دَارَتِ الدَّائِرَةُ، فَصِرْتَ المُنْقَطِعَ، وَوُصِلَ المَقْطُوْعُ. فَالعجَبُ مِمَّنْ يُدِلُّ[3] بِخَيْرٍ عَمِلَهُ، وَيَنْسَىٰ مَنْ أَنْعَمَ وَوَفَّقَ.

٧١ - فصل: شرعنا مضبوط الأصول محروس القواعد

٣٥٨ ـ اعْلَمْ أَنَّ شَرْعَنَا مَضْبُوْطُ الأُصُوْلِ، مَحْرُوْسُ القَوَاعِدِ، لا خَلَلَ فِيْهِ ولا دَخَلَ[4]، وَكَذٰلِكَ كُلُّ الشَّرَائِعِ.

٣٥٩ ـ إِنَّمَا الآفَةُ تَدْخُلُ مِنَ المُبْتَدِعِيْنَ فِي الدِّينِ أَوِ الجُهَّالِ، مِثْلُ مَا أُثِرَ عَنْ

---

(١) في الأصل: فتوسلوا.
(٢) في الأصل: باعتذار، وهو تصحيف.
(٣) **يدل بخير عمله**: يفخر به، ويرى لنفسه فضلًا وشأنًا.
(٤) **الدخل**: الفساد.

النَّصَارَىٰ حِيْنَ رَأَوْا إِحْيَاءَ المَوْتَىٰ عَلىٰ يَدِ عِيْسَىٰ عليه السلام، فَتَأَمَّلوا الفِعْلَ الخَارِقَ لِلْعَادَةِ، الذِي لا يَصْلُحُ لِلْبَشَرِ، فَنَسَبُوا الفَاعِلَ إِلىٰ الإِلٰهِيَّةِ. وَلَوْ تَأَمَّلوا ذَاتَهُ[1]؛ لَعَلِمُوْا أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ عَلىٰ النَّقَائِصِ والحَاجَاتِ، وَهٰذا القَدْرُ يَكْفِي فِي عَدَمِ صَلاحِ إِلٰهِيَّتِه، فيُعْلَمُ حِيْنَئِذٍ أَنَّ ما جَرَىٰ عَلىٰ يَدَيْهِ فِعْلُ غَيْرِهِ.

٣٦٠ ـ وَقَدْ يُؤْثَرُ ذٰلِكَ في الفُرُوْعِ؛ مِثْلُ ما رُوِيَ أَنَّه فُرِضَ عَلىٰ **النَّصَارَىٰ** صَوْمُ شَهْرٍ، فَزَادُوْا عِشْرِيْنَ يَوْمًا، ثُمَّ جَعَلُوْهُ فِيْ فَصْلٍ مِنَ السَّنَةِ بِآرَائِهِم. وَمِنْ هٰذا الجِنْسِ تَخْبِيْطُ اليَهُوْدِ فِي الأُصُوْلِ وَالفُرُوْعِ.

٣٦١ ـ وَقَدْ قَارَبَ الضَّلالُ فِي أُمَّتِنا هٰذِهِ المَسَالِكَ، وَإِنْ كَانَ عُمُوْمُهُمْ قَدْ حُفِظَ مِنَ الشِّرْكِ وَالشَّكِّ والخِلَافِ الظَّاهِرِ الشَّنِيْعِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْقَلُ الأُمَمِ وَأَفْهَمُهَا؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطانَ قَارَبَ بِهِمْ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِي إِغْرَاقِهِمْ، وَإِنْ كانَ قَدْ أَغْرَقَ بَعْضَهُمْ فِي بِحَارِ الضَّلالِ.

٣٦٢ ـ فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّ **الرَّسُوْلَ** ﷺ جَاءَ بِكِتَابٍ عَزِيْزٍ مِنَ اللهِ ﷻ، قِيْلَ فِي صِفَتِهِ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وَبَيَّنَ مَا عَسَاهُ يُشْكِلُ[2] مِمَّا يَحْتَاجُ إِلىٰ بَيَانِهِ بِسُنَّتِهِ؛ كَمَا قِيْلَ لَهُ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فَقَالَ بَعْدَ البَيَانِ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلىٰ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ**»[3]. فَجَاءَ أَقْوَامٌ فَلَمْ يَقْنَعُوْا بِتَبْيِينِهِ، وَلَمْ يَرْضَوْا بِطَرِيْقَةِ أَصْحَابِهِ، فَبَحَثُوْا، ثُم انْقَسَمُوْا: **فَمِنْهُمْ** مَنْ تَعَرَّضَ لِمَا تَعِبَ الشَّرْعُ[4] في إِثْبَاتِه في القُلُوْبِ فَمَحَاهُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ القُرْآنَ والحَدِيْثَ يُثْبِتانِ الإِلٰه ﷻ بِأَوْصَافٍ تُقَرِّرُ وُجُوْدَهُ فِي النُّفُوْسِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**يَنْزِلُ اللهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»، «**وَيَبْسُطُ يَدَهُ لِمُسِيْءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»[5]، وَ«**يَضْحَكُ**»، و«**يَغْضَبُ**»[6]. وَكُلُّ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ ـ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُها يُوْجِبُ تَخَايُلَ

---

(١) **ذاته**: ذات عيسى عليه السلام.
(٢) **يشكل**: يلتبس معناه ويستعصي فهمه.
(٣) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ و٤٤) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.
(٤) أي: بالغ.
(٥) رواه مسلم (٢٧٥٩) عن أبي موسى رضي الله عنه.
(٦) الآيات التي تدل على غضب الله والعياذ بالله كثيرة. انظر: سورة النساء الآية (٩٣).

التَّشْبِيْهِ ـ فَالمُرَادُ مِنْهَا إِثْبَاتُ مُوَجُوْدٍ، فَلمَّا عَلِمَ الشَّرْعُ مَا يَطْرُقُ القُلُوْبَ مِنَ التَّوهُّمَاتِ عَنْدَ سَمَاعِها؛ قَطَعَ ذٰلِكَ بِقَوْلِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٣٦٣ ـ ثُمَّ إِنَّ هٰؤلاءِ القَوْمِ عَادُوْا إِلَىٰ القُرْآنِ الّذِي هُوَ المُعْجِزُ الأَكْبرُ، وَقَدْ قَصَدَ الشَّرْعُ تَقْرِيْرَ وُجُوْدِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وَأَثْبَتَهُ فِي القُلُوْبِ بِقَوْلِه تَعَالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وَفِي المَصَاحِفِ بِقَوْلِه تَعَالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢]، وقول الرَّسُوْلِ ﷺ: «لا تُسَافِرُوْا بِالقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ العَدُوِّ». فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ هٰؤلاءِ: مَخْلُوْقٌ! فَأَسْقَطُوْا حُرْمَتَهُ مِنَ النُّفُوْسِ، وَقَالُوْا: لَمْ يَنْزِلْ! وَلا يُتَصَوَّرُ نُزُولُه! وَكَيْفَ تَنْفَصِلُ الصِّفَةُ عَنِ المَوْصُوْفِ؟! وَلَيْسَ في المُصْحَفِ إِلَّا حِبْرٌ وَوَرَقٌ! فَعادُوْا عَلىٰ مَا تَعِبَ الشَّارِعُ فِي إِثْبَاتِهِ بِالمَحْوِ.

٣٦٤ ـ كَمَا قَالُوْا: إِنَّ اللهَ ﷻ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ! وَلَا يُقَالُ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ! وَلَا يَنْزِلُ إِلىٰ السَّمَاءِ الدُّنيا! بَلْ ذَاكَ رَحْمَتُه!! فَمَحَوا مِنَ القُلُوبِ مَا أُرِيْدَ إِثباتُهُ فِيْهَا، وَلَيْسَ هٰذا مُرَاد الشَّارِع.

٣٦٥ ـ وَجَاءَ آخَرُوْنَ، فَلَمْ يَقِفُوا عَلىٰ مَا حَدَّهُ الشَّرْعُ، بَلْ عَمِلُوْا فِيْهِ بِآرَائِهِم، فَقَالُوْا: اللهُ عَلىٰ العَرْشِ، وَلَمْ يَقْنَعوا بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وَدَفَنَ لَهُمْ أَقْوَامٌ مِنْ سَلَفِهِمْ دَفَائِنَ، وَوَضَعَتْ لَهُمُ المَلاحِدَةُ أَحَادِيْثَ، فَلَمْ يَعْلَمُوْا مَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ مِمَّا لَا يَجُوْزُ، فَأَثْبَتُوْا بِهَا صِفَاتٍ جَمْهُوْرُ الصَّحِيْحِ مِنْهَا آتٍ عَلىٰ تَوَسُّعِ العَرَبِ، فَأَخَذُوْهُ هُمْ عَلىٰ الظَّاهِرِ، فَكَانُوْا فِي ضَرْبِ المَثَلِ **كَجُحَا**[1]؛ فَإِنَّ أُمَّه قَالَتْ لَهُ: احْفَظِ البَابَ! فَقَلَعَهُ وَمَشَىٰ بِهِ، فَأُخِذَ ما فِي الدَّارِ، فَلَامَتْهُ أُمُّهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتِ: احْفَظِ البَابَ، وَمَا قُلْتِ: احْفَظِ الدَّارَ!!

٣٦٦ ـ وَلَمَّا تَخَايَلُوْا صُوْرَةً عَظِيْمَةً عَلىٰ العَرْشِ؛ أَخَذُوْا يَتَأَوَّلُوْنَ مَا يُنَافِي

---

(١) جحا الكوفي الفزاري، أبو الغصن صاحب النوادر، يضرب به المثل في الحمق والغفلة، قال صاحب القاموس: اسمه دجين بن ثابت، توفي سنة (١٣٠هـ) تقريبًا.

وُجُوْدَها عَلىٰ العَرْشِ: مِثل قَوْلِه: «**وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي؛ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1]، فَقَالُوْا: لَيْسَ المُرَادُ بِهِ دُنُوَّ [الاقْتِرَابِ][2]، وَإِنَّمَا المُرَادُ قُرْبَ المَنْزِلِ وَالحَظِّ!!

٣٦٧ ـ وَقَالُوْا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠]: هُوَ مَحْمُوْلٌ عَلىٰ ظاهِرِهَا فِي مَجِيْءِ الذَّاتِ. فَهُمْ يُحِلُّونَهُ عَامًا، ويُحَرِّمونَه عَامًا. وَيُسَمُّوْنَ الإِضَافَاتِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالى صِفَاتٍ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَضَافَ إِلَيْهِ النَّفْخَ والرُّوْحَ.

٣٦٨ ـ وَأَثْبَتُوْا خَلْقَهُ بِاليَدِ؛ فَلَوْ قَالُوْا: خَلَقَهُ[3]؛ لَمْ يُمْكِنْ إِنْكَارُ هٰذا، بَلْ قَالُوْا: هِيَ صِفَةٌ تَوَلَّى بِهَا خَلْقَ آدَمَ دُوْنَ غَيْرِهِ؛ فَأَيُّ مَزِيَّةٍ كَانَتْ تَكُوْنُ لِآدَمَ؟! فَشَغَلَهُمُ النَّظَرُ فِي فَضِيْلَةِ آدَمَ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ مَا هُوَ يَلِيْقُ بِالْحَقِّ مِمَّا لا يَلِيْقُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ لا يَجُوْزُ عَلَيْهِ المَسُّ، وَلا العَمَلُ بِالآلاتِ، وَإِنَّمَا آدَمُ أَضَافَهُ إِلَيْهِ.

٣٦٩ ـ وَقَالُوْا[4]: نُطْلِقُ عَلىٰ اللهِ تَعَالى اسْمَ الصُّوْرَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «**خَلَقَ آدَمَ عَلىٰ صُورَتِهِ**»، وَفَهِمُوْا هٰذا الحَدِيْثَ، وَهُوَ قَوْلُه ﷺ: «**إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ؛ فَلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ، وَلَا يَقُلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ، وَلا وَجْهًا أَشْبَهَ وَجْهَكَ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلىٰ صُوْرَتِهِ**»[5].

فَلَوْ كَانَ المُرَادُ بِهِ اللهَ ﷻ؛ لَكَانَ وَجْهُ اللهِ سُبْحَانَهُ يُشْبِهُ وَجْهَ هٰذا المُخَاصِمِ؛ لِأَنَّ الحَدِيْثَ كَذَا جَاءَ: «**وَلا وَجْهًا أَشْبَهَ وَجْهَكَ**».

٣٧٠ ـ وَرَوَوْا حَدِيْثَ **خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيْمٍ**: «**وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بِوَجٍّ**»[6]!! وَمَا عَلِمُوَا النَّقْلَ وَلا السِّيَرَ، وَقَوْلَ الرَّسُوْلِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ! اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلىٰ مُضَرَ**»[7]، وَأَنَّ المُرَادَ بِهِ آخِرُ وَقْعَةٍ قَاتَلَ فِيْهَا المُسْلِمُوْنَ **بِوَجٍّ**[8]، وَهِيَ غَزَاةُ **حُنَيْنٍ**، فَقَالُوْا: نَحْمِلُ الخَبَرَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَأَنَّ اللهَ وَطِئَ ذٰلك المَكَانَ!! وَلا شَكَّ أَنَّ عِنْدَهُمْ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في الأصل: الباب.
(٣) أي: آدم.
(٤) في الأصل: فقالوا.
(٥) رواه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) رواه أحمد (٤/ ١٧٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٧٥/ ٧٠٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٥٨١) وفي سنده سعيد بن أبي راشد لم يوثقه إلا ابن حبان، وعبد الله بن عثمان بن خثيم لين أمره الذهبي في الميزان (منكر).
(٧) رواه البخاري (٨٠٣)، ومسلم (٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٨) **وج**: وادٍ قرب الطائف.

أَنَّ اللهَ تَعالىٰ كَانَ فِيْ الأَرْضِ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَىٰ السَّماءِ[1]!!

٣٧١ - وَكَذٰلِكَ قَالُوْا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»، قَالُوْا: يَجُوْزُ أَنَّ اللهَ يُوْصَفُ بِالمَلَلِ، فَجَهِلُوْا اللّغَةَ، وَمَا عَلِمُوْا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ (حَتَّىٰ) ها هُنَا لِلْغَايَةِ؛ لَمْ تَكُنْ بِمَدْحٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَلَّ حِيْنَ يُمَلُّ؛ فَأَيُّ مَدْحٍ؟! وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ[2]:

صَلِيَتْ مِنِّي هُذَيْلٌ بِخَرْق ... لَا يَمَلُّ الشَّرَّ حَتَّى يَمَلُّوا

والمعنى: لا يَمَلُّ وَإِنْ مَلُّوا.

٣٧٢ - وَقَالُوْا فِي قَوْلِه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ، تتعَلَّقُ بِحَقْوَي الرَّحْمٰنِ**»[3]، فَقَالُوْا: الحَقْوُ صِفَةُ ذاتٍ.

٣٧٣ - وَذَكَرُوْا أَحَادِيْثَ لَوْ رُوِيَتْ - فِيْ نَقْضِ الوُضُوْءِ - مَا قُبِلَتْ، وَعُمُوْمُها وَضَعَتْهُ المَلاحِدَةُ.

٣٧٤ - كَمَا يُرْوَىٰ عَنْ **عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو**؛ قَالَ: **خَلَقَ اللهُ المَلَائِكَةَ مِنْ نُوْرِ الذِّرَاعَيْنِ وَالصَّدْرِ**[4]؛ فَقَالُوا: نُثْبِتُ هٰذَا عَلَىٰ ظَاهِرِه، ثُمَّ أَرْضَوُا العَوَامَّ بِقَوْلِهِم: وَلَا نُثْبِتُ جَوَارِحَ! فَكَأَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ: فُلَانٌ قَائِمٌ وَمَا هُوَ قَائِمٌ!!

فَاخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ: هَلْ يُطْلَقُ عَلىٰ اللهِ ﷻ أَنَّهُ جَالِسٌ أَوْ قَائِمٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَهٰؤلاءِ أَخَسُّ فَهْمًا مِنْ **جُحَا**؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾: لا يُرَادُ بِهِ القِيَامُ، وإنما هو كما يُقَالُ: الأَمِيْرُ قائمٌ بالعَدلِ.

وإِنَّما ذَكَرْتُ بَعْضَ أقوالِهِمْ، لئلا يُسْكَنَ إلى شَيْءٍ منها، فالحذَرُ من هَؤلاء عبادَةٌ، وَإِنَّما الطَّرِيْقُ طَرِيْقُ السَّلَفِ.

---

(١) لا يقول بهذا أحد من المسلمين فضلًا عن العلماء.

(٢) هي للشنفرى كما في الحماسة (١/٥٣٨)، وجاء في الأصل: جلبت، وهو تصحيف، والتصويب من الحماسة.

(٣) رواه أحمد (٣٢١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٣٧، ٥٣٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما و(**الشجنة**): الغصن المتشابك، أي: قرابة مشتبكة العروق، و(**الحقو**): الخصر.

(٤) هذه من الإسرائيليات.

٣٧٥ ـ عَلىٰ أَنَّنِي أَقُوْلَ لَكَ: قَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبل رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: **مِنْ ضِيْقِ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يُقَلِّدَ فِيْ دِيْنِهِ الرِّجَالَ**. فلا يَنْبَغِي أَنْ تَسْمَعَ مِنْ مُعَظَّم فِيْ النُّفُوْسِ شَيْئًا فِي الأُصُوْلِ فَتُقَلِّده فِيْهِ، وَلَوْ سَمِعْتَ عَنْ أَحَدِهِمْ مَا لَا يُوَافِقُ الأُصُوْلَ الصَّحِيْحَةَ؛ فَقُلْ: هٰذا مِنَ الرَّاوِي؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْ ذٰلِكَ الإِمَامِ أَنَّهُ لا يَقُوْلُ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِهِ؛ فَلَوْ قَدَّرْنَا صِحَّتَهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لا يُقَلَّدُ فِي الأُصُوْلِ وَلَا أَبُوْ بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ رضي الله عنهما. **فهٰذا أَصْلٌ يَجِبُ البِنَاءُ عَلَيْهِ؛ فلا يَهُوْلَنَّكَ ذِكْرُ مُعَظَّم فِي النُّفُوْسِ، وَكَانَ المَقْصُوْدُ مِنْ شَرْحِ هٰذا أَنَّ دِيْنَنَا سَلِيْمٌ، وَإِنَّمَا أَدْخَلَ أَقْوَامٌ فِيْهِ ما تَأَذَّيْنا بِهِ.**

٣٧٦ ـ وَلَقَدْ أَدْخَلَ المُتَزَهِّدُوْنَ فِي الدِّيْنِ مَا يُنَفِّرُ النَّاسَ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَفْعَالَهم، فَيَسْتَبْعِدُوْنَ الطريقَ، وَأَكْثَرُ أَدِلَّةِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ **القُصَّاصُ**؛ فَإِنَّ العَامِّيَّ إِذَا دَخَلَ إِلَىٰ مَجْلِسِهِمْ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ الوُضُوْءَ؛ كَلَّمُوْهُ بِدَقَائِقِ الجُنَيْدِ[1] وَإِشَارَاتِ الشِّبْلِيِّ، فَرَأَىٰ ذٰلِكَ العَامِّيُّ أَنَّ الطَّرِيْقَ الوَاضِحَ لُزُوْمُ زَاوِيَةٍ، وَتَرْكُ الكَسْبِ لِلْعَائِلَةِ، وَمُنَاجَاةُ الحَقِّ فِيْ خَلْوَةٍ عَلىٰ زَعْمِهِ؛ مَعَ كَوْنِهِ لا يَعْرِفُ أَرْكَانَ الصَّلاةِ، وَلا أَدَبَهُ العِلْمُ، وَلا قَوَّمَ أَخْلَاقَهُ شَيْءٌ مِنْ مُخَالَطَةِ العُلَمَاءِ!! فَلا يَسْتَفِيْدُ مِنْ خَلْوَتِهِ إِلَّا كَمَا يَسْتَفِيْدُ الحِمَارُ مِنَ الإِصْطَبْلِ؛ فَإِنِ امْتَدَّ عَلَيْهِ الزَّمَانُ فِي تَقَلُّبِهِ؛ زَادَ يَبْسُهُ، فَرُبَّمَا خَايَلَتْ لَهُ المَالِيْخُوْلِيا[2] أَشْبَاحًا، يَظُنُّهُم المَلائِكَةَ، ثُمَّ يُطَأْطِئُ رَأْسَه، وَيَمُدُّ يَدَهُ لِلتَّقْبِيْلِ!!

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ أَكَّارٍ[3] تَرَكَ الزَّرْعَ، وَقَعَدَ فِي زَاوِيَةٍ، فَصَارَ إِلَىٰ هٰذِهِ الحَالَةِ، فاسْتَرَاحَ مِنْ تَعَبِهِ!! فَلَوْ قِيْلَ لَهُ: عُدْ مَرِيْضًا! قَالَ: مَا لِي عَادَةٌ ـ **فَلَعَنَ اللهُ عَادَةً تُخَالِفُ الشَّرِيْعَةَ** ـ فَيَرَىٰ العَامَّةُ[4] بِمَا يُوْرِدُهُ القُصَّاصُ ـ أَنَّ طَرِيْقَ الشَّرْعِ هٰذِهِ، لا الَّتِي عَلَيْهَا الفُقَهَاءُ، فَيَقَعُوْنَ فِي الضَّلَالِ.

٣٧٧ ـ وَمِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ مَنْ لا يُبالِي عَمِلَ بالشَّرْعِ أَمْ لَا!! **ثُمَّ يَتَفَاوَتُ جُهَّالُهم: فَمِنْهُم مَنْ سَلَكَ مَذْهَبَ الإِبَاحَة، وَيَقُوْلُ: الشَّيْخُ لا يُعَارَضُ، وَيَنْهَمِكُ فِي المَعَاصِي!!.**

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخراز، أبو القاسم، من أئمة الصوفية العلماء بالدين، مولده ونشأته ببغداد، توفي سنة (٢٩٧هـ).

(٢) الماليخوليا: مرض عقلي من مظاهره فساد التفكير.

(٣) **أكار**: فلاح.

(٤) في الأصل: العامي.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ نَامُوسَهُ، فَيُفْتِي بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ لِئَلَّا يُقَالَ: الشَّيْخُ لا يَدْرِي!!

٣٧٨ ـ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي الشَّيْخُ **أَبُوْ حَكِيْمٍ**[١] رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: **أَنَّ الشَّرِيْفَ الدَّحَّالِيَّ** ـ وَكَانَ يُقصَدُ، فَيُزَارُ، ويُتَبَرَّكُ به ـ حَضَرَ عِنْدَهُ يَوْمًا، فَسُئِلَ أبو حَكِيْم: هَلْ تَحِلُّ المُطَلَّقَةُ ثلاثًا إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا؟ قَالَ: فَقُلْتُ: لا وَالله. فَقَالَ لي الشَّرِيْفُ: اسْكُتْ! فَوَاللهِ؛ لَقَدْ أَفْتَيْتُ النَّاسَ بِأَنَّها تَحِلُّ مِنْ ها هنا إِلىٰ البَصْرَةِ.

٣٧٩ ـ وَحَكَىٰ لِي الشَّيْخُ أَبُوْ حَكِيْم أَنَّ جَدَّ آزاد[٢] الحَدَّاد ـ وَكَانَ يَتَوَسَّمُ بِالعِلْمِ ـ جَاءَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ، فَزوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ، وَلَمْ يَسْأَلْ عَنْ انْقِضَاءِ العِدَّةِ، فَاعْتَرَضَهَا الحَاكِمُ، وَفَرَّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الزَّوْجِ، وَأَنْكَرَ عَلىٰ المُزَوِّجِ، فَلَقِيَتْهُ المَرْأَةُ، فَقَالَتْ: يا سيِّدِي! أَنَا امْرَأَةٌ لا أَعْلَمُ؛ فَكَيْفَ زَوَّجْتَنِي؟! فَقَالَ: دَعِي حَدِيْثَهُمْ! مَا أَنْتِ إِلَّا طاهِرَةٌ مُطهَّرَةٌ!!

٣٨٠ ـ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الفُقَهَاءِ عَنْ رَجُلٍ مِنَ العُبَّادِ أَنَّه كَانَ يَسْجُدُ للسَّهْوِ سِنِيْنَ، وَيَقُوْلُ: واللهِ؛ مَا سَهَوْتُ، ولٰكِنْ أَفْعَلُهُ احْتِرَازًا! **فَقَالَ لَهُ الفَقِيْهُ**: قد بَطَلَتْ صَلَاتُك كُلُّها؛ لأَنَّكَ زِدْتَ سُجُوْدًا غَيْرَ مَشْرُوْعٍ!!

٣٨١ ـ ثُمَّ مِنَ الدَّخَلِ الّذِي دَخَلَ دِينَنا طَرِيْقُ **المُتَصَوِّفَةِ**؛ فَإِنَّهُمْ سَلَكُوْا طُرُقًا أَكْثَرُهَا تُنَافِي الشَّرِيْعَةَ، وَأَهْلُ التَّدَيُّنِ مِنْهُمْ يُقَلِّلُوْنَ وَيُخَفِّفُوْنَ، وهٰذَا لَيْسَ بِشَرْعٍ. حَتَّىٰ إِنَّ رَجُلًا كَانَ قَرِيْبًا مِنْ زَمَانِي، يُقَالُ لَهُ: كَثِيْرٌ، دَخَلَ إِلَىٰ جَامِعِ المَنْصُوْرِ، وَقَالَ: عَاهَدْتُ اللهَ عَهْدًا وَنَقَضْتُهُ؛ فَقَدْ أَلْزَمْتُ نَفْسِي أَنْ لا تَأْكُلَ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا! فَحَدَّثَنِي مَنْ رَآهُ أَنَّهُ بَقِيَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ فِي العَشْرِ الرَّابِعِ أَشْرَفَ عَلىٰ المَوْتِ. قَالَ: فَمَا انْقَضَتْ حَتَّىٰ تَفَرَّغَ[٣]، فَصُبَّ فِي حَلْقِهِ مَاءٌ، فَسَمِعْنا لَهُ نَشِيْشًا كَنَشِيْشِ المِقْلاةِ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ أَيَّامٍ. فَانْظُرُوْا إِلىٰ هٰذا المِسْكِين وَمَا فَعَلَهُ بِهِ جَهْلُهُ!!

---

(١) إبراهيم بن دينار النهرواني الحنبلي، العلامة القدوة، أحد أئمة بغداد، توفي سنة (٥٥٦هـ).

(٢) **آزاد**: فارسي معرّب معناه الخالص. وفي حاشية الأصل: في الهندية: ذا الجذاء وما أثبتناه فعن الأحمدية.

(٣) **تفرّغ**: أصابه الجفاف. وفي حاشية الأصل: في الأحمدية هكذا (العوع) وفي الهندية (تتقوع) قلت: الأولى (نقوع) والثانية (بنقوع) انظر: خبرًا قريبًا منه في الفصل (١٦٢).

٣٨٢ ـ وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَحَ لِنَفْسِهِ فِي كُلِّ مَا يُحِبُّ مِنَ التَّنَعُّمِ واللَّذَّاتِ، وَاقْتَنَعَ مِنَ التَّصَوُّفِ بِالقَمِيْصِ وَالفُوْطَةِ[1] والعَمَامَةِ اللَّطِيْفَةِ، وَلَمْ يَنْظُرْ مِنْ أَيْنَ يَأْكُلُ، ولا مِنْ أَيْنَ يَشْرَبُ، وَخَالَطَ الأُمَرَاءَ مِنْ أَرْبَابِ الدُّنيا، ولُبَّاسِ الحَرِيْرِ، وشُرَّابِ الخُمُوْرِ؛ حِفْظًا لِمَالِهِ وجاهِهِ.

٣٨٣ ـ وَمِنْهُمْ أَقْوَامٌ عَمِلُوْا سُنَنًا لَهُمْ، تَلَقَّوْها مِنْ كَلِمَاتٍ أَكْثَرُها لا يَثْبُتُ!!

٣٨٤ ـ وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَبَّ عَلىٰ سَمَاعِ الغِنَاءِ وَالرَّقْصِ وَاللَّعِبِ، ثُم انْقَسَمَ هٰؤلاءِ، **فَمِنْهُمْ** مَنْ يَدَّعِي العِشْقَ فِيْهِ، **وَمِنْهُمْ** مَنْ يَقُوْلُ بِالحُلُوْلِ[2]، **وَمِنْهُمْ** [من] يَسْمَعُ عَلىٰ وَجْهِ الهَوَىٰ واللَّعِبِ، وَكِلا الطَّرِيْقَيْنِ يُفْسِدُ العَوَامَّ الفَسَادَ العَامَّ.

٣٨٥ ـ وَهٰذا الشَّرْحُ يَطُوْلُ، وَقَدْ صَنَّفْتُ كُتبًا تَرَىٰ فِيْهَا البَسْطَ الحَسَنَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالىٰ، مِنْهَا «تَلْبِيْسُ إِبْلِيْس».

وَالْمَقْصُوْدُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الشَّرْعَ تَامٌّ كامِلٌ؛ فَإِنْ رُزِقْتَ فَهْمًا لَهُ؛ فَأَنْتَ تَتَّبِعُ الرَّسُوْلَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَتَتْرُكُ بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ، وَلَا تُقَلِّدُ [فِي] دِيْنِكَ الرِّجَالَ؛ فَإِنْ فَعَلْتَ؛ فَإِنَّكَ لا تَحْتَاجُ إِلىٰ وَصِيَّةٍ أُخْرَىٰ.

٣٨٦ ـ وَاحْذَرْ جُمُوْدَ النَّقَلَةِ، وَانْبِسَاطَ المُتَكَلِّمِيْنَ، وَجُمُوْحَ[3] المُتَزَهِّدِيْنَ، وَشَرَهَ أَهْلِ الهَوَىٰ، وَوُقُوْفَ العُلَمَاءِ عَلىٰ صُوْرَةِ العِلْمِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ، وَعَمَلَ المُتَعَبِّدِيْنَ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

٣٨٧ ـ وَمَنْ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالىٰ بِلُطْفِهِ؛ رَزَقَهُ الفَهْمَ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ رِبْقَةِ التَّقْلِيْدِ، وَجَعَلَهُ أُمَّةً وَحْدَهُ في زَمَانِهِ؛ لا يُبَالي بِمَنْ عَبَثَ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَنْ لامَ، قَدْ سَلَّمَ زِمَامَهُ إِلىٰ دَلِيلِهِ فِيْ وَاضِحِ السَّبِيْلِ. عَصَمَنا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ تَقْلِيْدِ المُعَظِّمِيْنَ، وَأَلْهَمَنا اتِّبَاعَ الرَّسُوْلِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ دُرَّةُ الوُجُوْدِ، وَمَقْصُوْدُ الكَوْنِ صلى الله عليه وَعَلىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَرَزَقَنا اتِّباعَهُ مَعَ أَتْبَاعِهِ.

---

(١) **الفوطة**: المئزر.

(٢) **الحلول**: حلول الخالق بالمخلوق تعالى الله عما يفتري الظالمون.

(٣) في الأصل: جموع.

٧٢ - فصل: السعيد من لازم التقوى

٣٨٨ ـ اعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ لا يَثْبُتُ عَلىٰ حَالٍ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ فَتَارَةً فَقْرٌ، وَتَارَةً غِنًى، وَتَارَةً عِزٌّ، وَتَارَةً ذِلٌّ، وَتَارَةً يُفْرِحُ المَوَالِي، وَتَارَةً يُشْمِتُ الأَعَادِي.

فَالسَّعِيْدُ مَنْ لَازَمَ أَصْلًا وَاحِدًا عَلىٰ كُلِّ حَالٍ، وَهُوَ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُ إِنِ اسْتَغْنَىٰ؛ زَانَتْهُ، وَإِنِ افْتَقَرَ؛ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابَ الصَّبْرِ، وَإِنْ عُوْفِيَ؛ تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِ، وَإِنْ ابْتُلِيَ؛ جَمَّلَتْهُ. وَلَا يَضُرُّهُ إِنْ نَزَلَ بِهِ الزَّمَانُ أَوْ صَعِدَ، أَوْ أَعْرَاهُ، أَوْ أَشْبَعَهُ، أَوْ أَجَاعَهُ؛ لِأَنَّ جَمِيْعَ تِلْكَ الأَشْيَاءِ تَزُوْلُ وَتَتَغَيَّرُ، **وَالتَّقْوىٰ أَصْلُ السَّلَامَةِ، حَارِسٌ لا يَنامُ، يَأْخُذُ بِاليَدِ عِنْدَ العَثْرَةِ**، وَيُوَاقِفُ[1] عَلىٰ الحُدُودِ.

والمُنْكَرُ مَنْ غَرَّتْهُ لَذَّةٌ حَصَلَتْ مَعَ عَدَمِ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّهَا سَتُحَوَّلُ، وتُخَلِّيه خَاسِرًا.

٣٨٩ ـ وَلَازِمِ التَّقْوَىٰ فِي كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّكَ لا تَرَىٰ فِي الضِّيْقِ إِلَّا السَّعَةَ، وَفِي المَرَضِ إِلَّا العَافِيَةَ؛ هٰذا نَقْدُهَا العَاجِلُ، وَالآجِلُ مَعْلُوْمٌ.

٧٣ - فصل: انهيال الابتلاء على المؤمن

٣٩٠ ـ تَأَمَّلْتُ أَمْرًا عَجِيْبًا وَأَصْلًا ظَرِيْفًا، وَهُوَ انْهِيَالُ[2] الابْتِلاءِ عَلىٰ المُؤْمِنِ، ، وَعَرْضُ صُوْرَةِ اللَّذَّاتِ عَلَيْهِ؛ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلىٰ نَيْلِها، وخُصُوْصًا مَا كَانَ في غَيْرِ كُلْفَةٍ مِنْ تَحْصِيْلِهِ؛ كَمَحْبُوْبٍ مُوَافِقٍ في خَلْوةٍ حَصِيْنَةٍ. **فَقُلْتُ**: سُبْحَانَ اللهِ! ها هُنا يَبِيْنُ أَثَرُ الإِيْمَانِ؛ لا فِي صَلاةِ رَكْعَتَيْنِ. واللهِ؛ مَا صَعِدَ يُوْسُفُ عليه السلام، ولا سَعِدَ إِلَّا فِيْ مِثْلِ ذٰلِكَ المَقَامِ.

فَباللهِ عَلَيْكُمْ يا إِخْوَانِي؛ تَأَمَّلُوْا حَالَهُ، لَوْ كَانَ وَافَقَ هَوَاهُ؛ منْ كانَ يَكُوْنُ؟! وَقِيْسُوْا بَيْنَ تِلْكَ الحَالَةِ وَحَالَةِ آدَمَ عليه السلام، ثُمَّ زِنُوا بِمِيْزَانِ العَقْلِ عُقْبَىٰ تِلْكَ الخَطِيْئَةِ، وَثَمَرةَ هٰذا الصَّبْرِ، واجْعَلُوْا فَهْمَ الحَالِ عُدَّةً عِنْدَ كُلِّ مُشْتَهًى.

---

(١) **يواقف**: يوقف.

(٢) **انهيال**: انصباب.

٣٩١ ـ وَإِنَّ اللَّذَّاتِ لتُعْرَض عَلىٰ المُؤْمِنِ؛ فَمَتَىٰ لَقِيَها فِي صَفِّ حَرْبِهِ وَقَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُ عَسْكَرُ التَّدَبُّرِ للعَوَاقِبِ؛ هُزِمَ.

وَكَأَنِّي أَرَىٰ الوَاقِعَ فِيْ بَعْضِ أَشْرَاكِهَا، وَلِسَانُ الحَالِ يَقُوْلُ لَهُ: قِفْ مَكَانَكَ؛ أَنْتَ وَمَا اخْتَرْتَ لِنَفْسِكَ. فَغَايةُ أَمْرِهِ النَّدَمُ والبُكَاءُ، فَإِنْ أَمِنَ إِخْرَاجَهُ مِنْ تِلْكَ الهُوَّةِ؛ لَمْ يَخْرُجْ إِلَّا مَدْهُوْنًا بِالخُدُوْشِ. وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ زَلَّتْ قَدَمُهُ، فَمَا ارْتَفَعَتْ بَعْدَهَا.

٣٩٢ ـ وَمَنْ **تَأَمَّلَ ذُلَّ إِخْوَةِ يُوْسُفَ** عليه السلام يَوْمَ قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]؛ عَرَفَ شُؤْمَ الزَّلَلِ، **وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَهُمْ**؛ قَاسَ مَا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أَخِيْهِم مِنَ الفُرُوْقِ، وَإِنْ كَانَتْ تَوْبَتُهُمْ قُبِلَتْ؛ **لِأَنَّهُ لَيْسَ مَنْ رَقَعَ وَخَاطَ كَمَنْ ثَوْبُهُ صَحِيْحٌ**.

٣٩٣ ـ وَرُبَّ عَظْمٍ هِيْضَ[1] لَمْ يَنْجَبِرْ، فَإِنْ جُبِرَ؛ فَعَلَى وَهْيٍ[2].

فَتَيَقَّظُوْا ـ إِخْوَانِي ـ لِعَرْضِ المُشْتَهَيَاتِ عَلىٰ النُّفُوْسِ، وَاسْتَوْثِقُوا مِنْ لُجُمِ الخَيْلِ، وَانْتَبِهُوْا لِلْغَيْمِ، إِذَا تَرَاكَمَ بِالصُّعُوْدِ إِلَىٰ تَلْعَةٍ[3]؛ فَرُبَّمَا مدَّ الوَادِي فَرَاحَ بِالرَّكْبِ[4].

٧٤ - فصل: يريد اختبارك ليعرف أسرارك

٣٩٤ ـ **تَأَمَّلْتُ** حَالةً عَجِيْبَةً، وَهِيَ أَنَّ المُؤْمِنَ تَنْزِلُ بِهِ النَّازِلَةُ، فَيَدْعُوْ، وَيُبَالِغُ، فَلا يَرَىٰ أَثَرًا للإِجَابةِ، فَإِذَا قَارَبَ اليَأْسَ؛ نُظِرَ حَيْنَئِذٍ إِلَىٰ قَلْبِهِ؛ فَإِنْ كَانَ رَاضِيًا بِالأَقْدَارِ، غَيْرَ قَنُوْطٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ عز وجل فَالغَالِبُ تَعْجِيْلُ الإِجَابَةِ حِيْنَئِذٍ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ يَصْلُحُ الإِيْمَانُ، وَ[يُهْزَمُ] الشَّيْطَانُ، وَهُنَاكَ، تَبِينُ مَقَادِيْرُ الرِّجَالِ. وَقَدْ أُشِيْرَ إِلَىٰ هٰذا فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

٣٩٥ ـ وَكَذٰلِكَ جَرَىٰ لِيَعْقُوْبَ عليه السلام؛ فَإِنَّهُ لَمَّا فَقَدَ وَلَدًا، وَطَالَ الأَمْرُ عَلَيْهِ؛ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الفَرَجِ، فَأُخِذَ وَلَدُهُ الآخَرُ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ أَمَلُهُ مِنْ فَضْلِ رَبِّهِ: ﴿أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ

---

(١) **هيض**: كسر. (٢) **الوهي**: الضعف.

(٣) **التلعة**: (من الأضداد): ما ارتفع من الأرض، وما انخفض منها.

(٤) أي: جاء سيل فأهلك القافلة.

جَمِيعًا﴾. وكذٰلِكَ قَالَ زكريّا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

٣٩٦ ـ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيْلَ مُدَّةَ الإِجابَةِ؛ وَكُنْ نَاظِرًا إِلَىٰ أَنَّهُ المَالِكُ، وَإِلَىٰ أَنَّهُ الحَكِيْمُ فِي التَّدْبِيْرِ، وَالعَالِمُ بِالمَصَالِحِ، وَإِلى أَنَّهُ يُرِيْدُ اخْتِبَارَكَ، لِيَبْلُوَ أَسْرَارَكَ[1]، وَإِلَىٰ أَنَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَرَىٰ تَضَرُّعَك، وَإِلىٰ أَنَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَأْجُرَكَ بِصبْرِكَ... إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ، وَإِلىٰ أَنَّهُ يَبْتَلِيْكَ بِالتَّأْخِيْرِ، لِتُحَارِبَ وَسْوَسَةَ إِبْلِيسَ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ الأَشياءِ تُقَوِّي الظَّنَّ فِي فضْلِهِ، وَتُوْجِبُ الشُّكْرَ لَهُ؛ إِذْ أَهَّلَكَ بِالبلاءِ للالتِفَاتِ إِلىٰ سُؤالِهِ، وَفَقْرُ[2] المُضْطَرِّ إِلىٰ اللَّجَإِ إِلَيْهِ غِنًى كلُّه.

٧٥ - فصل: اجتلاب الصالح ودفع المؤذي

٣٩٧ ـ لَمّا كانَ بَدَنُ الآدَمِيِّ لا يَقُوْمُ[3] إِلَّا بِاجْتِلَابِ المَصَالِحِ، وَدَفْعِ المُؤْذِي؛ رُكِّبَ فيهِ الهَوَىٰ؛ لِيَكُوْنَ سَبَبًا لِجَلبِ النَافِعِ، والغَضَبُ؛ لِيَكُوْنَ سَبَبًا لدَفْعِ المُؤْذِي.

٣٩٨ ـ وَلَوْلَا الهَوَىٰ فِي المَطْعَمِ؛ مَا تَنَاوَلَ الطَّعَامَ، فَلَمْ يَقُمْ بَدَنُهُ، فَجُعِلَ لَهُ إِلَيْهِ مَيْلٌ وَتَوْقٌ[4]؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهُ قَدْرُ مَا يُقِيْمُ بدَنَه؛ زَالَ التَّوْقُ. وَكَذٰلِكَ فِي المَشْرَبِ وَالمَلْبسِ والمَنْكَحِ.

٣٩٩ ـ وَفَائِدَةُ المَنْكَحِ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: **إِبْقَاءُ الجِنْسِ**، وَهُوَ مُعْظَمُ المَقْصُوْدِيْنَ. وَالثَّانِي: دَفْعُ الفَضْلَةِ المُحْتَقِنَةِ المُؤْذِي احْتِقَانُهَا. وَلَوْلَا تَرْكِيْبُ الهَوَىٰ المَائِلِ بِصَاحِبِه إِلَىٰ النِّكَاحِ؛ مَا طَلَبَهُ أَحَدٌ، فَفَاتَ النَّسْلُ وَآذَىٰ المُحْتَقِنَ.

٤٠٠ ـ فَأَمّا العَارِفُوْنَ؛ فَإِنَّهُمْ فَهِمُوا المَقْصُوْدَ. وَأَمَّا الجَاهِلُوْنَ؛ فَإِنَّهُمْ مَالُوْا مَعَ الشَّهْوَةِ والهَوَىٰ، وَلَمْ يَفْهَمُوا مَقْصُوْدَ وَضْعِهَا، فَضَاعَ زَمَانُهُمْ فِيْمَا لا طَائِلَ فِيْهِ، وَفَاتَهُمْ مَا خُلِقُوا لِأَجْلِهِ، وَأَخْرَجَهُمْ هَوَاهُم إِلىٰ فَسَادِ المَالِ، وَذَهَابِ العِرْضِ وَالدِّيْنِ، ثُمَّ أَدَّاهُمْ إِلىٰ التَّلَف.

٤٠١ ـ وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ مُتَنَعِّمٍ يُبَالِغُ فِي شِرَاءِ الجَوَارِي، لِيُحَرِّكَ طَبْعَهُ

---

(١) في الأصل: أسراركم.
(٢) في الأصل: الفقر.
(٣) **لا يقوم**: لا يصح.
(٤) **التوق**: الشوق الشديد.

بِالمُسْتَجِدِّ؛ فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أنْ وَهَنَتْ قُوَاهُ الأَصْلِيَّةُ، فَتَعَجَّلَ تَلَفَهُ. وَكَذٰلِكَ رَأَيْنا مَنْ زَادَ غَضَبُهُ، فَخَرَجَ عَنِ الحَدِّ، فَفَتَكَ بِنَفْسِه، وَبِمَنْ يُحِبُّه.

٤٠٢ ـ فَمَن عَلِمَ أَنَّ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا خُلِقَتْ إِعَانةً لِلْبَدَنِ عَلىٰ قَطْعِ مَرَاحِلِ الدُّنيا، وَلَمْ يُخْلَقْ لِنَفْسِ الالْتِذَاذِ، وَإِنَّمَا جُعِلَتِ اللَّذَّةُ فِيْهَا كَالحِيْلَةِ في إِيْصَالِ النَّفْعِ بِهَا؛ إِذْ لَوْ كانَ المَقْصُوْدُ التَّنَعُّمَ بِهَا؛ لمَا جُعِلَتِ الحَيْوَانَاتُ البَهِيْمِيَّةُ أَوْفَىٰ حَظًّا مِنَ الآدَمِيِّ مِنْهَا. فَطُوْبَىٰ لِمَنْ فَهِمَ حَقَائقَ الوَضْعِ، وَلَمْ يَمِلْ بِهِ الهَوَىٰ عَنْ فَهْمِ حِكَمِ المَخْلُوْقَاتِ.

٧٦ - فصل: من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة

٤٠٣ ـ مَنْ تَأَمَّلَ عَوَاقِبَ المَعَاصِي؛ رَآها قَبِيْحَةً، وَلَقَدْ **تَفَكَّرْتُ** فِي أَقْوَامٍ أَعْرِفُهُمْ، يُقِرُّوْنَ بِالزِّنى وَغَيْرِه، فَأَرَىٰ مِنْ تَعَثُّرِهِمْ في الدُّنيا ـ مَعَ جَلادَتِهِم ـ مَا لا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، وَكَأَنَّهُم قَدْ أُلْبِسُوْا ظُلْمَةً؛ فَالقُلُوْبُ تَنْفُرُ عَنْهُم؛ فَإِنِ اتَّسَعَ لَهُمْ شَيْءٌ؛ فَأَكْثَرُهُ مِنْ مَالِ الغَيْرِ، وَإِنْ ضَاقَ بِهِمْ أَمْرٌ؛ أَخَذُوْا يَتَسَخَّطُوْنَ عَلَىٰ القَدَرِ. هٰذا وَقَدْ شُغِلُوْا بِهٰذِهِ الأَوْسَاخِ عَنْ ذِكْرِ الآخِرةِ.

٤٠٤ ـ ثُمَّ عَكَسْتُ، **فَتَفَكَّرْتُ** في أَقْوَامٍ صَابَروا الهَوَىٰ، وَتَرَكُوْا مَا لَا يَحِلُّ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَاتُ الدُّنْيا؛ مِنْ قُوْتٍ مُسْتَلَذٍّ، وَمِهَادٍ مُسْتَطَابٍ، وَعَيْشٍ لَذِيْذٍ، وَجَاهٍ عَرِيْضٍ؛ فَإِنْ ضَاقَ بِهِمْ أَمْرٌ؛ وَسَّعَهُ الصَّبْرُ، وَطيَّبَهُ الرِّضا، فَفَهِمْتُ بِالحَالِ مَعْنَى قَوْلِه تَعَالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

٧٧ - فصل: لا يصلح الأنس إلا بملازمة التقوى

٤٠٥ ـ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُلازِمَ بَابَ مَوْلَاهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِذَيْلِ فَضْلِهِ، إِنْ عَصَىٰ وَإِنْ طاعَ، وَلْيَكُنْ لَهُ أُنْسٌ فِي خَلْوَتِهِ بِهِ؛ فَإِنْ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي رَفْعِ المُوْحِشِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمُسْتَوْحِشٌ أنتَ مِمَّا جَنَيْـ ـتَ فأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

٤٠٦ ـ فَإِنْ رَأَىٰ نَفْسَه مَائلًا إِلَىٰ الدُّنيا؛ طَلَبَها مِنْهُ، أَوْ إِلَىٰ الآخِرَةِ؛ سَأَلَهُ التَّوْفِيْقَ لِلْعَمَلِ لَهَا؛ فَإِنْ خَافَ ضَرَر مَا يَرُومُه مِنَ الدُّنيا؛ سَأَلَ اللهَ إِصْلَاحَ قَلْبِهِ، وطِبَّ مَرَضِهِ؛ فإِنَّهُ إِذَا صَلَحَ؛ لَمْ يَطْلُبْ مَا يُؤْذِيهِ. وَمَنْ كانَ هٰكذا؛ كانَ فِي العَيْشِ الرَّغِدِ.

غَيْرَ **أَنَّ مِنْ ضَرُوْرَةِ هٰذِهِ الحَالِ مُلازَمَةَ التقوى؛ فَإِنّه لا يَصْلُحُ الأُنْسُ إِلَّا بِهَا.**

٤٠٧ ـ وَقَدْ كَانَ أَرْبَابُ التَّقْوَىٰ يَتَشَاغَلُوْنَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَنِ اللَّجَإِ والسُّؤَالِ.

٤٠٨ ـ وفي الحديث: أنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ[١] لمَّا صَافَّ[٢] **التُّرْكَ؛ هَالَهُ أَمْرُهُمْ، فَقَالَ**: أَيْنَ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ[٣]؟ **فَقِيْلَ**: هُوَ في أَقْصَىٰ المَيْمَنَةِ، جَانِحٌ عَلىٰ سِيَةِ قَوْسِهِ[٤]، يُوْمِئُ بِإِصْبَعِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ. **فَقَالَ قُتَيْبَةُ**: تِلْكَ الإِصْبَعُ الفَارِدَةُ[٥] أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيْرٍ[٦] وسِنَانٍ طَرِيْرٍ[٧]. فَلَمَّا فُتِحَ عَلَيْهِم؛ **قَالَ لَهُ**: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ؟ **قَالَ**: آخُذُ لَكَ بِمَجَامِعِ الطُّرُقِ.

٧٨ - فصل: كتمان الأمور فعل الحازم

٤٠٩ ـ يَنْبَغِي لِمَنْ تَظَاهَرَتْ نِعَمُ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ، أَنْ يُظْهِرَ مِنْهَا مَا يُبَيِّنُ أَثَرَها، وَلَا يَكْشِفَ جُمْلَتَهَا، وَهٰذا مِنْ أَعْظَمِ لَذَّاتِ الدُّنيا، الّتِي يَأْمُرُ الحَزْمُ بِتَرْكِهَا؛ **فـ«إِنَّ العَيْنَ حقٌّ»**[٨].

٤١٠ ـ وَإِنِّي تَفَقَّدْتُ النِّعَمَ، فَرَأَيْتُ إِظْهَارَهَا حُلْوًا عِنْدَ النَّفْسِ؛ إِلَّا أَنَّهَا إِنْ أُظْهِرَتْ لِوَدِيدٍ[٩]؛ لَمْ يُؤْمَنْ تَشَعُّثُ بَاطِنِهِ بِالغَيْظِ، وَإِنْ أُظْهِرَتْ لِعَدُوٍّ؛ فَالظَّاهِرُ إِصَابَتُهُ

---

(١) **الباهلي**: فاتح بلاد ما وراء النهر، توفي سنة (٩٦هـ).
(٢) **صاف**: واجههم في المعركة.
(٣) أبو بكر الأزدي البصري، أحد الأعلام زهدًا وعبادة، توفي سنة (١٢٣هـ).
(٤) **سية القوس**: ما انعطف من طرفيه.
(٥) **الفاردة**: الوحيدة.
(٦) **الشهير**: المسلول في وجه العدو.
(٧) **الطرير**: الحاد القاطع.
(٨) رواه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) عن أبي هريرة ﷺ.
(٩) **الوديد**: المحب.

بِالعَيْنِ، لِمَوْضِعِ الحَسَدِ! إِلَّا أَنَّنِي رَأَيْتُ [غَيْظَ][1] الحَسُوْدِ كاللّازِمِ؛ فَإِنَّه في حَالِ البَلاءِ يَتَشَفَّى، وَفِي حَالِ النِّعَمِ يُصِيْبُ بِالعَيْنِ.

وَلَعَمْري؛ إنَّ المُنْعَمَ عَلَيْهِ يَشْتَهِي غَيْظَ حَسُوْدِهِ، وَلٰكنَّه لا يُؤْمَنُ أَنْ يُخَاطِرَ بِنِعْمَتِهِ؛ فَإِنَّ الغَالِبَ إِصَابَةُ الحَاسِدِ لَهَا بِالعَيْنِ؛ فَلا يُسَاوِي الالْتِذَاذُ بِإِظْهارِ مَا غِيظَ بِهِ؛ مَا أَفْسَدتْ عَيْنُهُ بِإِصَابَتِهَا.

٤١١ ـ وَكِتْمَانُ الأُمُوْرِ في كُلِّ حَالٍ فِعْلُ الحَازِمِ: فَإِنَّه إِنْ كَشَفَ مِقْدَارَ **سِنِّهِ**؛ اسْتَهْرَمُوْهُ إِنْ كَانَ كبيرًا، وَاحْتَقَرُوْهُ إِنْ كَانَ صَغِيْرًا. وَإِنْ كَشَفَ مَا **يَعتقدهُ**؛ نَاصَبَهُ الأَضْدَادُ بِالعَدَاوَةِ. وَإِنْ كَشَفَ قَدْرَ **مَالِهِ**؛ اسْتَحْقَرُوْهُ إِنْ كَانَ قَلِيْلًا، وَحَسَدُوْهُ إِنْ كَانَ كَثِيْرًا. وَفِي هٰذِهِ الثَّلاثَةِ يَقُوْلُ الشَّاعِرُ[2]:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبُحْ بِثَلَاثَةٍ ... سِنٍّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ
فَعَلَى الثَّلاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْرِقٍ وَمُكَذِّبِ

وَقِسْ عَلَى مَا ذَكَرْتُ مَا لَمْ أَذْكُرْه، وَلا تَكُنْ مِنَ المَذَايِيْعِ [الأغرار][3]، الَّذِيْنَ لا يَحْمِلُوْنَ أَسْرَارَهُمْ حَتَّى يُفْشُوْهَا إِلَى مَنْ لا يَصْلُحُ! **وَرُبَّ كَلِمَةٍ جَرَى بِهَا اللِّسَانُ هَلَكَ بِهَا الإِنْسَانُ.**

٧٩ - فصل: الاحتراز من الذنوب

٤١٢ ـ رَأَيْتُ كُلَّ مَنْ يَعْثُرُ بِشَيءٍ، أَوْ يَزْلَقُ فِي مَطَرٍ، يَلْتَفِتُ إِلَى مَا عَثَرَ بِهِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ طَبْعًا مَوْضُوْعًا فِي الخَلْقِ: إِمَّا لِيَحْذَرَ مِنْهُ إِنْ جَازَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى [و] من مثله، أو لِيَنْظُرَ ـ مَعَ احْتِرَازِهِ وَفَهْمِهِ ـ كَيْفَ فاتَهُ التَّحَرُّزُ مِنْ مِثْلِ هٰذا؟! فَأَخَذْتُ مِنْ ذٰلِكَ إِشَارةً، وَقُلْتُ:

يَا مَنْ عَثَرَ مِرَارًا! هَلَّا أَبْصَرْتَ مَا الَّذِيْ عَثَّرَكَ؛ فاحْتَرَزْتَ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ قَبَّحْتَ

---

(١) في الأصل: بعد، فلعلها بغض.

(٢) هو محمد بن عبد الباقي البزار كما ذكر المؤلف في الفصل (٢٥٣). وربما ذكره مستشهدًا به. والله أعلم.

(٣) في الأصل: **الغر**: وهو الذي لا بصر له بالأمور لقلة التجربة.

لِنَفْسِكَ ـ مَعَ حَزْمِهَا ـ تِلْكَ الوَاقِعَةَ؟! فَإِنَّ الغَالِبَ مِمَّن يَلْتَفِتُ أنَّ مَعْنَى ٱلتِفَاتِهِ: كَيْفَ عَثَرَ مِثْلِي ـ مَعَ احْتِرازِهِ ـ بِمِثْلِ مَا أَرَىٰ؟!

فَالعَجَبُ لكَ! عَثَرْتَ بِمِثْلِ الذَّنْبِ الفُلانيِّ وَالذَّنْبِ الفُلانيِّ! كَيْفَ غَرَّكَ زُخْرُفٌ تَعْلَمُ بِعَقْلِكَ بَاطِنَه، وَتَرَىٰ بِعَيْنِ فِكْرِكَ مَآلَه؟! كَيْفَ آثَرْتَ فانيًا عَلىٰ باقٍ؟! كَيْفَ بِعْتَ بِوَكْسٍ[1]؟ كَيْفَ اخْتَرْتَ لَذَّةَ رَقْدَةٍ على انْتِبَاهِ مُعَامَلةٍ؟!

آهٍ لكَ! لَقَدِ اشْتَرَيْتَ بِمَا بِعْتَ أَحْمَالَ نَدَمٍ، لا يُقِلُّها[2] ظَهْرٌ، وَتَنْكِيْسَ رَأْسٍ أَمْسَىٰ بَعِيْدَ الرَّفْعِ، وَدُمُوْعَ حُزْنٍ عَلىٰ قُبْحِ فِعْلٍ مَا لِمَدَدِها انْقِطَاعٌ، وَأَقْبَحُ الكُلِّ أَنْ يُقَالَ لكَ: بِمَاذا؟! وَمِنْ أَجْلِ مَاذا؟! وَهٰذَا عَلىٰ مَاذا؟!.

يا مَنْ قَلَبَ الغُرُوْرُ عَلَيْهِ الصَّنْجَةَ[3]، وَوُزِنَ له؛ والمِيْزَانُ رَاكِبٌ[4]!

٨٠ - فصل: ندر من تطرقه البلايا مع التقوى

٤١٣ ـ تَأَمَّلْتُ قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]: قَالَ المُفَسِّرُوْنَ: ﴿هُدَايَ﴾: رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَكِتَابِي. فَوَجَدْتُهُ عَلىٰ الحَقِيْقَةِ: **أَنَّ كُلَّ مَنِ اتَّبَعَ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيْهِمَا؛ فقد سَلِمَ مِنَ الضَّلالِ بِلا شَكٍّ، وَارْتَفَعَ فِي حَقِّهِ شَقَاءُ الآخِرَةِ بِلا شَكٍّ، إِذَا مَاتَ على ذٰلك.**

٤١٤ ـ وَكذلِكَ شَقَاءُ الدُّنيا؛ فَلا يَشْقَىٰ أَصْلًا، ويُبَيِّنُ هٰذا قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. فَإِنْ رَأَيْتَهُ فِي شِدَّةٍ؛ فَلَهُ مِنَ اليَقِيْنِ بِالجَزَاءِ مَا يُصَيِّرُ الصَّابَ[5] عِنْدَهُ عَسَلًا، وَإِلَّا؛ غَلَبَ طِيْبُ العَيْشِ في كُلِّ حَالٍ.

٤١٥ ـ والغَالِبُ أَنَّه لا تَنْزِلُ بِهِ شِدَّةٌ إِلَّا إِذَا انْحَرَفَ عَنْ جَادَّةِ التَّقْوَىٰ، فأَمَّا المُلازِمُ لِطَرِيْقِ التَّقْوَىٰ؛ فَلا آفَةَ تَطْرُقُه، وَلَا بَلِيَّةَ تَنْزِلُ بِهِ. هٰذا هو الأَغْلَبُ.

فَإِنْ نَدَر مَنْ تَطْرُقُهُ البلايا مَعَ التَّقْوَىٰ؛ فَذَاكَ فِي الأَغْلَبِ، لِتَقَدُّمِ ذَنْبٍ يُجَازَىٰ

---

(١) **الوكس**: الغبن والخسارة.
(٢) **لا يقلها**: لا يحملها.
(٣) **الصنجة**: ما يوزن به.
(٤) **الميزان الراكب**: متعلق لا يتحرك ولا يزن.
(٥) **الصاب**: شجر له عصارة شديدة المرارة.

عَلَيْهِ. فَإِنْ قَدَّرْنا عَدَمَ الذَّنْبِ؛ فَذَاكَ لإِدْخَالِ ذَهَبِ صَبْرِهِ كِيْرَ البَلَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ تِبْرًا أَحْمَرَ؛ فَهُوَ يَرَىٰ عُذوبةَ العَذَابِ؛ لِأَنَّه يُشَاهِدُ المُبْتَلِي فِي البَلَاءِ [لا] الأَلَمِ[1]. قَالَ **الشِّبْلِيُّ**: أَحَبَّكَ النَّاسُ لِنَعْمَائِك، وَأَنَا أُحِبُّكَ لِبَلائِكَ.

٨١ - فصل: لا ينال لذة المعاصي إلا سكران الغفلة

٤١٦ ـ لَا يَنَالُ لَذَّةَ المَعَاصِي إِلَّا سَكْرَانُ الغَفْلَةِ. فَأَمَّا **المُؤْمِنُ**؛ فَإِنَّه لا يَلْتَذُّ؛ لِأَنَّه عِنْدَ ٱلتِذَاذِهِ يَقِفُ بِإِزائِهِ عَلَمُ التَّحْرِيْمِ، وحَذَرُ العقوبةِ. فَإِنْ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ؛ رَأَىٰ بِعَيْنِ عِلْمِهِ قُرْبَ النَّاهِي، فَيَتَنَغَّصُ عَيْشُه فِي حَالِ ٱلتِذَاذِهِ.

٤١٧ ـ فَإِنْ غَلَبَ سُكْرُ الهَوَىٰ؛ كَانَ القَلْبُ مُتَنَغِّصًا بِهٰذِهِ المُرَاقَبَاتِ، وَإِنْ كَانَ الطَّبْعُ في شَهْوتِهِ. وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ، ثُمّ خُذْ مِنْ غَرِيْمِ نَدَمٍ مُلَازِمٍ، وَبُكَاءٍ مُتَوَاصِلٍ، وَأَسَفٍ عَلَىٰ مَا كَانَ مَعَ طُوْلِ الزَّمانِ، حَتَّى إِنَّه لَوْ تَيَقَّنَ العَفْوَ؛ وَقَفَ بِإِزائِهِ حَذَرُ العِتَابِ. فَأُفٌّ لِلذُّنُوْبِ! مَا أَقْبَحَ آثَارَهَا! وَمَا أَسْوَأَ أَخْبَارَهَا! وَلا كَانَتْ شَهْوَةٌ لا تُنَالُ إِلَّا بِمِقْدَارِ قُوَّةِ الغَفْلَةِ.

٨٢ - فصل: إنما عزلة العالم عن الشرِّ

٤١٨ ـ بَكَرْتُ يَوْمًا أَطْلُبُ الخَلْوَةَ إِلى جَامِعِ الرُّصَافةِ[2]، فَجَعَلْتُ أَجُوْلُ وَحْدِي وَأَتَفَكَّرُ فِي ذٰلِكَ المَكَانِ، ومَنْ كَانَ بِهِ مِنَ العُلَمَاءِ والصَّالحينَ، وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا قَدْ جَاوَزُوْا فِيْهِ، فَسَأَلْتُ أَحَدَهُمْ: مُنْذُ كَمْ أَنْتَ هَا هُنَا؟ فَأَوْمَأَ إِلَىٰ قَرِيْبٍ مِنْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً! فَرَأَيْتُهُ فِي بَيْتٍ كَثِيْرِ الدَّرَنِ والوَسَخِ، وَجَعَلْتُ أَتَفَكَّرُ فِيْ حَبْسِهِ لِنَفْسِهِ عَنِ النِّكَاحِ هٰذِهِ المُدَّةَ!!

فَأَخَذَتِ النَّفْسُ تُحَسِّنُ ذٰلِكَ، وَتَذُمُّ الدُّنيا والاغْتِرَارَ بِهَا، فَأَقْبَلَ العِلْمُ يُنْكِرُ عَلَىٰ النَّفْسِ، ونَهَضَ الفَهْمُ لِحَقَائِقِ الأُمُوْرِ، وَمَوْضُوْعُ الشَّرْعِ يُقَوِّي مَا قَالَ العِلْمُ،

---

(١) في الأصل: الآلم، وهو تصحيف.

(٢) **الرصافة**: الجانب الشرقي من بغداد، والكرخ الجانب الغربي، يفصل بينهما نهر دجلة.

فتنحل[1] من ذٰلك.

٤١٩ ـ [إلى][2] أَنْ قُلْتُ لِلنَّفْسِ: ٱعْلَمِي أَنَّ هٰؤلاءِ عَلىٰ ضَرْبَيْنِ:

مِنْهُمْ مَنْ يُجَاهِدُ نَفْسَه فِي الصَّبْرِ عَلىٰ هٰذِهِ الأَحْوَالِ، فَتَفُوْتُه فَضَائِلُ المُخَالَطَةِ لِأَهْلِ العِلْمِ، والعَمَلُ، وَطلبُ الوَلَدِ، وَنَفْعُ الخَلْقِ، وَانْتِفَاعُ نَفسِهِ بِمُجَالَسَةِ أَهْلِ الفَهْمِ، فَيَحْدُثُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ حَالَةٌ تُشَابِهُ فِيْهَا الوَحْشَ، فَتُؤْثِرُ الانْفِرَادَ لِنَفْسِ الانْفِرَادِ، **وَرُبَّمَا**: يَبِسَ الطَّبعُ، وَسَاءَ الخُلُقُ، **وَرُبَّمَا**: حَدَثَ مِنْ حَبْسِ مائِهِ المُحْتَقِنِ سُمِّيَّةٌ أَفْسَدَتْ بَدَنَهُ وَعَقْلَهُ، **وَرُبَّمَا**: أَوْرَثَتْهُ الخَلْوَةُ وَسْوَسَةً، **وَرُبَّمَا**: ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ الأَوْلِيَاءِ، وَاسْتَغْنَىٰ بِمَا يَعْرِفُه، **وَرُبَّما**: خَيَّلَ لهُ الشَّيْطانُ أَشْيَاءَ مِنَ الخَيَالاتِ، وَهُوَ يَعُدُّها كَرَامَاتٍ!! **وَرُبَّمَا**: ظَنَّ أَنَّ الّذِي هُوَ فِيْهِ الغَايةُ، وَلا يَدْرِي أَنَّهُ إِلَىٰ الكَرَاهَةِ أَقْرَبُ؛ فَإِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ: «**نَهَىٰ أَنْ يَبِيْتَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ**»[3]؛ وَهٰؤلاءِ كُلٌّ مُنْهُمْ يَبِيْتُ وَحْدَهُ!. وَ«**نَهَىٰ عَنِ التَّبَتُّلِ**»[4]؛ وَهٰذَا تَبَتُّلٌ!، و«**نهى عن الرَّهْبانِيَّةِ**»[5].

وَهٰذَا مِنْ خَفِيِّ خُدَعِ إِبْلِيْس الّتِي يُوْقِعُ بِهَا فِي وَرْطَاتِ الضَّلالِ بِأَلْطَفِ وَجْهٍ وَأَخْفَاهُ.

والضرب الثاني: مَشَايِخُ قَدْ فَنُوا، فَانْقَطَعُوْا ضَرُوْرَةً؛ إِذْ لَيْسَ لِأَحَدِهِم مَأْوَىٰ؛ فَهُمْ فِي مَقَامِ الزَّمْنَىٰ[6].

وَإِنْ كَانَ الضَّرْبُ الأولُ قَدْ قَطَعُوا حَبْلَ نُفُوْسِهم فِي العِلْمِ والعَمَلِ والكَسْبِ، وَتَعَلَّقَتْ هِمَمُهُم بِفُتُوْحٍ يَطْرُقُ عَلَيْهِمُ البَابَ، فَرَضُوا بِالعَمَىٰ بَعْدَ البَصَرِ، وَبالزَّمَنِ[7] بَعْدَ الإِطلاق.

٤٢٠ ـ فَقَالَتْ لِيَ النَّفْسُ: لا أَرْضَىٰ هٰذا الّذِي تَقُوْلُهُ؛ فَإِنَّكَ إِنَّما تَمِيْلُ إِلَىٰ إِيْثَارِ

---

(١) **تنحل**: يزول الإشكال وتخلص من الشبهة. (٢) زيادة ضرورية ليستقيم بها السياق.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٩١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٠٧): رجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢) عن سعد رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد (٦/ ٢٢٦)، وابن حبان (٩) عن عائشة رضي الله عنها والدارمي (٢/ ١٣٣) عن سعد رضي الله عنه.

(٦) **الزمنى**: من أقعدهم المرض الذي لا يرجى برؤه.

(٧) **الزمن**: مرض يدوم طويلًا يقعد بصاحبه.

نِكَاحِ المُسْتَحْسَناتِ والمَطَاعِمِ المُشْتَهيَاتِ؛ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ التَّعَبُّدِ؛ فَلا تَطْعَنْ فِيْهِمْ.

فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ فَهِمْتِ؛ حَدَّثْتُكِ، وَإِنْ كُنْتِ تُقَلِّدِيْنَ صُوَرَ الأَحْوَالِ؛ فَلا فَهْمَ لَكِ.

أَمّا المُسْتَحْسَنَاتُ؛ فَإِنَّ المَقْصُوْدَ مِنَ النِّكَاحِ أَشْيَاءُ: **مِنْهَا**: طَلَبُ الوَلَدِ، **وَمِنْهَا**: شِفَاءُ النَّفْسِ بِإِخْرَاجِ الفَضْلَةِ المُؤْذِيَةِ، وَكَمَالُ خُرُوْجِهَا لا يَكُوْنُ إِلَّا بُوُجُوْدِ المُسْتَحْسَنِ! واعْتَبِرْ هٰذا بِالوَطءِ دُوْنَ الفَرْجِ؛ فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنَ الفَضَلاتِ مَا لا يَخْرُجُ بِالوَطْءِ مِنَ الفَرْجِ! وَبِتَمَامِ خُرُوْجِ تِلْكَ الفَضْلَةِ تَفْرُغُ النَّفْسُ عَنْ شَوَاغِلِهَا، فَتَدْرِي أَيْنَ هِيَ؛ كَمَا نَأْمُرُ القَاضِيَ بِالأَكْلِ قَبْلَ الحُكْمِ، وَنَنْهَاهُ عَنِ الحُكْمِ وَهُوَ غَضْبَانُ أَوْ حَاقِنٌ. وَبِكَمَالِ بُلُوْغِ هٰذَا الغَرَضِ يَكُوْنُ كَمَالُ الوَلَدِ لِتَمَامِ النُّطْفَةِ الَّتِي تَخَلَّقَ مِنْهَا. ثُمَّ لِلنَّفْسِ حَظٌّ؛ فَهِيَ[1] تَسْتَوْفِيْهِ اسْتِيْفَاءَ النَّاقَةِ حَظَّهَا مِنَ العَلَفِ في السَّفَرِ، وذٰلك يُعِيْنَ عَلىٰ سَيْرِهَا.

وَأَمّا **المَطَاعِمُ**؛ فَالجَاهِلُ مَنْ يَطْلُبُهَا لِذَاتِهَا أَوْ لِنَفْسِ لَذَّاتِهَا، وَإِنَّمَا المُرَادُ إِصْلَاحُ [النَّفْسِ][2] لِجَمْعِ هَمِّهَا، وَنَيْلِ مُرَادِهَا مِنْ غَرَضِهَا الصَّارِفِ لِهَا عَنِ الفِكْرِ في هَوَاهَا.

٤٢١ ـ وَإِذَا تأَمَّلْتَ حَالَ السِّرْبِ الأَوَّلِ؛ رَأَيْتَ مِنْ هٰذا عَجَبًا: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَكَانَتْ مُسْتَحْسَنَةً[3]. وَرَأَىٰ زَيْنَبَ، فَاسْتَحْسَنَهَا، فَتَزَوَّجَهَا[4]. وَكَذٰلِكَ اخْتَارَ صَفِيَّةَ[5]. وَكَانَ إِذَا وُصِفَتْ لَهُ امْرَأَةٌ؛ بَعَثَ يَخْطِبُهَا[6].

---

(١) في الأصل: فهو.

(٢) في الأصل: عدم الناقة، وليس بشيء.

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في سَرَقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه» رواه البخاري (٥١٢٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

(٤) أما زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها فرواه البخاري (٧٤٢٠ و٧٤٢١)، ومسلم (١٤٢٨) عن أنس رضي الله عنه، وليس فيه ولا في غيره أنه رآها فاستحسنها.

(٥) رواه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) عن أنس رضي الله عنه.

(٦) لم يصح في هذا شيء.

وَكَانَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه أَرْبعُ حَرَائِرَ، وَسَبْعَ عَشْرَةَ سرِّيَّةً، مَاتَ عَنْهُنّ. وَقَبْلَ هٰذِهِ الأُمّةِ؛ فَقَدْ كانَ لِدَاوُدَ عليه السلام مِئَةُ امْرَأةٍ، وَلِسُلَيْمَانَ عليه السلام أَلْفُ امْرَأَةٍ.

فَمَنِ ادَّعَىٰ خَلَلًا فِيْ هٰذِهِ الطُّرُقِ، أَوَ أَنَّ هٰؤلاءِ آثَرُوْا هَوَاهُمْ، وَأَنْفَقُوْا بَضَائِعَ العُمُرِ في هٰذِهِ الأَغْرَاضِ، وَغَيْرُها أَفْضَلُ؛ فَقَدِ ادَّعَىٰ عَلَىٰ الكَامِلِيْنَ النُّقْصَانَ، وَإِنَّمَا هُوَ النَّاقِصُ فِي فَهْمِهِ لا هُمْ.

وَقَدْ كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ إِذَا سَافَرَ؛ فَفِي سُفْرَتِهِ حَمَلٌ مَشْوِيٌّ وَفَالُوْذَجُ، وَكَانَ حَسَنَ المَطْعَمِ، وَكَانَ يَقُوْلُ: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ تُحْسِنْ إِلَيْهَا؛ لَمْ تَعْمَلْ.

٤٢٢ ـ وهٰذِهِ الفُنُوْنُ الّتي أَشَرْتُ إِلَيْهَا؛ إِنْ قُصِدَتْ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا، أَوْ لِقَضَاءِ وَطَرِ النَّفْسِ مِنْهَا، أَوْ لِبلوغِ الأَغْرَاضِ الدِّيْنِيَّة والدُّنيويَّةِ مِنْهَا: فَكُلُّهُ قَصْدٌ صَحِيْحٌ، لا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ مَنْ يَقُوْمُ وَيَقْعُدُ فِي رَكَعَاتٍ لا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا، وَفي تَسْبِيْحَاتٍ أَكْثَرُ أَلْفَاظِهَا رَدِيَّةٌ.

٤٢٣ ـ كَلَّا؛ لَيْسَ إِلَّا العِلْمُ الّذِيْ هُوَ أَفْضَلُ الصِّفَاتِ، وَأَشْرَفُ العِبَادَاتِ، وَهُوَ الآمِرُ بِالمَصَالِحِ، وَالنَّاطِقُ بِالنَّصَائِحِ. ثُمَّ مَنْفَعَةُ العِلْمِ مَعْرُوْفَةٌ، وَزُهْدُ الزَّاهِدِ لا يَتَعَدَّىٰ عَتَبَةَ بَابِهِ؛ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»(١).

٤٢٤ ـ ثُمَّ اعْتَبِر فَضْلَ الرُّسْلِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، والجَوَارِحِ عَلَىٰ الّتِي لا تَصِيْدُ، وَالطِّيْنِ الّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ على الطِّيْنِ في المَقْلَعِ(٢). وَغَايَةُ العُلَمَاءِ تَصَرُّفُهُمْ بِالعِلْمِ فِي المُباحِ، وَأَكْثَرُ المُتَزَهِّدِيْنَ جَهَلَةٌ، يَسْتَعْبِدُهُمْ تَقْبِيْلُ اليَدِ لِأَجْلِ تَرْكِهِم مَا أُبِيْحَ.

فَكَمْ فَوَّتَتِ العُزْلَةُ عِلْمًا يَصْلُحُ بِهِ أَصْلُ الدِّيْنِ، وَكَمْ أَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ هَلَكَ بِهَا الدِّيْنُ، **وَإِنّما عُزْلَةُ العَالِمِ عَنِ الشَّرِّ فَحَسْبُ**. واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) رواه الطبراني عن أبي رافع. انظر: كنز العمال (٢٨٨٠٢).

(٢) **المقلع**: المكان الذي تقلعُ منه الحجارة، ويستعان على ذلك بالماء فيكثر الطين في هذه المقالع.

٨٣ - فصل: للذنوب عواقب سيئة

٤٢٥ ـ يَنْبَغِي لِكُلِّ ذِيْ لُبٍّ وَفِطْنَةٍ أَنْ يَحْذَرَ عَوَاقِبَ المَعَاصِي؛ فَإِنَّه لَيْسَ بَيْنَ الآدَمِيِّ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ قَرَابَةٌ وَلَا رَحِمٌ، وَإِنَّمَا هُوَ قَائِمٌ بِالقِسْطِ، حَاكِمٌ بِالعَدْلِ. وَإِنْ كَانَ حِلْمُهُ يَسَعُ الذُّنوبَ؛ إِلَّا أَنّه إذا شَاءَ؛ عَفَا، فَعَفَّى[1] كُلَّ كَثِيْفٍ مِنَ الذُّنُوْبِ، وَإِذَا شَاءَ أَخَذَ بِاليَسِيْرِ. فَالْحَذَرَ الحَذَرَ!

٤٢٦ ـ وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ المُتْرَفِيْنَ، كَانُوْا يَتَقَلَّبُوْنَ فِي الظُّلْمِ وَالمعَاصِي بَاطِنةً وظَاهِرَةً، فَتَعِبُوْا مَنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبوا، فَقُلِعَتْ أُصُوْلُهُمْ، ونُقِضَ مَا بَنَوْا مِنْ قَوَاعِدَ أَحْكَمُوْهَا لِذَراريهم، وَمَا كَانَ ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ أَهْمَلُوْا جَانِبَ الحَقِّ ﷻ، وَظَنُّوا أَنَّ مَا يَفْعَلُوْنَهُ مِنْ خَيْرٍ يُقَاوِمُ ما يَجْرِي مِنْ شَرٍّ، فَمَالَتْ سَفِيْنَةُ ظُنُوْنِهِم، فَدَخَلَها مِنْ مَاءِ الكَيْدِ مَا أَغْرَقَهُمْ.

٤٢٧ ـ وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ المُنْتَسِبِيْنَ إِلَىٰ العِلْمِ، أَهْمَلُوْا نَظَرَ الحَقِّ ﷻ إِلَيْهِمْ في الخَلَوات، فمَحَا مَحَاسِنَ ذِكْرِهِم في الجَلَواتِ[2]، فَكَانُوْا مَوْجُوْدِينَ كالمَعْدُوْمِيْنَ، لا حَلَاوَةَ لِرُؤْيَتِهِم، وَلا قَلْبَ يَحِنُّ إِلَىٰ لِقَائِهِم.

فَاللهَ اللهَ فِي مُرَاقَبَةِ الحَقِّ ﷻ؛ فَإِنَّ مِيْزَانَ عَدْلِهِ تَبَيِّنُ فِيْهِ الذَّرَّةُ، وَجَزَاؤُهُ مَراصِدُ للمُخْطِئِ، وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ العَفْوُ، وَإِنَّمَا هُوَ إِمْهَالٌ، **وَلِلذُّنُوْبِ عَوَاقِبُ سَيِّئَةٌ.**

فَاللهَ اللهَ! الخَلَوَاتِ [الخَلَوَاتِ]! البَوَاطِنَ البَوَاطِنَ! النِّيَّاتِ النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ عَيْنًا نَاظِرَةً! وَإِيَّاكُمْ وَالاغْتِرَارَ بِحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ؛ فَكَم اسْتَدْرَجَ! وَكُوْنُوْا عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ الخَطَايَا، مُجْتَهِدِيْنَ في مَحْوِها! وَمَا شَيْءٌ يَنْفَعُ كالتَّضَرُّعِ مَعَ الحِمْيَةِ عَنِ الخَطَايا؛ فَلَعَلَّه[3]. وهٰذا فَصْلٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ المُعَامِلُ للهِ تَعَالَىٰ نَفَعَهُ.

٤٢٨ ـ وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ المُرَاقِبِيْنَ للهِ تَعَالَىٰ: قَدَرْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ وَلَيْسَتْ بِكَبِيْرَةٍ، فَنَازَعَتْنِي نَفْسِي إِلَيْهَا؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ صِغَرِها، وَعِظَمِ فَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَرَمِهِ، **فَقُلْتُ**

---

(١) **عفى**: محا وأزال.

(٢) **الجلوات**: عكس الخلوات.

(٣) **فلعله**: أي فلعله ينفع.

لِنَفْسِي: إِنْ غَلَبْتِ هٰذِهِ؛ فَأَنْتِ أَنْتِ، وَإِذَا أَتَيْتِ هٰذِهِ؛ فَمَنْ أَنْتِ؟! وَذَكَّرْتُهَا حَالَةَ أَقْوَامٍ كانُوْا يَفْسَحُوْنَ لِأَنْفُسِهِم فِي مُسَامَحَةٍ؛ كَيْفَ انْطَوَتْ أَذْكَارُهُمْ، وَتَمَكَّنَتْ عُقُوْبَةُ الإِعْرَاضِ عنهم مِنْهُمْ، فَارْعَوَتْ[1] وَرَجَعَتْ عَمّا هَمَّتْ بِهِ. واللهُ المَوَفِّقُ.

٨٤ - فصل: اعرفوا عظمة الناهي

٤٢٩ ـ كَثيرٌ مِنَ النَّاسَ يَتَسَامَحُوْنَ فِي أُمُوْرٍ يَظُنُّونَهَا قَرِيْبَةً، وَهَيَ تَقْدَحُ في الأُصُوْلِ؛ كاسْتِعَارَةِ طُلّابِ العِلْمِ جُزْءًا لا يَرُدُّوْنَهُ، وَقَصْدِ الدُّخُوْلِ عَلىٰ مَنْ يَأْكُلُ لِيُأْكَلَ[2] مَعَه، وَتَناوُلِ طَعَامٍ لَمْ يُدْعَ الإِنْسَانُ إِلَيْهِ، والتَّسَامُحِ بِعِرْضِ العَدُوِّ ٱلتِذَاذًا بِذٰلِكَ، واسْتِصْغَارًا لِمِثْلِ هٰذا الذَّنْبِ، وَإِطْلَاقِ البَصَرِ هَوَانًا بِتِلْكَ الخَطِيْئَةِ، وَفَتْوَىٰ مَنْ لا يَعْلَمُ لِئَلّا يُقَالَ: هُوَ جَاهِلٌ، وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَظُنُّهُ صَغِيْرًا وَهُوَ عَظِيْمٌ.

وَأَهْوَنُ ما يَصْنَعُ ذٰلِكَ بِصَاحِبِهِ أَنْ يَحُطَّهُ مِنْ مَرْتَبَةِ المُتَمَيِّزِيْنَ بَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْ مَقَامِ رِفْعَةِ القَدْرِ عِنْدَ الحَقِّ. وَرُبَّمَا قِيْلَ لَهُ بِلِسَانِ الحَقِّ: يا مَنِ اؤْتُمِنَ عَلىٰ أَمْرٍ يَسِيْرٍ فَخَانَ! مَا بَلِيَّةُ حَظِّكَ فَٱنْوِ به[3].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: تَسَامَحْتُ بِلُقْمَةٍ، فَتَنَاوَلْتُهَا، فَأَنَا اليَوْمَ مِنْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً إلى خَلْفٍ[4].

فَاللهَ اللهَ! اسْمَعُوْا مِمَّنْ قَدْ جَرَّبَ! كُوْنُوْا عَلىٰ مُرَاقَبَةٍ! وَانْظُرُوْا فِي العَوَاقِبِ! واعْرِفُوا عَظَمَةَ النَّاهِي! واحْذَرُوْا مِنْ نَفْخَةٍ تُحْتَقَرُ، وشَرَرَةٍ تُسْتَصْغَرُ؛ فَرُبَّمَا أَحْرَقَتْ بلدًا!

وَهٰذا الّذِي أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ يَسِيْرٌ يَدُلُّ عَلىٰ كَثِيْرٍ، وَأُنْمُوْذَجٌ يُعَرِّفُ باقي المُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوْبِ.

وَالعِلْمُ وَالمُرَاقَبَةُ يُعَرِّفَانِكَ مَا أَخْلَلْتَ بِذِكْرِهِ، وَيُعَلِّمَانِكَ إِنْ تَلَمَّحْتَ بِعَيْنِ البَصِيْرَةِ أَثَرَ شُؤْمِ فِعْلِه، وَلَاْ حَوْلَ وَلَاْ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ.

---

(١) **ارعوت**: انزجرت، واتعظت.
(٢) في الأصل: ليؤكل.
(٣) في (ي): كيف ترجو بتدلّيك رضا الديان. والتدلي: انحطاط في الهمة توقع صاحبها في المعاصي.
(٤) **خلف**: أي من سيِّئ إلى أسوأ.

٨٥ - فصل: تسأل الله حاجاتها وتنسى جناياتها

٤٣٠ ـ رَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي عَجبًا! تَسْأَلُ اللهَ ﷻ حَاجَاتِهَا، وَتَنْسَى جِنَايَاتِهَا!! **فَقُلْتُ**: يَا نَفْسَ السَّوْءِ! أَوَ مِثْلُكِ يَنْطِقُ؟! فَإِنْ نَطَقَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ السُّؤَالُ العَفْوَ فَحَسْبُ. **فَقَالَتْ**: فَمِمَّنْ أَطْلُبُ مُرَادَاتِي؟! **قُلْتُ**: مَا أَمْنَعُكِ مِنْ طَلَبِ المُرَادِ، إِنَّمَا أَقُوْلُ: حَقِّقِي التَّوْبَةَ وَانْطِقِي؛ كَمَا نَقُوْلُ فِي العَاصِي بِسَفَرِهِ[1] إِذَا اضْطُرَّ إِلَىٰ المَيْتَةِ: لا يَجُوْزُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ. فَإِنْ قِيْلَ لَنَا: أَفَيَمُوْتُ؟! قُلْنَا: لا؛ بَلْ يَتُوْبُ وَيَأْكُلُ.

فَاللهُ اللهَ مِنْ جَرَاءَةٍ عَلَىٰ طَلَبِ الأَغْرَاضِ، مَعَ نِسْيَانِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذُّنُوْبِ، الَّتِي تُوْجِبُ تَنْكِيْسَ الرَّأْسِ، وَلَئِنْ تَشَاغَلْتِ بِإِصْلاحِ مَا مَضَىٰ، وَالنَّدَمِ عَلَيْهِ؛ جَاءَتْكِ مُرَادَاتُكِ. كَمَا رُوِيَ: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِيْ عَنْ مَسْأَلَتِي؛ أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِيْنَ**»[2].

٤٣١ ـ وَقَدْ كَانَ بِشْرٌ الحافِي يَبْسُطُ يَدَيْهِ للسُّؤَالِ، ثُمَّ يُسْبِلهُمَا، وَيَقُوْلُ: مِثْلِي لا يَسْأَلُ! مَا أَبْقَتِ الذُّنُوْبُ لِي وَجْهًا. وَهٰذَا يَخْتَصُّ بِبِشْرٍ لِقُوَّةِ مَعْرِفَتِهِ، كَانَ وَقْتَ السُّؤَالِ كَالْمُخَاطِبِ كِفَاحًا، فَاسْتَحْيا لِلزَّلَلِ. فَأَمَّا أَهْلُ الغَفْلَةِ؛ فَسُؤَالُهُمْ عَلَىٰ بُعْدٍ. فَافْهَمْ مَا ذَكَرْتُهُ، وَتَشَاغَلْ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الزَّلَلِ.

٤٣٢ ـ ثُمَّ العَجَبُ مِن سُؤَالاتِكَ! فَإِنَّكَ لا تَكَادُ تَسْأَلُ مُهِمًّا مِنَ الدُّنيا، بَلْ فُضُوْلَ العَيْشِ، وَلا تَسْأَلُ صَلاحَ القَلْبِ وَالدِّيْنِ مِثْلَ مَا تَسْأَلُ صَلاحَ الدُّنيا.

فَاعْقِلْ أَمْرَكَ؛ فَإِنَّكَ مِنَ الانْبِسَاطِ وَالغَفْلَةِ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ، وَلْيَكُنْ حُزْنُكَ على زَلَّاتِكَ شَاغِلًا لكَ عَنْ مُرَادَاتِكَ؛ فَقَدْ كَانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ شَدِيْدَ الخَوْفِ، فَلَمَّا قِيْلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ؟ **قَالَ**: وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُوْنَ اطَّلَعَ عَلَىٰ بَعْضِ ذُنُوْبِي فَقَالَ: اذْهَبْ؛ لا غَفَرْتُ لَكَ؟!

---

(١) العاصي بسفره هو ما كان الباعث على سفره المعصية، كمن سافر ليتجر بالخمر، فهذا لا يجوز له الترخص في السفر إلا أن يتوب، أما العاصي في السفر فهو ما كان الباعث على سفره جائزًا لكنه لابس في سفره معصية كمن سافر يتجر بمال مباح، لكنه شرب الخمر في سفره، فهذا يجوز له الترخص في السفر.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، والدارمي (١١/ ٤٤١) عن أبي سعيد الخدري، ضعَّفه العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٩٥).

٨٦ - فصل: ما عرف الله إلا من خاف منه

٤٣٣ ـ أَعْجَبُ العَجَبِ دَعْوَى المَعْرِفَةِ مَعَ البُعْدِ عَنِ العِرْفَانِ باللهِ! مَا عَرَفَهُ إِلَّا مَنْ[١] خَافَ مِنْهُ؛ فَأَمّا المُطْمَئِنُّ؛ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ المَعْرِفَةِ.

٤٣٤ ـ وَفِي المُتَزَهِّدِيْنَ أَهْلُ تَغْفِيْلٍ، يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُوْقِنُ[٢] أَنَّه وَلِيٌّ مَحْبُوْبٌ وَمَقْبُوْلٌ! وَرُبَّمَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ أَلْطَافٌ ظَنَّها كَرَامَاتٍ، وَنَسِيَ الاسْتِدْرَاجَ[٣]، الَّذِي لَفَّتْ مُسَاكَنَتَهُ الأَلْطَافُ! وَرُبَّمَا احْتَقَرَ غَيْرَهُ، وَظَنَّ أَنَّ مَحلَّتَهُ[٤] مَحْفُوْظَةٌ بِهِ! تَغُرُّهُ رُكَيْعَاتٌ يَنْتَصِبُ فِيْهَا، أَوْ عِبَادَةٌ يَنْصَبُ[٥] بِهَا! وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ قُطْبُ الأَرْضِ! وَأَنَّهُ لا يَنَالُ مَقَامَهُ بَعْدَه أَحَدٌ!!

٤٣٥ ـ وَكأَنَّهُ مَا عَلِمَ أَنَّهُ بَيْنَا[٦] مُوْسَى عليه السلام مُكَالَمٌ؛ نُبِّئَ يُوْشَعُ! وَبَيْنَا زَكَرِيَّا عليه السلام مُجَابُ الدَّعْوَةِ؛ نُشِرَ بِالمنْشَارِ! وَبَيْنَا يَحْيَىٰ عليه السلام يُوْصَفُ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ؛ سُلِّطَ عَلَيْهِ كَافِرٌ اْحْتَزَّ رَأْسَهُ! وَبَيْنَا بَلْعَامُ[٧] مَعَهُ الاسْمُ الأَعْظَمُ؛ صَارَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ! وَبَيْنَا الشَّرِيْعَةُ يُعْمَلُ بِهَا؛ نُسِخَتْ، وَبَطَلَ حُكْمُهَا! وَبَيْنَا البَدَنُ مَعْمُوْرٌ؛ خَرِبَ، وسُلِّطَ البِلَىٰ[٨] عَلَيْهِ! وَبَيْنَا العَالِمُ يَدْأَبُ حَتَّى يَنَالَ مَرْتَبَةً يَعْتَقِدُهَا؛ نَشَأَ طِفْلٌ فِيْ زَمَانِه، تَرَقَّىٰ إِلَىٰ سَبْرِ عُيُوْبِهِ وَغَلَطِهِ، وَكَمْ مِنْ مُتَكَلِّمٍ يَقُوْلُ: مَا مِثْلِي! لَوْ عَاشَ فَسَمِعَ مَا حَدَثَ بَعْدَه مِنَ الفَصَاحَةِ؛ عَدَّ نَفْسَه أَخْرَسَ! هٰذا وَعْظُ **ابنِ السَّمَّاكِ**[٩] **وَابْنِ عَمَّارٍ**[١٠] **وابْنِ**

---

(١) في الأصل: ما.
(٢) في الأصل: يوطن على.
(٣) الاستدراج: أن يفتح الله عليهم من النعم ما يغتبطهم به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون. كما قال المؤلف في زاد المسير ص(٥٣) ط ابن حزم.
(٤) **محلته**: موطن سكناه.
(٥) **ينصب**: يتعب.
(٦) **بينا**: بينما.
(٧) **بلعام** بن باعوراء: أحد علماء بني إسرائيل، أضله الله بعد علم، فكان عبرة لغيره، انظر: قصته في فتح القدير تفسير الآيات (١٧٥ ـ ١٧٨) من سورة الأعراف.
(٨) في الأصل: البلاء.
(٩) محمد بن صبيح العجلي، سيد الوعاظ في عصره، زاهد عابد، توفي سنة (١٨٣هـ).
(١٠) منصور بن عمار بن كثير السلمي الخراساني، الواعظ البليغ، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير وفاته في حدود المئتين.

سَمْعُون[١]؛ لا يَصْلُحُ لِبَعْضِ تَلامِذَتِنا وَلا يَرْضَاهُ. فَكَيْفَ يَعْجَبُ مَنْ يُنْفِقُ[٢] شيئًا؟! وَرُبَّمَا أَتَىٰ بَعْدَنا مَنْ لا يَعُدُّنا!!

فَاللهَ اللهَ مِنْ مُسَاكَنَةِ مَسْكَنٍ، وَمُخَالَفَةِ مَقَام... وَلْيَكُنِ المُتَيَقِّظُ عَلىٰ انْزِعَاجٍ، مُحْتَقِرًا لِلْكَثِيرِ مِنْ طَاعَاتِه، خَائِفًا عَلىٰ نَفْسِهِ مِنْ تَقَلُّبَاتِه، وَنُفُوذِ الأَقْدَارِ فِيْهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ تَلَمُّحَ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ الّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا يَضْرِبُ عُنُقَ العَجْبِ، وَيُذْهِبُ كِبْرَ الكِبْرِ[٣].

٨٧ - فصل: المعرفة التي توجب الرضا والصبر

٤٣٦ - مَنْ عَاشَ مَعَ اللهِ ﷻ طَيِّبَ النَّفْسِ[٤] فِي زَمَنِ السَّلامَةِ؛ خِفْتُ عَلَيْهِ زَمَنَ البلاءِ؛ فَهُنَاكَ المحكُّ.

إِنَّ المَلِكَ ﷻ بَيْنا يَبْنِي نَقَضَ، وبَيْنا يُعْطِي سَلَبَ؛ فَطِيْبُ النَّفْسِ[٤] والرضا هُنَاكَ يَبِيْنُ[٥] فَأَمّا مَنْ تَوَاصَلَتْ لَدَيْهِ النِّعَمُ؛ فَإِنَّهُ يَكُوْنُ طَيِّبَ القَلْبِ لِتَوَاصُلِهَا؛ فَإِذا مَسَّتْهُ نَفْحَةٌ مِنَ البَلاءِ؛ فَبَعِيْدٌ ثَبَاتُهُ. قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: كَانُوْا يَتَسَاوَوْنَ فِي وَقْتِ النِّعَمِ؛ فَإِذَا نَزَلَ البَلاءُ؛ تَبَايَنُوْا[٦].

٤٣٧ - فَالعَاقِلُ مَنْ أَعَدَّ ذُخرًا، وَحَصَّلَ زَادًا، وَازْدَادَ مِنَ العَدَدِ؛ لِلِقَاءِ حَرْبِ البَلاءِ، وَلَا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ البَلَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِنْدَ صَرْعَةِ المَوْتِ؛ فَإِنَّهَا إِنْ نَزَلَتْ

---

(١) محمد بن أحمد بن عنبس البغدادي (٣٠٠ - ٣٨٧هـ): أوحد دهره في الكلام على الخواطر.

(٢) في حاشية الأصل: كذا في الهندية. وفي الأحمدية: يتفق شيئًا.

(٣) **كبر الكبر**: كثيره وجله.

(٤) في الأصل: العيش.

(٥) **يبين**: يظهر.

(٦) في كتاب الزهد للإمام أحمد (٣٤٣): والله لقد رأيتهم يتفاوتون في العافية، فإذا نزل البلاء تساووا، وهذا يتفق مع قوله تعالى في سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

obeikandl.com

ـ وَالعِيَاذُ باللهِ ـ فَلَمْ تَجِدْ مَعْرِفةً تُوْجِبُ الرِّضا أَوِ الصَّبْرَ؛ أَخْرَجَتْ إِلىٰ الكُفْرِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ فِيْهِ كَثْرَةَ الخَيْرِ، وَهُوَ يَقُوْلُ فِي لَيَالِي مَوْتِهِ: رَبِّي هُوَ ذا يَظْلِمُنِي! فَلَمْ أَزَلْ مُنْزَعِجًا مُهْتَمًّا بِتَحْصِيْلِ عُدَّةٍ أَلقَىٰ بِهَا ذٰلِكَ اليَوْمَ[1]. كَيْفَ؛ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُوْلُ لِأَعْوَانِه فِي تِلْكَ السَّاعَةِ: عَلَيْكُمْ بِهٰذا؛ فَإِنْ فَاتَكُمْ؛ فَلَمْ تَقْدِرُوْا عَلَيْه؟!

٤٣٨ ـ وَأَيُّ قَلْبٍ يَثْبُتُ عِنْدَ إِمْسَاكِ النَّفْسِ، وَالأَخْذِ بِالكَظَمِ[2]، وَنَزْعِ النَّفْسِ، وَالعِلْمِ بِمُفَارَقَةِ المَحْبُوْبَاتِ إِلَىٰ مَا لا يَدْرِي مَا هُوَ، وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ إِلَّا القَبْرَ والبَلَاءَ.

٤٣٩ ـ فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقِيْنًا يَقِيْنًا[3] شَرَّ ذٰلِكَ اليَوْم؛ لَعَلَّنا نَصْبِرُ لِلْقَضَاءِ أَوْ نَرْضَىٰ بِهِ، وَنَرْغَبُ إِلىٰ مَالِكِ الأُمُوْرِ فِي أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ فَوَاضِلِ نِعَمِهِ عَلَىٰ أَحْبَابِه؛ حَتَّى يَكُوْنَ لِقَاؤُهُ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ بَقَائِنا، وَتَفْوِيْضُنَا إِلَىٰ تَقْدِيْرِه أَشْهَىٰ لَنَا مِن اخْتِيارِنَا.

وَنَعُوْذُ باللهِ مِن اعْتِقَادِ الكَمَالِ لِتَدْبِيْرِنا، حَتَّى إِذَا انْعَكَسَ عَلَيْنَا أَمْرٌ؛ عُدْنا إِلىٰ القَدَرِ بِالتَّسَخُّطِ، وَهٰذَا هُوَ الجَهْلُ المَحْضُ وَالخِذْلانُ الصَّرِيْحُ، أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهُ.

٨٨ - فصل: صفة العارف

٤٤٠ ـ لَيْسَ فِي الدُّنيا وَلَا فِي الآخِرَةِ أَطْيَبُ عَيْشًا مِنَ العَارِفِيْنَ بِاللهِ ﷻ. فَإِنَّ العَارِفَ بِهِ مُسْتَأْنِسٌ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ؛ فَإِنْ عَمَّتْ نِعْمَةٌ؛ عَلِمَ مَنْ أَهْدَاهَا، وَإِنْ مَرَّ مُرٌّ حَلا مَذَاقُهُ فِي فِيْهِ؛ لِمَعْرِفَتِه بِالمُبْتَلي، وَإِنْ سَأَلَ فَتَعَوَّقَ مَقْصُوْدُهُ؛ صَارَ مُرَادُهُ مَا جَرَىٰ بِهِ القَدَرُ؛ عِلْمًا مِنْهُ بِالمَصْلَحَةِ، بَعْدَ يَقِيْنِهِ بِالحِكْمَةِ، وَثِقَتِهِ بِحُسْنِ التَّدْبِيْرِ.

٤٤١ ـ وَصِفَةُ العَارِفِ: أَنَّ قَلْبَهُ مُرَاقِبٌ لِمَعْرُوْفِهِ[4]، قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، نَاظِرٌ بِعَيْنِ اليَقِيْنِ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ سَرَىٰ مِنْ بَرَكَةِ مَعْرِفَتِهِ إِلَىٰ الجَوَارِحِ مَا هَذَّبَها.

فَإِنْ نَطَقْتُ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ ... وَإِنْ سَكَتُّ فَأَنْتُمْ عَقْدُ إِضْمَارِي

---

(١) في الأصل: القرن.
(٢) **الكظم**: مخرج النفس.
(٣) **يقينا**: يحفظنا.
(٤) **معروفه**: خالقه ﷻ.

٤٤٢ ـ **إِذَا تَسَلَّطَ عَلَىٰ العَارِفِ أَذًى؛ أَعْرَضَ نَظَرُهُ عَن السَّبَبِ، وَلَمْ يَرَ سِوَى المُسَبِّبِ؛ فَهُوَ فِي أَطْيَبِ عَيْشٍ مَعَهُ: إِنْ سَكَتَ؛ تَفَكَّرَ في إقامةِ حَقِّهِ، وَإِنْ نَطَقَ؛ تَكَلَّمَ بِمَا يُرْضِيْهِ، لا يَسْكُنُ قَلْبُهُ إِلَىٰ زَوْجةٍ وَلا إِلَىٰ وَلَدٍ، وَلا يَتَشَبَّثُ بِذَيْلِ مَحَبَّةِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُعاشِرُ الخَلْقَ بِبَدَنِه، وَرُوْحُهُ عِنْدَ مَالِكِ رُوْحِهِ.**

فهٰذا الّذِي لا هَمَّ عَلَيْهِ في الدُّنيا، وَلا غَمَّ عِنْدَهُ وَقْتَ الرَّحِيْلِ عَنْهَا، وَلا وَحْشَةَ لَهُ فِي القَبْرِ، وَلا خَوْفَ عَلَيْهِ يَوْمَ المَحْشَرِ.

٤٤٣ ـ فَأَمَّا مَنْ **عَدِمَ المَعْرِفَةَ**؛ فَإِنَّهُ مُعَثَّرٌ: **لا يَزَالُ يَضِجُّ مِنَ البَلاءِ**؛ لِأَنَّهُ لا يَعْرِفُ المُبْتَلِيَ، **وَيَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِ غَرَضِهِ**؛ لِأَنَّهُ لا يَعْرِف المَصْلَحَةَ، **وَيَسْتَأْنِسُ بِجِنْسِهِ**؛ لِأَنَّه لا مَعْرِفَةَ بَيْنَه وَبَيْنَ رَبِّهِ، **وَيَخَافُ مِنَ الرَّحِيْلِ**؛ لِأَنَّهُ لا زَادَ لَهُ، ولا مَعْرِفَةَ بِالطَّرِيْقِ.

٤٤٤ ـ وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ وَزَاهِدٍ لَمْ يُرْزَقا مِنَ المَعْرِفَةِ إِلَّا مَا رُزِقَهُ العَامِّيُّ البَطَّالُ! وَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِمَا! وَكَمْ مِنْ عَامِّيٍّ رُزِقَ مِنْهَا مَا لَمْ يُرْزَقاه مَعَ اجْتِهَادِهِما! وَإِنَّمَا هِيَ مَوَاهِبُ وَأَقْسَام[1]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

٨٩ - فصل: لا تبع عزَّ التقوى بذل المعاصي

٤٤٥ ـ بِاللهِ عَلَيْكَ يَا مَرْفُوْعَ القَدْرِ بِالتَّقْوَىٰ؛ لا تَبِعْ عِزَّهَا بِذُلِّ المَعَاصِي! وَصَابِرْ عَطَشَ الهَوَىٰ فِي هَجِيْرِ[2] المُشْتَهَىٰ، وَإِنْ أَمَضَّ[3] وَأَرْمَضَ[4]؛ فَإِذَا بَلَغْتَ النِّهَايةَ مِنَ الصَّبْرِ؛ فَاحْتَكِمْ وَقُلْ؛ فَهُوَ مَقَامُ **«مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ»**.

٤٤٦ ـ تَاللهِ لَوْلا صَبْرُ عُمَرَ؛ مَا انْبَسَطَتْ يَدُهُ بِضَرْبِ الأَرْضِ بِالدِّرَّةِ[5]. وَلَوْلا جِدُّ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ فِيْ تَرْكِ هَوَاهُ، وَقَدْ سَمِعْتَ مِنْ آثارِ عَزْمَتِهِ: «لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ مَشْهَدًا؛ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ» فَأَقْبَلَ يَوْمَ أُحُدٍ يُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يُعْرَفْ إِلَّا بِبَنَانِهِ[6]؛

---

(١) **الأقسام**: جمع قسم وهو النصيب.
(٢) **الهجير**: شدة الحر وهو هنا شدة الشهوة. (٣) **أمض**: آلم.
(٤) **أرمض**: أحرق لشدة حرّه. (٥) **الدرة**: سوط أو عصا لينة للتأديب.
(٦) رواه البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣) عن أنس بن مالك ﷺ و(البنان) طرف الأصبع.

فَلَوْلا هٰذَا العَزْمُ؛ مَا كانَ انْبِسَاطُ وَجْهِهِ[1] يَوْمَ حَلَفَ: واللهِ؛ لا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ[2].

٤٤٧ ـ بِاللهِ عَلَيْكَ؛ تَذَوَّقْ حَلَاوَةَ كَفِّ الكَفِّ عَنْ الْمَنهِيِّ؛ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ تُثْمِرُ عِزَّ الدُّنيا وشَرَفَ الآخِرَةِ. وَمَتَىٰ اشْتَدَّ عَطَشُكَ إِلَىٰ مَا تَهْوَىٰ؛ فَابْسُطْ أَنَامِلَ الرَّجَاءِ إِلَىٰ مَنْ عَنْدَهُ الرَّيُّ الكَامِلُ، وَقُلْ: قَدْ عِيْلَ صَبْرُ[3] الطَّبْعِ فِي سِنِيِّهِ العِجَافِ[4]؛ فَعَجِّلْ لِيَ العَامَ الذِي فِيْهِ أُغَاثُ وأَعْصِرُ.

٤٤٨ ـ بِاللهِ عَلَيْكَ؛ تَفَكَّرْ فِيْمَنْ قَطَعَ أَكْثَرَ العُمُرِ فِي التَّقْوَىٰ والطَّاعَةِ، ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ فِي الوَقْتِ الأَخِيْرِ، كَيْفَ نَطَحَ مَرْكَبُهُ الجُرُفَ[5] فَغَرِقَ وَقْتَ الصُّعُودِ! أُفٍّ واللهِ لِلدُّنيا ـ لَا بَلْ لِلْجنَّةِ ـ إِنْ أَوْجَبَ نَيْلُهَا إِعْرَاضَ الحَبِيْبِ!

٤٤٩ ـ إِنَّما نَسَبُ العَامِيِّ بِٱسْمِهِ وٱسْمِ أبيهِ، أَمّا ذَوُوْ الأَقْدَارِ؛ فَالأَلْقَابُ قَبْلَ الأَنْسَابِ. قُلْ لِيْ: مَنْ أَنْتَ؟ وَمَا عَمَلُكَ؟ وَإِلَىٰ أَيِّ مَقَامٍ ارْتَفَعَ قَدْرُكَ؟

٤٥٠ ـ يَا مَنْ لا يَصْبِرُ لَحْظَةً عَمّا يَشْتَهِي! بِاللهِ عَلَيْكَ؛ أَتَدْرِي مَن الرَّجُلُ؟! الرَّجُلُ ـ واللهِ ـ مَنْ إِذَا خَلا بِمَا يُحِبُّ مِنَ المُحَرَّمِ، وَقَدَرَ عَلَيْهِ، وَتَقَلْقَلَ عَطَشًا إِلَيْهِ؛ نَظَرَ إِلَىٰ نَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْهِ، فَاسْتَحَىٰ مِنْ إِجَالَةِ هَمِّهِ فيما يَكْرَهُهُ، فَذَهَبَ العَطَشُ.

٤٥١ ـ كَأَنَّكَ لا تَتْرُكُ لَنَا إِلَّا مَا لا تَشْتَهِي، أَوْ مَا لا تَصْدُقُ الشَّهْوَةَ فيه، أَوْ مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ!!

كَذَا وَاللهِ عَادَتُكَ! إِذَا تَصَدَّقْتَ؛ أَعْطَيْتَ كِسْرَةً لا تَصْلُحُ لكَ، أَوْ فِي جَمَاعَةٍ يَمْدَحُوْنَكَ.

---

(١) في الأصل: وجه.

(٢) عن أنس بن مالك: أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرَش وطلبوا العفو، فأبوا، فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنيتها، فقال: «يا أنس كتاب الله القصاص» فرضي القوم وقبلوا الأرَش، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه» رواه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥).

(٣) **عيل الصبر**: فُقد.

(٤) **العجاف**: الهزلى.

(٥) **الجرف**: الساحل الصخري.

هَيْهَاتَ! وَاللهِ؛ لا نِلْتَ وَلايَتنا حتَّى تَكُوْنَ مُعَامَلَتُكَ لنا خَالِصَةً، تبذُلُ أَطَايِبَكَ، وَتَتْرُكُ مُشْتَهَياتِكَ، وَتَصْبِرُ عَلىٰ مَكْرُوْهَاتِكَ؛ عِلْمًا مِنْكَ ـ إِنْ كُنْتَ مُعَامِلًا ـ بِأَنَّكَ أَجِيْرٌ، وَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ[1] فَإِنْ كُنْتَ مُحِبًّا؛ رَأَيْتَ ذٰلِكَ قَلِيْلًا فِيْ جَنْبِ رِضا حَبِيْبِكَ عَنْكَ. وَمَا كَلامُنَا مَعَ الثَّالِثِ[2].

٩٠ - فصل: ثبتت حكمة الله في حكمه وملكه

٤٥٢ ـ رَأَيْتُ فِي العَقْلِ نَوْعَ مُنَازَعَةٍ لِلتَّطَلُّعِ إِلَىٰ [مَعْرِفَةِ] جَمِيْعِ حِكَمِ الحَقِّ ﷻ فِي حُكْمِهِ! فَرُبَّمَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ بَعْضُها ـ مِثْلُ النَّقْضِ بَعْدَ البِنَاءِ ـ فَيَقِفُ مُتَحَيِّرًا! وَرُبَّمَا انْتَهَزَ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الفُرْصَةَ، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ: أَيْنَ الحِكْمَةُ مِنْ هٰذا؟!

فَقُلْتُ لَهُ: احْذَرْ أَنْ تُخْدَعَ يا مِسْكِيْنُ! فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ [عِنْدَكَ] بِالدَّلِيْلِ القَاطِعِ ـ لِمَا رَأَيْتَ مِنْ إِتْقَانِ الصَّنَائِعِ ـ [مَبْلَغُ] حِكْمَةِ الصَّانِعِ؛ فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ بَعْضُ الحِكَمِ؛ فَلِضَعْفِ إِدْرَاكِكَ.

٤٥٣ ـ ثُمَّ ما زَالَتْ لِلمُلُوْكِ أَسْرَارٌ؛ فَمَن أَنْتَ حَتَّى تَطَّلِعَ بِضعْفِكَ عَلىٰ جَمِيْعِ حِكَمِهِ؟! يَكْفِيْكَ الجُمَلُ! وَإِيّاكَ إِيّاكَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِمَا يَخْفَىٰ عليكَ؛ فَإِنَّكَ بَعْضُ مَوْضُوْعَاتِهِ، وَذَرَّةٌ مِنْ مَصْنُوْعَاتِهِ؛ فَكَيْفَ تَتَحَكَّمُ عَلىٰ مَنْ صَدَرْتَ عنهُ؟!

٤٥٤ ـ ثُمَّ قَدْ ثَبَتَتْ عِنْدَكَ حِكمَتُهُ في حُكْمِهِ ومُلْكِه؛ فَأَعْمِلْ آلَتَكَ عَلىٰ قَدْرِ قُوَّتِكَ في مُطَالَعَةِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الحِكَمِ؛ فَإِنَّهُ سَيُورِثُكَ الدَّهَشَ! وَغَمِّضْ عَمَّا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ؛ فَحَقِيْقٌ بِذِي البَصَرِ الضَّعِيْفِ ألا يُقَاوِيَ[3] نورَ الشَّمْسِ.

٩١ - فصل: أعجب الأشياء مجاهدة النفس

٤٥٥ ـ أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ صِناعةٍ عَجِيْبَةٍ: فَإِنَّ

---

(١) **ما غربت الشمس**: أي لم ينته يوم العمل لتستحق الأجر.

(٢) **الثالث**: العاصي.

(٣) **يقاوي**: يغالب، وما زال هذا الحرف مستعملًا في الشام.

أَقْوَامًا أَطْلَقُوْهَا فِيْمَا تُحِبُّ، فَأَوْقَعَتْهُمْ فِيْمَا كَرِهوا، وَإِنَّ أَقْوَامًا بَالَغُوْا فِي خِلَافِها، حَتَّى مَنَعُوْهَا حَقَّها، وَظَلَمُوْهَا، وَأَثَّرَ ظُلْمُهُمْ لها فِي تَعَبُّدَاتِهِمْ. **فَمِنْهُمْ**: مَنْ أَسَاءَ غِذَاءَهَا، فَأَثَّرَ ذٰلِكَ ضَعْفَ بَدَنِهَا عَنْ إِقَامَةِ وَاجِبِها، **وَمِنْهُمْ**: مَنْ أَفْرَدَهَا فِي خَلْوَةٍ؛ أَثْمَرَتِ الوَحْشَةَ مِنَ النّاسِ، وَآلَتْ إِلىٰ تَرْكِ فَرْضٍ أَوْ فَضْلٍ؛ مِنْ عِيَادَةِ مَرِيْضٍ، أَوْ بِرِّ وَالِدَةٍ.

وَإِنَّمَا الحَازِمُ مَنْ تعْلَمُ مِنْهُ نَفْسُهُ الجِدَّ وَحِفْظَ الأُصُوْلِ؛ فَإِذا فَسَحَ لَهَا في مُباحٍ؛ لَمْ تَتَجَاسَرْ أَنْ تَتَعَدَّاهُ، فَيَكُوْنُ مَعَهَا كالمَلِكِ إِذَا مَازَحَ بَعْضَ جُنْدِهِ؛ فَإِنّه لا يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ الغُلامُ؛ فَإِنِ انْبَسَطَ؛ ذَكَرَ هَيْبَةَ المَمْلَكَةِ. فَكَذٰلِكَ المُحَقِّقُ؛ يُعْطِيْهَا حَظَّها، وَيَسْتَوْفِي مِنْهَا مَا عَلَيْهَا.

٩٢ - فصل: البدار البدار قبل الفوات

٤٥٦ ـ رَأَيْتُ عُمُوْمَ الخَلَائِقِ يَدْفَعونَ الزَّمَانَ دَفْعًا عَجِيْبًا: إِنْ طَالَ اللَّيْلُ؛ فَبِحَدِيْثٍ لا يَنْفَعُ، أَوْ بِقِرَاءَةِ كِتَابٍ فِيْهِ غَزَاةٌ وَسَمَرٌ! وَإِنْ طَالَ النَّهَارُ؛ فَبِالنَّوْمِ! وَهُمْ في أَطْرَافِ النَّهَارِ عَلىٰ دِجْلَةَ أَوْ فِي الأَسْوَاقِ! فَشَبَّهْتُهُمْ بِالمُتَحَدِّثِيْنَ في سَفِيْنَةٍ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، وَمَا عِنْدَهُمْ خَبَرٌ!

٤٥٧ ـ وَرَأَيْتُ النَّادِرِيْنَ قَدْ فَهِمُوْا مَعْنَى الوُجُودِ؛ فَهُمْ فِي تَعْبِئَةِ الزَّادِ، وَالتَّأَهُّبِ لِلرَّحِيْلِ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَفَاوَتُوْنَ، وَسَبَبُ تَفَاوُتِهِم قُلَّةُ العِلْمِ وَكَثْرَتُه، بِمَا يَنْفُقُ في بَلَدِ الإِقامةِ[1]، **فَالمُتَيَقِّظُوْنَ مِنْهُمْ** يَتَطَلَّعُوْنَ إِلَىٰ الأَخْبَارِ بِالنَّافِقِ هُنَاكَ، فَيَسْتَكْثِرُوْنَ مِنْهُ، فَيَزِيْدُ رِبْحُهُم. **وَالغَافِلونَ مِنْهُمْ** يَحْمِلونَ ما اتَّفَقَ، وَرُبَّمَا خَرَجُوْا لا مَعَ خَفِيرٍ[2]؛ فَكَمْ مِمَّنْ قَدْ قُطِعَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيْقُ فَبَقِيَ مُفْلِسًا!

فَاللهَ اللهَ فِيْ مَوَاسِمِ العُمْرِ! وَالبِدَارَ البِدَارَ قَبْلَ الفَواتِ! وَاسْتَشْهِدُوْا العِلْمَ، وَاسْتَدِلُّوا الحِكْمَةَ، وَنَافِسُوْا الزَّمَانَ، وَنَاقِشُوْا النُّفُوْسَ، وَاسْتَظْهِرُوْا بِالزَّادِ؛ فَكَأَنْ قَدْ حَدَا الحَادِي، فَلَمْ يُفْهَمْ صَوْتُهُ مِنْ وَقْعِ دَمْعِ النَّدَمِ.

---

(١) **بلد الإقامة**: الآخرة.

(٢) **الخفير**: الحارس.

٩٣ - فصل: تخليط أرباب الآخرة

٤٥٨ ـ أَضَرُّ مَا عَلىٰ المَرِيْضِ التَّخْلِيطُ[١]. وَمَا مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَهُوَ مَرِيْضٌ بِالهَوَىٰ. والحِمْيَةُ عنه رَأْسُ الدواءِ، والتَّخْلِيطُ يُدِيْمُ المَرَضَ.

٤٥٩ ـ وَتَخْلِيْطُ أَرْبَابِ الآخِرَةِ عَلىٰ ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: **تَخْلِيْطُ العُلَمَاءِ**، وَهُوَ إمّا لِمُخَالَطَةِ الأَضْدَادِ كالسَّلَاطِيْنِ؛ فَإِنَّهُمْ يُضْعِفونَ قُوَى يَقِيْنِهِمْ، كُلَّمَا زَادَتِ المُخَالَطةُ؛ [ويَفْقِدُوْنَ][٢] دَلِيْلَهُمْ عِنْدَ المُرِيْدِيْنَ؛ فَإِنِّي إذَا رَأَيْتُ طَبِيْبًا يَخْلِطُ وَيَحْمِيْنِي؛ شَكَكْتُ أَوْ وَقَفْتُ.

والثاني: **تَخْلِيْطُ الزُّهادِ**، وَقَدْ يَكُوْنُ بِمُخَالَطَةِ أَرْبَابِ الدُّنيا، وَقَدْ يَكُوْنُ بِحِفْظِ النَّامُوْسِ فِي إظْهَارِ التَّخَشُّعِ، لِاجْتِلابِ مَحَبَّةِ العَوَامِّ.

فَاللهَ اللهَ؛ فَإِنَّ نَاقِدَ الجَزَاءِ بَصِيْرٌ، وَالإِخْلَاصُ فِي البَاطِنِ، وَالصِّدْقُ فِي القَلْبِ، وَنِعْمَ طَرِيْقُ السَّلامَةِ سَتْرُ الحَالِ.

٩٤ - فصل: أنفع المشايخ في صحبته العامل بعلمه

٤٦٠ ـ لَقِيْتُ مَشَايِخ، أَحْوَالُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، يَتَفَاوَتُوْنَ فِي مَقَادِيْرِهِمْ فِي العِلْمِ، وَكَانَ أَنفَعُهُمْ لِي فِي صُحْبَتِهِ العاملَ مِنْهُم بِعِلْمِهِ، وَإِنْ كانَ غَيْرُه أَعْلَمَ مِنْهُ.

٤٦١ ـ وَلَقِيْتُ جَمَاعَةً مِنْ عُلَمَاءِ الحَدِيْثِ يَحْفَظونَ ويَعْرِفونَ، وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوْا يَتَسَامَحُوْنَ بِغِيبَةٍ يُخْرِجُوْنها مَخْرَجَ جَرْحٍ وتَعْدِيلٍ، وَيَأْخُذُوْنَ عَلىٰ قِرَاءَةِ الحَدِيْثِ أُجْرَةً، وَيُسْرِعُوْنَ بِالجَوَابِ؛ لِئَلَّا يَنْكَسِرَ الجَاهُ، وَإِنْ وَقَعَ خَطأٌ.

٤٦٢ ـ وَلَقِيْتُ **عَبْدَ الوَهّابِ الأَنْمَاطِيَّ**، فَكَانَ عَلىٰ قَانُوْنِ السَّلَفِ، لَمْ تُسْمَعْ فِي مَجْلِسِهِ غِيْبَةٌ، وَلا كَانَ يَطْلُبُ أَجْرًا عَلىٰ سَمَاعِ الحَدِيْثِ، وَكُنْتُ إذَا قَرَأْتُ عَلَيْهِ أَحَادِيْثَ الرَّقَائِقِ؛ بَكَىٰ، وَاتَّصَلَ بكاؤُه، فَكَانَ ـ وَأَنَا صَغِيْرُ السِّنِّ حِيْنَئِذٍ ـ يَعْمَلُ بُكَاؤُهُ فِي قَلْبِي، وَيَبْنِي قَوَاعِدَ، وَكَانَ عَلىٰ سَمْتِ المَشَايِخِ الَّذِيْنَ سَمِعْنا أَوْصَافَهُمْ فِي النَّقْلِ.

---

(١) **التخليط**: عدم الحمية.

(٢) في الأصل: ويقدمون.

٤٦٣ ـ وَلَقِيْتُ الشَّيْخَ **أبا مَنْصُوْرٍ الجَوَالِيْقِيَّ**[١]، فَكَانَ كَثِيْرَ الصَّمْتِ، شَدِيْدَ التَّحَرِّي فِيْمَا يَقُوْلُ، مُتْقِنًا، مُحَقِّقًا، وَرُبَّمَا سُئِلَ المَسْأَلَةَ الظَّاهِرَةَ، الَّتِي يُبَادِرُ بِجَوَابِهَا بَعْضُ غِلْمَانِهِ، فَيَتَوَقَّفُ فِيْهَا حَتَّى يَتَيَقَّنَ، وكانَ كَثِيْرَ الصَّوْمِ والصَّمْتِ. **فَانْتَفَعْتُ بِرُؤْيَةِ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أَكْثَرَ مِنِ انْتِفَاعِي بِغَيْرِهِمَا فَفَهِمْتُ مِنْ هٰذِهِ الحَالَةِ أَنَّ الدَّلِيْلَ بِالفِعْلِ أَرْشَدُ مِنَ الدَّلِيْلِ بِالقَوْلِ.**

٤٦٤ ـ وَرَأَيْتُ مَشَايِخَ كَانَتْ لَهُمْ خَلَوَاتٌ فِي انْبِسَاطٍ وَمُزَاحٍ، فَرَاحُوْا عَنِ القُلُوْبِ، وَبَدَّدَ تَفْرِيْطُهُمْ مَا جَمَعُوْا مِنَ العِلْمِ، فَقَلَّ الانْتِفَاعُ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِم، وَنُسُوْا بَعْدَ مَمَاتِهِم، فَلا يَكَادُ أَحَدٌ يَلْتَفِتُ[٢] إِلَىٰ مُصَنَّفَاتِهِم.

فَاللهَ اللهَ فِيْ العِلْمِ بِالعَمَلِ؛ فَإِنَّهُ الأَصْلُ الأَكْبَرُ. وَالْمِسْكِيْنُ كُلُّ المِسْكِيْنِ مَنْ ضَاعَ عُمُرُه فِي عِلْمٍ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَفَاتَتْهُ لَذَّاتُ الدُّنيا وَخَيْرَاتُ الآخِرَةِ، فقَدِمَ مُفْلِسًا؛ عَلَىٰ قُوَّةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

٩٥ - فصل: إن الله ﷻ يمهل ليبلو صبر الصابر

٤٦٥ ـ سُبْحَانَ المَلِكِ العَظِيْمِ، الَّذِي مَنْ عَرَفَهُ خَافَهُ، وَمَا أَمِنَ مَكْرَه قَطُّ مَنْ[٣] عَرَفَهُ.

٤٦٦ ـ لَقَدْ **تَأَمَّلْتُ** أَمْرًا عَظِيْمًا: أَنَّهُ ﷻ يُمْهِلُ حَتَّى كَأَنَّه يُهْمِلُ، فَتَرَىٰ أَيْدِي العُصَاةِ مُطْلَقَةً، كَأَنَّه لا مَانِعَ؛ فَإِذَا زَادَ الانْبِسَاطُ، وَلَمْ تَرْعَوِ[٤] العُقُوْلُ؛ أَخَذَ أَخْذَ جَبَّارٍ، وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ الإِمْهَالُ لِيَبْلُوَ صَبْرَ الصَّابِرِ، وَلِيُمْلِيَ فِي الإِمْهَالِ لِلظَّالِمِ، فَيُثَبِّتَ هٰذَا علَىٰ صَبْرِهِ، وَيَجْزِيَ هٰذَا بِقَبِيْحِ فِعْلِهِ. مَعَ أَنَّ هُنَالِكَ مِنَ الحِلْمِ فِي طَيِّ ذٰلِكَ ما لا نَعْلَمُهُ. فَإِذَا أَخَذَ أَخْذَ عُقُوْبَةٍ؛ رَأَيْتَ عَلَىٰ كُلِّ غَلْطَةٍ تَبِعَةً، وَرُبَّمَا جُمِعَتْ، فَضُرِبَ العَاصِي بِالحَجَرِ الدَّامِغِ.

---

(١) موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (٤٦٦ ـ ٥٤٠هـ): عالم بالأدب واللغة، مولده ووفاته ببغداد.

(٢) في الأصل: أن يلتفت.

(٣) في الأصل: ما.

(٤) **ترعوي**: تنزجر وتتعظ.

وَرُبَّمَا خَفِيَ عَلىٰ النَّاسِ سَبَبُ عُقُوْبَتِهِ، فَقِيْلَ: فُلَانٌ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ؛ فَمَا وَجْهُ مَا جَرىٰ لَهُ؟! **فَيَقُوْلُ القَدَرُ**: حُدُوْدٌ لِذُنُوْبٍ خَفِيَّةٍ، صَارَ اسْتِيفَاؤها ظَاهِرًا. **فَسُبْحَانَ مَنْ ظَهَرَ حَتَّىٰ لا خَفَاءَ بِهِ، وَاسْتَتَرَ حَتَّى كَأَنَّه لا يُعْرَفُ، وَأَمْهَلَ حَتَّى طُمِعَ في مُسَامَحَتِهِ، وَنَاقَشَ حَتَّى تَحَيَّرَتِ العُقُوْلُ مِنْ مُؤَاخَذَاتِهِ**، لَا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

٩٦ - فصل: الجمع بين العلم والمعاملة

٤٦٧ ـ **تَأَمَّلْتُ** العِلْمَ وَالمَيْلَ إِلَيْهِ، وَالتَّشَاغُلَ بِهِ؛ فَإِذَا هُوَ يُقَوِّي القَلْبَ قُوَّةً تَمِيْلُ بِهِ إِلَىٰ نَوْعِ قَسَاوَةٍ، وَلَوْلا قُوَّةُ القَلْبِ، وَطُوْلُ الأَمَلِ؛ لَمْ يَقَعِ التَّشَاغُلُ بِهِ؛ فَإِنِّي أَكْتُبُ الحَدِيْثَ أَرْجُوْ أَنْ أَرْوِيَهُ، وَأَبْتَدِئُ بِالتَّصْنِيْفِ أَرْجُوْ أَنْ أَتِمَّهُ.

فَإِذَا تَأَمَّلْتُ بَابَ المُعَامَلاتِ[1]؛ قَلَّ الأَمَلُ[2]، وَرَقَّ القَلْبُ، وَجَاءَتِ الدُّمُوْعُ، وَطَابَتِ المُنَاجَاةُ، وغَشِيَتِ السَّكِيْنَةُ، وَصِرْتُ كَأَنِّي فِي مَقَامِ المُرَاقَبَةِ.

إِلَّا أَنَّ **العِلْمَ أَفْضَلُ**، وَأَقْوَى حُجَّةً، وَأَعْلَىٰ رُتبةً؛ وَإِنْ حَدَثَ مِنْهُ ما شَكَوْتُ مِنْهُ. **وَالمُعَامَلَةُ**؛ وَإِنْ كَثُرَتِ الفَوَائِدُ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا قَرِيْبَةٌ إِلَىٰ أَحْوَالِ الجَبَانِ الكَسْلَانِ، الَّذِي قَدِ اقْتَنَعَ بِصَلَاحِ نَفْسِهِ عَنْ هِدَايَةِ غَيْرِهِ، وَانْفَرَدَ بِعُزْلَتِهِ عَنِ اجْتِذَابِ الخَلْقِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ.

فَالصَّوَابُ العُكُوْفُ عَلىٰ العِلْمِ، مَعَ تَلْذِيْعِ النَّفْسِ بِأَسْبَابِ المُرَقِّقَاتِ تَلْذِيْعًا لا يَقْدَحُ فِي كَمَالِ التَّشَاغُلِ بِالعِلْمِ. فَإِنِّي لَأَكْرَهُ لِنَفْسِي مِنْ جِهَةِ ضَعْفِ قَلْبِي وَرِقَّتِه أَنْ أُكْثِرَ زِيَارَةَ القُبُوْرِ، وَأَنْ أَحْضُرَ المُحْتَضَرِيْنَ؛ لأَنَّ ذٰلِكَ يُؤَثِّرُ في فِكْرِي، وَيُخْرِجُنِي مِنْ حَيِّزِ المُتَشَاغِلِيْنَ بِالعِلْمِ إِلىٰ مَقَامِ الفِكْرِ في المَوْتِ، وَلا أَنْتَفِعُ بِنَفْسِي مُدَّةً.

٤٦٨ ـ **وَفَصْلُ الخِطَابِ** فِي هٰذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَاوَمَ المَرَضُ بِضِدِّه: فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ قَاسِيًا شَدِيْدَ القَسْوَةِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ المُرَاقَبَةِ مَا يَكُفُّهُ عَنِ الخَطَأ؛ قَاوَمَ ذٰلِكَ بِذِكْرِ المَوْتِ، وَمُحَاضَرَةِ المُحْتَضَرِيْنَ.

فَأَمَّا مَنْ قلبُهُ شَدِيْدُ الرِّقَّةِ؛ فَيَكْفِيْهِ مَا بِهِ، بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِمَا يُنْسِيْهِ

---

(١) **المعاملات**: أعمال القلوب أو علم السلوك. (٢) في نسخة: (الزمل) وهو الحِمْل.

ذٰلِكَ؛ لِيَنْتَفِعَ بِعَيْشِهِ، وَلْيُفْهِمَ مَا يُفْتِي بِهِ. وَقَدْ كَانَ **الرَّسُوْلُ** ﷺ **يَمْزَحُ**(١)، **وَيُسَابِقُ عَائِشَةَ** رضي الله عنها(٢)، وَيَتَلَطَّفُ بِنَفْسِهِ(٣). فَمَنْ سَارَ سِيْرَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ؛ فَهِمَ مِنْ مَضْمُوْنِهَا مَا قُلْتُهُ مِنْ ضَرُوْرَةِ التَّلَطُّفِ بِالنَّفْسِ.

٩٧ - فصل: نعوذ بالله من طول الأمل

٤٦٩ ـ أَظْرَفُ الأَشْيَاءِ إِفَاقَةُ المُحْتَضَرِ عِنْدَ مَوْتِه؛ فَإِنَّهُ يَنْتَبِهُ انْتِبَاهًا لا يُوْصَفُ، وَيَقْلَقُ قَلَقًا لا يُحَدُّ، وَيَتَلَهَّفُ عَلىٰ زَمَانِهِ المَاضِي، وَيَودُّ لَوْ تُرِكَ [كَيْ يَتَدَارَكَ مَا فَاتَهُ](٤)، ويَصْدُقَ [فِي] تَوْبَتِهِ عَلىٰ مِقْدَارِ يَقِيْنِهِ بِالمَوْتِ، وَيَكَادُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ قَبْلَ مَوْتِهَا بِالأَسَفِ.

وَلَوْ وُجِدَتْ ذَرَّةٌ مِنْ تِلْكَ الأَحْوَالِ فِيْ أَوَانِ العَافِيَةِ؛ حَصَلَ كُلُّ مَقْصُوْدٍ مِنَ العَمَلِ بِالتَّقْوىٰ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ مَثَّلَ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضىٰ ذٰلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَتَهَيَّأْ تَصْوِيْرُ ذٰلِكَ عَلىٰ حَقِيْقَتِهِ؛ تَخَايَلَهُ عَلىٰ قَدْرِ يَقَظَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَكُفُّ كَفَّ الهَوىٰ، وَيَبْعَثُ عَلىٰ الجِدِّ.

٤٧٠ ـ فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ؛ كَانَ كَالأَسِيْرِ لَهَا. كَمَا رُوِيَ عَنْ حَبِيْبٍ العَجَمِيِّ(٥): أَنَّه كَانَ إِذَا أَصْبَحَ؛ يَقُوْلُ لِامْرَأَتِهِ: إِذَا مُتُّ اليَوْمَ؛ فَفُلَانٌ يُغَسِّلني، وَفُلَانٌ يَحْمِلُنِي.

٤٧١ ـ وَقَالَ مَعْرُوْفٌ لِرَجُلٍ: صَلِّ بِنَا الظُّهْرَ! فَقَالَ: إِنْ صَلَّيْتُ بِكُمُ الظُّهْرَ؛ لَمْ أُصَلِّ بِكُمُ العَصْرَ. **فَقَالَ**: وَكَأَنَّكَ تُؤَمِّلُ أَنْ تَعِيْشَ إِلَىٰ العَصْرِ؟! نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ طُوْلِ الأَمَلِ.

وَذَكَرَ رَجُلٌ رَجُلًا بَيْنَ يَدَيْهِ بِغيبةٍ، فَجَعَلَ مَعْرُوْفٌ يَقُوْلُ لَهُ: اذْكُرِ القُطْنَ إِذَا وَضَعُوْهُ عَلىٰ عَيْنَيْكَ!

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقًا» رواه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٤٠ و٣٦٠) قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، وأحمد (٦/ ٢٦٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أي: كان معتدلًا في أمره كله.

(٤) في الأصل: والتدارك.

(٥) أبو محمد زاهد أهل البصرة وعابدهم، كان مجاب الدعوة.

٩٨ - فصل: أخذ الإشارات من الأشعار

٤٧٢ ـ رُبَّمَا أَخَذَ المُتَيَقِّظُ بَيْتَ شِعْرٍ، فَأَخَذَ مِنْهُ إِشَارَةً، فَانْتَفَعَ بِهَا. قَالَ الجُنَيْدُ: نَاوَلَنِي سَرِيٌّ رُقْعَةً، مَكْتُوْبٌ فِيْهَا: سَمِعْتُ حَادِيًا[1] فِي طَرِيْقِ مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ يَقُوْلُ:

أَبْكِي وَمَا يُدْرِيْكِ مَا يُبْكِيْنِي أَبْكِي حِذَارَ أَنْ تُفَارِقِيْنِي
وَتَقْطَعِي حَبْلِي وَتَهْجُرِيْنِي

فَانْظُرْ ـ رَحِمَكَ اللهُ وَوَفَّقَكَ ـ إِلَىٰ تَأْثِيرِ هٰذِهِ الأَبْيَاتِ عِنْدَ سَرِيٍّ، حَتَّىٰ أَحَبَّ أَنْ يَطَّلِعَ مِنْهَا الجُنَيْدُ عَلَىٰ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَصْلُحْ للاطِّلاعِ عَلَىٰ مِثْلِهَا إِلَّا الجُنَيْدُ.

فَإِنَّ أَقْوَامًا فِيْهِمْ كَثَافَةُ طَبْعٍ وَخُشُوْنَةُ فَهْمٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا سَمِعَ مثلَ هٰذِهِ: إِلَامَ يُشَارُ بِهٰذِهِ؟ إِنْ كَانَ إِلَىٰ الحَقِّ؛ فَالحَقُّ ﷻ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِلَفْظِ تَأْنِيْثٍ، وَإِنْ كَانَ إِلَىٰ امْرَأَةٍ؛ فَأَيْنَ الزُّهْدُ؟! وَلَعَمْرِي إِنَّ هٰذَا حُدَاءُ أَهْلِ الغَفْلَةِ إِذَا سَمِعُوْا مِثْلَ هٰذَا. **وَلِذٰلِكَ يُنْهَىٰ عَنْ سَمَاعِ القَصَائِدِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ الغَنَاءِ؛ لِأَنَّ الغَالِبَ حَمْلُ تِلْكَ الأَبْيَاتِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ النَّفْسِ وَغَلَبَاتِ الهَوَىٰ.** وَمِنْ أَيْنَ لَنَا مِثْلُ الجُنَيْدِ وَسَرِيٍّ؟! وَإِذَا وَجَدْنا مِثْلَهُمَا؛ فَهُمَا خَبِيْرَانِ بِمَا يَسْمَعَانِ.

٤٧٣ ـ وَأَمَّا اعْتِرَاضُ هٰذا الكَثِيْفِ الطَّبْعِ؛ فَالجَوَابُ: أَنَّ سَرِيًّا لَمْ يَأْخُذِ الإِشَارَةَ مِنَ اللَّفْظِ، وَلَمْ يَقِسْ ذٰلِكَ عَلَىٰ مَطْلُوبِهِ، فَيُصَيِّرُهُ تَأْنِيْثًا أَوْ تَذْكِيْرًا، وَإِنَّمَا أَخَذَ الإِشَارَةَ مِنَ المَعْنَىٰ؛ فَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُ حَبِيْبَه بِمَعْنَىٰ الأَبْيَاتِ، فَيَقُوْلُ: أَبْكِي حِذَارًا مِنْ إِعْرَاضِكَ وَإِبْعَادِكَ! فهٰذا الحَاصِلُ لَهُ، وَمَا ٱلْتَفَتَ قَطُّ إِلَىٰ تَذْكِيْرٍ وَلَا إِلَىٰ تَأْنِيْثٍ؛ فَافْهَمْ هٰذا[2]!

٤٧٤ ـ وَمَا زَالَ المُتَيَقِّظُوْنَ يَأْخُذُوْنَ الإِشَارَةَ مِنْ مِثْلِ هٰذَا، حَتَّى كَانُوْا يَأْخُذُوْنَهَا مِن هٰذا الذِي تَقُوْلُهُ العَامَّةُ وَيُلَقِّبُوْنَهُ بـ(كان وكان)[3].

---

(١) **الحادي**: من ينشد للإبل كي تسرع في سيرها.

(٢) قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام في قواعده (١/٣٥٦): تشبيه النفيس بالخسيس سوء أدب لا شك فيه، كالتشبيه بالخصر والردف ونحو ذلك من التشبيهات المستقبحات.

(٣) نوع من الزجل اخترعه البغداديون، نظموا فيه أقاصيص وأساطير، يكون كل شطر من الأشطر =

فَرَأَيْتُ بِخَطِّ ابنِ عَقِيْلٍ عَنْ بَعْضِ مَشَايِخِهِ الكِبَارِ أَنَّه سَمِعَ ٱمْرَأَةً تُنْشِدُ:

غسلت له طول الليل ... فركت له طول النهار

خرج يعاين غيري ... زلق وقع في الطين

فَأَخَذَ مِنْ ذٰلِكَ إِشَارةً مَعْنَاهَا: يَا عَبْدِي! إِنِّي حَسَّنْتُ خَلْقَكَ، وَأَصْلَحْتُ شَأْنَكَ، وَقوَّمْتُ بُنْيَتَكَ، فَأَقْبَلْتَ عَلىٰ غَيْرِي؛ فَانْظُرْ عَوَاقِبَ خِلافِكَ لِي!

وَقَالَ ابْنُ عَقِيْلٍ: وَسَمِعْتُ ٱمْرَأَةً تَقُوْلُ مِنْ هٰذا (الكان وكان)[1]، [وَكَانَتْ] كَلِمَةً بَقِيْتُ فِي قَلَقِهَا[2] مُدَّةً:

كم كنت بالله أقول لك ... لذا التواني غائله

وللقبيح خميره ... تبين بعد قليل

قال ابنُ عَقِيْلٍ: فَمَا أَوْقَعَهُ مِنْ تَخْجِيْلٍ عَلىٰ إِهْمَالِنا لِأُمُوْرٍ غَدًا تَبَيَّنُ خَمَائِرُها[3] بَيْنَ يَدِي اللهِ تَعَالى!

٩٩ - فصل: الورع الأخذ بالأحوط في اتقاء الشبهات

٤٧٥ -أَمْكَنَنِي تَحْصِيْلُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرُّخَصِ، فَكُنْتُ كُلَّمَا حَصَلَ شَيْءٌ مِنْهُ؛ فَاتَنِي مِنْ قَلْبِي شَيْءٌ، وَكُلَّمَا اسْتَنَارَتْ لِي طَرِيْقُ التَّحْصِيْلِ؛ تَجَدَّدُ فِي قَلْبِي ظُلْمَةٌ. **فَقُلْتُ**: يَا نَفْسَ السَّوء! **الإِثْمُ حَوّازُ القُلُوْبِ**[4]، وَقَدْ قَالَ [**النَّبِيُّ** ﷺ]: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ**»[5]؛ فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنيا كُلِّها إِذا كَانَ فِي القَلْبِ مِنْ تحْصِيْلِهَا شَيْءٌ أَوْجَبَ نَوْعَ كَدَرٍ، وَإِنَّ الجَنَّةَ لَوْ حُصِّلَتْ بِسَبَبٍ يَقْدَحُ في الدِّيْنِ أَوْ في المُعَامَلَةِ؛ مَا لَذَّتْ! وَالنَّوْمُ عَلىٰ المَزابِلِ مَعَ سَلامَةِ القَلْبِ مِنَ الكَدَرِ ألذُّ مِنْ تُكْأَةِ المُلُوْكِ.

= الأربعة مخالفًا للشطر الآخر في الوزن، وليس على الناظم أن يلتزم إلا قافية الشطر الأخير. جميل سلطان (كتاب الشعر) ص(١٦٨).

(١) في الأصل: من هذا المكان، والتصويب من (ط).

(٢) **قلقها**: مشغول بها خاطري. (٣) **تبين خمائرها**: تسفر وجوهها.

(٤) **حواز القلوب**: يأسر القلب ويقيده.

(٥) رواه أحمد (٤/٢٨٨)، والدارمي (٢/٢٤٦) عن وابصة بن معبد.

٤٧٦ - وَمَا زِلْتُ أَغْلِبُ نَفْسِي تَارَةً، وَتَغْلِبُنِي أُخْرَى، ثُمَّ تدَّعِي الحَاجَةَ إِلَىٰ تَحْصِيْلِ مَا لا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، **وَتَقُوْلُ**: فَمَا أَتَعَدَّىٰ في الكَسْبِ المُبَاحَ فِي الظَّاهِرِ! **فَقُلْتُ لَهَا**: أَوَلَيْسَ الوَرَعُ يَمْنَعُ مِنْ هٰذا؟ **قَالَتْ**: بَلىٰ. **قُلتُ**: أَلَيْسَتِ القَسْوَةُ في القَلْبِ تَحْصُلُ بِهِ؟ **قَالَتْ**: بَلىٰ. **قُلْتُ**: فَلا خَيْرَ لَكِ فِي شَيْءٍ هٰذا ثَمَرَتُه!

٤٧٧ - فَخَلَوْتُ يَوْمًا بِنَفْسِي، **فَقُلْتُ لَهَا**: وَيْحَكِ! ٱسْمَعِي أُحَدِّثْكِ! إِنْ جَمَعْتِ شَيْئًا مِنَ الدُّنيا مِنْ وَجْهٍ فِيْهِ شُبْهَةٌ؛ أَفَأَنْتِ عَلىٰ يَقِيْنٍ مِنْ إِنْفَاقِهِ؟ **قَالَتْ**: لا. **قُلْتُ**: فَالْمِحْنَةُ أَنْ يَحْظَىٰ بِه الغَيْرُ، وَلا تَنَالِيْنَ إِلَّا الكَدَرَ العَاجِلَ، والوِزْرَ الَّذِي لا يُؤْمَنُ.

وَيْحَكِ! أَتْرُكِي هٰذَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ الوَرَعُ لِأَجْلِ اللهِ، فَعَامِلِيْهِ بِتَرْكِهِ. وَكَأَنَّكِ لا تُرِيْدِيْنَ أَنْ[1] تَتْرُكِي إِلَّا مَا هُوَ مُحَرَّمٌ فَقَط، أَوْ مَا لا يَصِحُّ وَجْهُهُ؟ أَوَ مَا سَمِعْتِ أَنَّ: **«مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ؛ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ»**[2] ؟! **أَمَا لَكِ عِبْرَةٌ فِي أَقْوَامٍ جَمَعُوا، فَحَازَهُ سِوَاهُم، وَأَمَّلُوْا فَمَا بَلَغُوا مُنَاهُمْ؟! كَمْ مِنْ عَالِمٍ جَمَعَ كُتُبًا كَثِيْرَةً مَا انْتَفَعَ بِهَا! وَكَمْ مِنْ مُنْتَفِعٍ مَا عِنْدَهُ عَشرَةُ أَجْزَاءٍ! وَكَمْ مِنْ طَيِّبِ العَيْشِ لا يَمْلِكُ دِيْنَارَيْنِ! وَكَمْ مِنْ ذِي قَنَاطِيْرَ مُنَغَّصٍ!**

أَمَا لَكِ فِطْنَةٌ تَتَلَمَّحُ أَحْوَالَ مَنْ يَتَرَخَّصُ مِنْ وَجْهٍ، فيُسْلَبُ مِنْهُ مِنْ أَوْجُهٍ؟! رُبَّمَا نَزَلَ المَرَضُ بِصَاحِبِ الدَّارِ، أَوْ بِبَعْضِ مَنْ فِيْهَا، فَأَنْفَقَ فِي سَنَتِهِ أَضْعَافَ مَا تَرَخَّصَ فِي كَسْبِه، وَالمُتَّقِي مُعَافًى.

فَضَجَّتِ النَّفْسُ مِنْ لَوْمِي، **وَقَالَتْ**: إِذَا لَمْ أَتَعَدَّ وَاجِبَ الشَّرْعِ؛ فَمَا الَّذِي تُرِيْدُ مِنِّي؟! **فَقُلْتُ لَهَا**: أَضِنُّ بِكِ عَنِ الغَبْنِ، وَأَنْتِ أَعْرَفُ بِبَاطِنِ أَمْرِكِ. **قَالَتْ**: فَقُلْ لِي: مَا أَصْنَعُ؟ **قُلْتُ**: عَلَيْكِ بِالمُرَاقَبَةِ لِمَنْ يَرَاكِ، وَمَثِّلِي نَفْسَكِ بِحَضْرَةِ مُعَظَّمٍ مِنَ الخَلْقِ؛ فَإِنَّكِ بَيْنَ يَدَيْ المَلِكِ الأَعْظَمِ، يَرَىٰ مِنْ بَاطِنِكِ مَا لا يَرَاهُ المُعَظَّمُوْنَ مِنْ ظَاهِرِكِ؛ فَخُذِي بِالأَحْوَطِ، وَٱحْذَرِي مِنَ التَّرَخُّصِ فِي بَيْعِ اليَقِيْنِ وَالتَّقْوَىٰ بِعَاجِلِ الهَوَىٰ؛ فَإِنْ ضَاقَ الطَّبْعُ مِمَّا تَلْقَيْنَ؛ فَقُوْلِي لَهُ: مَهْلًا؛ فَمَا انْقَضَتْ مُدَّةُ الإِشَارَةِ! وَاللهُ مُرْشِدُكِ إِلى التَّحْقِيْقِ، وَمُعِيْنُكِ بِالتَّوْفِيْقِ.

---

(١) في الأصل: ألّا.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٦٣)، والنسائي في الكبرى، والقضاعي (١١٣٥) عن رجل من أهل البادية.

١٠٠ - فصل: إن العقوبة بالمرصاد

٤٧٨ ـ مَا زِلْتُ أَسْمَعُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الأَكَابِرِ وَأَرْبَابِ المَنَاصِبِ أَنَّهُمْ: يَشْرَبُوْنَ الخُمُوْرَ، وَيَفْسُقُوْنَ، وَيَظْلِمُوْنَ، وَيَفْعَلُوْنَ أَشْيَاءَ تُوْجِبُ الحدودَ! فَبَقِيْتُ أَتَفَكَّرُ؛ أَقُوْلُ: مَتَىٰ يَثْبُتُ عَلىٰ مِثْلِ هٰؤلاءِ مَا يُوْجِبُ حَدًّا؟ فَلَوْ ثَبَتَ؛ فَمَنْ يُقيمُهُ؟ وَأَسْتَبْعِدُ هٰذا فِي العَادَةِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مَقَامِ احْتِرَامٍ لِأَجْلِ مَناصِبِهِم.

فَبَقِيْتُ أَتَفَكَّرُ فِي تَعْطِيْلِ الحَدِّ الوَاجِبِ عَلَيْهِم، حَتَّى رَأَيْناهُمْ قَدْ نُكِبُوا، وَأُخِذُوْا مَرَّاتٍ، ومَرَّتْ عَلَيْهِمُ العَجَائِبُ، فَقُوْبِلَ ظُلْمُهُم بِأَخْذِ أَمْوَالِهِم، وَأُخِذَتْ مِنْهُمُ الحُدُوْدُ مُضَاعَفَةً بَعْدَ الحَبْسِ الطَّوِيْلِ، وَالقَيْدِ الثَّقِيْلِ، والذُّلِّ العَظِيْمِ، وَفِيْهِم مَنْ قُتِلَ بَعْدَ مُلاقاةِ كُلِّ شِدَّةٍ! فَعَلِمْتُ أَنَّه مَا يُهْمَلُ شَيْءٌ! فَالحَذَرَ الحَذَرَ؛ فَإِنَّ العُقُوبَةَ بِالمِرْصَادِ.

١٠١ - فصل: اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم

٤٧٩ ـ اجْتِهَادُ العَاقِلِ فِيْمَا يُصْلِحُهُ لازِمٌ لَهُ بِمُقْتَضَىٰ العَقْلِ وَالشَّرْعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ حِفْظُ مَالِهِ، وَطَلَبُ تَنْمِيَتِه، وَالرَّغْبَةُ فِي زِيَادَاتِهِ ـ لِأَنَّ[1] سَبَبَ بَقَاءِ الإِنْسَانِ مالُهُ ـ فَقَد نُهِيَ عَنِ التَّبْذِيرِ فِيْهِ: فَقِيْلَ لهُ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ فأُعْلِمَ أَنَّه سَبَبٌ لِبَقَائِه: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]؛ أَيْ: قِوامًا لِمَعَاشِكُمْ. وَقالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وَقَالَ تَعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وَقَالَ تَعالىٰ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٤٨٠ ـ وَمِنْ فَضِيْلَةِ المَالِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وَقَالَ تَعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠].

٤٨١ ـ وَجَعَلَ المَالَ نِعْمَةً، وَزَكَاتَهُ تَطْهِيْرًا: فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً

---

(١) في الأصل: لأنه.

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وَقَالَ ﷺ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ للرَّجُلِ الصَّالِحِ**»، وقال: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ**». وَكَانَ أَبُوْ بَكْرٍ رضي الله عنه يَخْرُجُ إِلَىٰ التِّجَارَةِ، وَيَتْرُكُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ؛ فَلَا يَنْهَاهُ عَنْ ذٰلِكَ.

٤٨٢ ـ وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «لَأَنْ أَمُوْتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ جَبَلٍ، أَطْلُبُ كَفَافَ وَجْهِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوْتَ غَازِيًا فِي سَبِيْلِ اللهِ».

٤٨٣ ـ وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يَتَّجِرُوْنَ. وَمِنْ سَادَاتِ التَّابِعِيْنَ سَعِيْدُ بنُ المسيَّبِ؛ مَاتَ وَخَلَّفَ مالًا، وَكَانَ يَحْتَكِرُ الزَّيْتَ [١]. وَمَا زَالَ السَّلَفُ عَلَىٰ هٰذَا.

٤٨٤ ـ ثُمَّ قَدْ تَعْرِضُ نَوَائِبُ ـ كَالمَرَضِ ـ يُحْتَاجُ فِيْهَا إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ المَالِ، فَلَا يَجِدُ الإِنْسَانُ بُدًّا مِنَ الاحْتِيَالِ فِي [طَلَبِه] [٢]؛ فيبذُلُ عِرْضَه أَوْ دِيْنَه.

٤٨٥ ـ ثُمَّ للنَّفْسِ قُوَّةٌ بَدَنِيَّةٌ عِنْدَ وُجُوْدِ المَالِ، وَهُوَ مَعْدُوْدٌ عِنْدَ الأَطِبَّاءِ مِنَ الأَدْوِيَةِ؛ حِكْمَةً وضَعَها الواضعُ.

٤٨٦ ـ وإِنَّما نَبَغَ أَقْوَامٌ، طَلَبُوْا طَرِيْقَ الرَّاحَةِ، فَادَّعَوْا أَنَّهُمْ مُتَوَكِّلَةٌ، وَقَالُوْا: نَحْنُ لا نُمْسِكُ شَيْئًا، وَلا نَتَزَوَّدُ لِسَفَرٍ، وَرِزْقُ الأَبْدَانِ يَأْتِي! وَهٰذَا عَلَىٰ مُضَادَّةِ الشَّرْعِ: فَإِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ **نَهَىٰ عَنْ إِضَاعَةِ المال** [٣]؛ وَمُوْسَىٰ عليه السلام لمّا سَافَرَ فِي طَلَبِ الخَضِرِ تزوَّدَ [٤]؛ ونبيُّنا ﷺ **لَمَّا هَاجَرَ تَزَوَّدَ** [٥]؛ وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذا قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] [٦].

ثُمَّ يَدَّعِي هٰؤلاءِ المُتَصَوِّفةُ بُغْضَ الدُّنيا؛ فَلا يَفْهَمُوْنَ مَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُبْغَضَ، ويَرَوْنَ زِيَادَةَ الطَّلَبِ لِلْمَالِ حِرْصًا وشَرَهًا!!

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٥٤)، وسيأتي في الفصل (١٠٩) عن سعيد بن المسيب: أنه كان يتّجر في الزيت.

(٢) في الأصل: طلبته.

(٣) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة رضي الله عنه.

(٤) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٢٦].

(٥) رواه البخاري (٣٩٠٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) قال ابن عباس: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، رواه البخاري (١٥٢٣) وغيره.

وَفِي **الجُمْلَةِ**؛ إِنَّمَا اخْتَرَعوا بِآرَائِهِم طَرِيْقًا: فِيْهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّهْبانيَّةِ إِذَا صَدَقُوْا، وَشَيْءٌ مِنَ البَهْرَجَةِ[1] [إِذْ][2] نَصَبُوْا شِبَاكَ الصَّيْدِ بِالتَّزَهُّدِ! فَسَمَّوْا ما يَصِلُ إليهم مِنَ الأَرْزَاقِ فُتوحًا[3]!!

٤٨٧ ـ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ[4] فِي (غَرِيْبِ الحَدِيْثِ) عِنْدَ شَرْحِ قَوْلِهِ ﷺ: «**وَاليَدُ العُلْيَا**...»[5]؛ قَالَ: «هِيَ المُعْطِيَةُ». قالَ: «فَالعَجَبُ عِنْدِي مِنْ قَوْمٍ يَقُوْلُوْنَ: هِيَ الآخِذَةُ! وَلا أَرَىٰ هٰؤلاءِ القَوْمَ إِلَّا قَوْمًا اسْتَطَابُوْا السُّؤَالَ؛ فَهُمْ يَحْتَجُّونَ للدَّناءَةِ؛ فَأَمَّا الشَّرَائِعُ؛ فَإِنَّها بَرِيْئَةٌ مِنْ حَالِهِم».

٤٨٨ ـ وَفي الحَدِيْثِ[6]: **ضَاقَ البَلَدُ بِمَوَاشِي إِبْرَاهِيْمَ وَلُوْطٍ** عليهما السلام فافْتَرَقا.

٤٨٩ ـ وَكَانَ شُعَيْبٌ عليه السلام كَثِيْرَ المَالِ، ثُمَّ قَدْ نَدَّ طمعُهُ في زِيادَةِ الأَجْرِ مِنْ مُوْسَىٰ عليه السلام، فقال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

٤٩٠ ـ وَكَانَ ابْنُ عَقِيْلٍ رحمه الله يَقُوْلُ: مَنْ قَالَ: إِنِّي لَا أُحِبُّ الدُّنيا؛ فَهُوَ كَذَّابٌ؛ فَإِنَّ يَعْقُوْبَ عليه السلام لَمَّا طُلِبَ مِنْهُ ابنُه بِنْ يامِيْن[7]؛ قَالَ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٦٤] فَقَالُوْا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥] فَقَالَ: خُذُوْهُ.

٤٩١ ـ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنِ ادَّعَىٰ بُغْضَ الدُّنيا؛ فَهُوَ عِنْدِي كَذَّابٌ إِلَىٰ أَنْ يَثْبُتَ صِدْقُهُ؛ فَإِذَا ثَبَتَ صِدْقُهُ؛ فَهُوَ مَجْنُوْنٌ.

٤٩٢ ـ وَقَدْ نَفَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ خَلْقًا مِنَ الخَلْقِ عَنِ الكَسْبِ، وَأَوْحَشُوْا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَه، وَهُوَ دَأْبُ الأَنْبِيَاءِ والصَّالِحِيْنَ. وَإِنَّمَا طَلَبُوْا طَرِيْقَ الرَّاحَةِ، وَجَلَسُوا عَلَىٰ الفُتُوْحِ، فَإِذا شَبِعُوْا؛ رَقَصُوْا، فَإِذَا انْهَضَمَ الطَّعَامُ؛ أَكَلُوْا، فَإِذَا لَاحَتْ لَهُمْ حِيْلَةٌ عَلَىٰ

---

(١) **البهرجة**: الزيف والباطل.
(٢) في الأصل: إذا.
(٣) **الفتوح**: العطايا الربانية.
(٤) عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدينوري (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ): من أئمة اللغة والأدب ومن المصنفين المكثرين.
(٥) رواه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٦) يستعمل المؤلف كلمة الحديث بمعناها اللغوي في أكثر من موضع. فلعلّ منه هذا.
(٧) هو ابن يعقوب عليه السلام من زوجته راحيل، وبن يامين معناه: ابن اليمين.

غَنِيٍّ؛ أَوْجَبُوْا عَلَيْهِ دَعْوَةً؛ إِمّا بِسَبَبِ شُكْرٍ، أوْ بِسَبَبِ اسْتِغْفَارٍ. وَأَطَمُّ الطَّامَّاتِ ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ هٰذَا قُرْبةٌ! وَقَدِ انْعَقَدَ إِجْمَاعُ العُلَمَاءِ أَنَّ مَنِ ادَّعَىٰ الرَّقْصَ قُرْبَةً إِلىٰ الله تَعَالَىٰ؛ كَفَرَ؛ فَلَوْ أَنَّهُمْ قالوا: مُبَاحٌ؛ كَانَ أَقْرَبَ حالًا! وهٰذا لِأَنَّ القُرَبَ لا تُعْرَفُ إِلَّا بالشَّرْعِ، وَلَيْسَ في الشَّرْعِ أَمْرٌ بِالرَّقْصِ، ولا نَدْبٌ إِلَيْهِ[1].

٤٩٣ ـ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوْا يُوقِدُوْنَ الشَّمْعَ فِيْ وُجُوْهِ المُرْدانِ، وَيَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِم؛ فَإِذا سُئِلُوْا عَنْ ذٰلِكَ؛ سَخِرُوْا بِالسَّائِلِ، فَقَالُوْا: نَعْتَبِرُ بِخَلْقِ اللهِ! أفَتَراهُمْ أَقْوَىٰ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حِيْنَ أَجْلَسَ الشَّابَّ الّذِي وَفَدَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: «**وَهَلْ كَانَتْ فِتْنَةُ دَاوُدَ إِلَّا مِنَ النَّظَرِ**»[2]؟!

هَيْهَاتَ! لَقَدْ تَمَلَّكَ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الأَزِمَّةَ فَقَادَهَا إِلَىٰ مَا أرادَ.

٤٩٤ ـ وَالعَجَبُ مِمَّنْ يَذُمُّ الدُّنْيا وَهُوَ يَأْكُلُ فَيَشْبَعُ، وَلَا يَنْظُرُ مِنْ أَيْنَ المَطْعَمُ! وَمَا زَالَ صَالِحُوْ السَّلَفِ يُفَتِّشُوْنَ عَنِ المَطْعَمِ: حَتَّى كَانَ **إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ** يَسْهَرُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَيَقُوْلُوْنَ: مَعَ مَنْ نَعْمَلُ غَدًا. وَكَانَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يُعْرَفُ بِطِيْبِ الغِذَاءِ، وَلَهُ فِي الوَرَعِ مَقَامَاتٌ.

٤٩٥ ـ فَجَاءَ قَوْمٌ يَتَسَمَّوْنَ بِالصُّوفيَّةِ، يَدَّعُوْنَ اتِّبَاعَ أُولٰئِكَ السَّادَةِ، وَيَأْكُلُوْنَ مِنْ مَالِ فُلانٍ، وَهُمْ يَعْرِفُوْنَ أُصُوْلَ تِلْكَ الأَمْوَالِ، وَيَقُوْلُوْنَ: رُزِقْنا!

فَوَا عَجَبًا! إِذ كَانَ الآكِلُ لا يُبَالِي بِهِ مِنْ أَيْنَ، وَلَا لَدَيْهِ امْتِنَاعٌ مِنْ شَهْوَةٍ وَلا تَقَلُّلٌ، وَلا يَخْلُو الرِّبَاطُ[3] مِنَ المَطْبَخِ، وَلا يَنْقَطِعُ لَيْلَةً، وأَصْلُهُ مِنْ مَالٍ قَدْ عُرِفَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَالحَمَّامُ دَائِرٌ، وَالمُغَنِّي يَدُقُّ بِدُفٍّ فِيْهِ جَلاجِلُ[4]، وَرَفِيْقُه بِالشَّبَّابةِ[5]،

---

(١) انظر: كتاب «الرهص والوقص لمستحلِّ الرقص» للعلامة الفقيه الشيخ إبراهيم الحلبي صاحب كتاب «ملتقى الأبحر». من منشورات دار البشائر بدمشق.

(٢) من كلام سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) الرباط مكان على الحدود مع العدو، يجتمع فيه العباد والزهاد بغية المشاركة في الجهاد في سبيل الله وحماية دار الإسلام كما كان يفعل عبد الله بن المبارك وأمثاله، ثم صار يطلق على المكان الذي يجتمع فيه المتصوفة والدراويش.

(٤) الجلاجل: الأجراس الصغيرة تثبت على أطراف الدف.

(٥) المزمار.

وسُعْدَى وَلَيْلَىٰ في الإِنْشَادِ، والمُرْدَانُ فِي الشَّمْعِ، ثُمَ يَذُمُّ الدُّنيا بَعْدَ هٰذا؛ فَقُوْلُوْا لَنَا: مَنْ يَتَلَهَّى بِالنَّاسِ [إلَّا هٰؤلاء]؟! ولٰكنْ؛ مَنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ زَرْجَنَتُهم[1]؛ فَإِنّه أَخَسُّ مِنْهُمْ.

١٠٢ - فصل: لو صحّت النفوس لذابت من خوف الله أو لغابت في محبته

٤٩٦ ـ عَرَضَ لِيْ فِي طَرِيْقِ الحَجِّ خَوْفٌ مِنَ **العَرَبِ**[2]، فَسِرْنا عَلىٰ طَرِيْقِ خَيْبَرَ[3]، فَرَأَيْتُ مِنَ الجِبَالِ الهَائِلَةِ؛ وَالطُّرُقِ العَجِيْبَةِ مَا أَذْهَلَنِي، وَزَادَتْ عَظَمَةُ الخَالِقِ ﷻ فِي صَدْرِي، فَصَارَ يَعْرِضُ لِي عِنْدَ ذِكْرِ تِلْكَ الطُّرُقِ نَوْعُ تَعْظِيْمٍ لا أَجِدُه عِنْدَ ذِكْرِ غَيرِهَا. فَصِحتُ بِالنَّفْسِ: وَيْحَكِ! اعْبُرِي إِلىٰ البَحْرِ، وانْظُرِي إِلَيْهِ، وَإِلىٰ عَجَائِبِه بِعَيْنِ الفِكْرِ؛ تُشَاهِدِي أَهْوَالًا هِيَ أَعْظَمُ مِنْ هٰذِهِ. ثُمّ ٱخْرُجِي إِلىٰ الكَوْنِ، وَٱلْتَفِتِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّكِ تَرَيْنَهُ بِالإِضَافَةِ إِلىٰ السّمَاواتِ والأَفْلَاكِ كَذَرَّةٍ فِي فَلاةٍ، ثُمّ جُوْلِي فِي الأَفْلَاكِ، وَطُوْفِي حَوْلَ العَرْشِ، وَتَلَمَّحِي مَا فِي الجِنَانِ والنِّيْرَانِ. ثُمّ ٱخْرُجِي عَنِ الكُلِّ، وَٱلْتَفِتِي إِلَيْهِ؛ فَإِنّكِ تُشَاهِدِينَ العَالَمَ[4] فِي قَبْضَةِ القَادِرِ الّذِي لا تَقِفُ قُدْرَتُهُ عِنْدَ حَدٍّ.

ثُمّ ٱلْتَفِتِي إِلَيْكِ، فَتَلَمَّحِي بِدَايَتَكِ وَنِهَايَتَكِ، وَتَفَكَّرِي فِيْمَا قَبْلَ البِدَايَةِ، وَلَيْسَ إِلَّا العَدَمُ، وَفِيْمَا بَعْدَ البِلَىٰ، وَلَيْسَ إِلَّا التُّرَابُ.

فَكَيْفَ يَأْنَسُ بِهٰذا الوُجُوْدِ مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ فِكْرِهِ المَبْدَأَ والمُنْتَهَىٰ؟! وَكَيْفَ يَغْفَلُ أَرْبَابُ[5] القُلُوْبِ عَنْ ذِكْرِ هٰذَا الإِلٰهِ العَظِيْمِ؟! وبِاللهِ؛ لَوْ صَحَتِ النُّفُوْسُ مِنْ سُكْرِ هَوَاهَا؛ لَذَابَتْ مِنْ خَوْفِهِ، أو لَغَابَتْ فِيْ حُبِّهِ؛ غَيْرَ أَنَّ الحِسَّ غَلَبَ، فَعَظُمَتْ قُدْرَةُ الخَالِقِ عِنْدَ رُؤْيَةِ جَبَلٍ، وَإِنَّ الفِطْنَةَ لَوْ تَلَمَّحَتِ المَعَانيَ؛ لَدَلَّتِ القُدْرَةُ عَلَيْهِ أَوْفَىٰ مِنْ

---

(١) **زرجنتهم**: خديعتهم.

(٢) كان ذلك في حجته الثانية سنة (٥٥٣هـ)، أما الأولى فكانت سنة (٥٤١هـ)، والمقصود بالعرب الأعراب، الذين كانوا يقطعون الطريق على القوافل.

(٣) **خيبر**: ناحية شمال المدينة على طريق الشام. ومعنى خيبر بالعبرانية: الحصن.

(٤) في الأصل: تشاهدينه.

(٥) في الأصل: فعل.

دَلِيْلِ الجَبَلِ. سُبْحَانَ مَنْ شَغَلَ أَكْثَرَ الخَلْقِ بِمَا هُمْ فِيْهِ عَمَّا خُلِقُوْا لَهُ! سُبْحَانَهُ!

١٠٣ - فصل: الواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعًا

٤٩٧ ـ لِلبَلَاءِ نِهَايَاتٌ مَعْلُوْمَةُ الوَقْتِ عِنْدَ اللهِ ﷻ؛ فَلا بُدَّ لِلْمُبْتَلَىٰ مِن الصَّبْرِ إِلَىٰ أَنْ يَنْقَضِيَ أَوَانُ البَلَاءِ؛ فَإِنْ تَقَلْقَلَ[1] قَبْلَ الوَقْتِ؛ لَمْ يَنْفَعِ التَّقَلْقُلُ؛ كَمَا أَنَّ المَادَّةَ إِذا انْحَدَرَتْ إِلىٰ عُضْوٍ؛ فَإِنَّها لَنْ تَرْجِعَ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ الصَّبْرِ إِلَىٰ حِيْنِ البَطَالَةِ. فَاسْتِعْجَالُ زَوَالِ البَلَاءِ مَعَ تَقْدِيْرِ مُدَّتِهِ لا يَنْفَعُ. فَالوَاجِبُ الصَّبْرُ، وَإِنْ كَانَ الدُّعَاءُ مَشْرُوْعًا، وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا به.

٤٩٨ ـ إِلَّا أَنَّهُ لا يَنْبَغِي للدَّاعِي أَنْ يَسْتَعْجِلَ، بَلْ يَتَعَبَّدُ بِالصَّبْرِ وَالدُّعَاءِ، وَالتَّسْلِيْمِ إِلىٰ الحَكِيْمِ، ويَقْطَعُ المَوَادَّ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِلْبَلاءِ؛ فَإِنَّ غَالِبَ البَلَاءِ أَنْ يَكُوْنَ عُقُوْبَةً. فَأَمَّا المُسْتَعْجِلُ، فَمُزَاحِمٌ لِلْمُدَبِّرِ، وَلَيْسَ هٰذَا مَقَامَ العُبُوْدِيَّةِ، وَإِنَّمَا المَقَامُ الأَعْلَىٰ هُوَ الرِّضا. والصَّبْرُ هُوَ اللّازِمُ، وَالتَّلاجِي[2] بِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ نِعْمَ المُعْتَمَدُ، وَالاعْتِرَاضُ حَرَامٌ، وَالاسْتِعْجَالُ مُزَاحَمَةٌ لِلتَّدْبِيْرِ. فَافْهَمْ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّها تُهَوِّنُ البَلاءَ.

١٠٤ - فصل: زاد الصابر

٤٩٩ ـ لَيْسَ فِي الوُجُودِ شَيْءٌ أَصْعَبَ مِنَ الصَّبْرِ: إِمَّا عَنِ المَحْبُوْبِ، أَوْ عَلىٰ المَكْرُوْهَاتِ، وَخُصُوْصًا إِذَا امْتَدَّ الزَّمانُ، أَوْ توَقَّعَ اليَأْسَ مِنَ الفَرَجِ. وَتِلْكَ المُدَّةُ تَحْتَاجُ إِلى زَادٍ يُقْطَعُ بِهِ سَفَرُها.

٥٠٠ ـ وَالزَّادُ يَتَنَوَّعُ مِنْ أَجْنَاسٍ: **فَمِنْهُ**: تَلمُّحُ مِقْدَارِ البَلَاءِ، وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ أَكْثَرَ، **وَمِنْهُ**: أَنَّهُ فِي حَالٍ فَوْقَهَا أَعْظَمُ مِنْهَ؛ مِثْلُ أَنْ يُبْتَلىٰ بِفَقْدِ وَلَدٍ؛ وَعِنْدَهُ أَعَزُّ مِنْهُ، وَمَنْ ذٰلِكَ: رَجَاءُ العِوَضِ فِي الدُّنْيَا، **وَمِنْهُ**: تَلَمُّحُ الأَجْرِ فِي الآخِرَةِ، **وَمِنْهُ**: التَّلَذُّذُ بِتَصَوِيْرِ المَدْحِ وَالثَّنَاءِ مِنَ الخَلْق فِيْمَا يَمْدَحُوْنَ عَلَيْهِ، وَالأَجْرِ مِنَ الحَقِّ ﷻ.

---

(١) ضعف ولم يصبر.

(٢) التلاجي: الالتجاء.

وَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّ الجَزَعَ لا يُفيدُ، بَلْ يَفْضَحُ صَاحِبَهُ. إِلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَشْيَاءِ الّتِي يَقْدَحُهَا العَقْلُ والفِكْرُ؛ فَلَيْسَ فِي طَرِيْقِ الصَّبْرِ نَفَقَةٌ سِوَاهَا؛ فَيَنْبَغِي للصَّابِرِ أَنْ يَشْغَلَ بِهَا نَفْسَهُ، ويَقْطَعَ بِهَا سَاعَاتِ ابْتِلائِهِ؛ وَقَدْ صَبَّحَ المَنْزِلَ.

١٠٥ - فصل: المدعو مالك حكيم

٥٠١ ـ يَنْبَغِي لِمَنْ وَقَعَ فِي شِدَّةٍ، ثُمّ دَعَا أَنْ لا يَخْتَلِجَ في قَلْبِهِ أَمْرٌ مِنْ تَأْخِيْرِ الإِجابَةِ أو عَدَمِهَا؛ لِأَنَّ الّذِي عليْهِ[1] أَنْ يَدْعُوَ، والمَدْعُوُّ مَالِكٌ حَكِيْمٌ؛ فَإِنْ لَمْ يُجِبْ؛ فَعَلَ مَا يَشَاءُ فِي مُلْكِهِ، وَإِنْ أَخَّرَ؛ فَعَلَ بِمُقْتَضىٰ حِكْمَتِهِ؛ فَالمُعْتَرِضُ عَلَيْهِ في سِرِّهِ خَارِجٌ عَنْ صِفَةِ عَبْدٍ، مُزَاحِمٌ [لمرتبَتِهِ][2]، مُسْتَحِقٌّ [لعقوبته].

٥٠٢ ـ ثُمَّ لْيَعْلَمْ أَنَّ اخْتِيَارَ الله ﷻ لَهُ خَيْرٌ مِن اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ. فَرُبَّمَا سَأَلَ سَيْلًا سَالَ بِهِ! وَفِي الحَدِيْثِ: «أَنَّ رجُلًا كَانَ يَسْأَلُ اللهَ ﷻ أنْ يَرْزُقَهُ الجِهَادَ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: إِنَّكَ إِنْ غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وَإِنْ أُسِرْتَ؛ تَنَصَّرْتَ».

فَإِذَا سَلَّمَ العَبْدُ تَحْكِيْمًا لِحِكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَأَيْقَنَ أَنَّ الكُلَّ مُلْكَهُ؛ طَابَ قَلْبُه؛ قُضِيَتْ حاجتُه، أوْ لم تُقْضَ.

٥٠٣ ـ وَفِي الحَدِيْثِ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللهَ تَعَالىٰ إِلَّا أَجَابَهُ: فَإِمَّا أَنْ يُعَجِّلَها، وَإِمَّا أَنْ يُؤَخِّرَها، وَإِمّا أَنْ يَدَّخِرَها لَهُ فِي الآخِرَةِ**»[3]. فَإِذَا رَأَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ مَا أُجِيْبَ فِيْهِ قَدْ ذَهَبَ، وَمَا لَمْ يُجَبْ فِيْهِ قَدْ بَقِيَ ثَوَابُه؛ قَالَ: لَيْتَكَ لَمْ تُجِبْ لِي دَعْوَةً قَطُّ. فَافْهَمْ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ! وَسَلِّمْ قَلْبَكَ مِنْ أَنْ يَخْتَلِجَ فِيْهِ رَيْبٌ أَوِ اسْتِعْجَالٌ.

١٠٦ - فصل: رتبة العلماء على الزهاد

٥٠٤ ـ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ رُتْبَةَ العُلَمَاءِ عَلَىٰ الزُّهَّادِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي رُتْبَةِ جِبْرِيْلَ

---

(١) في الأصل: إليه، وهو تصحيف.

(٢) في حاشية الأصل: في الأحمدية: لمرتبة مستحق، قلت: وفي المصرية والهندية: بمرتبته مستحق.

(٣) رواه أحمد (٣/١٨)، وأبو نُعيم (٦/٣١١)، والحاكم (١/٤٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، إلا أن الشيخين لم يخرّجا عن علي بن علي الرفاعي ووافقه الذهبي.